رحلة

سمو الأمير الجليل محمد علي

إلى

البلاد الهندية

على بقية تقييمها وتبويبها

على أحمد شكري

الطبعة الثانية بمصر

ARAB REPUBLIC OF EGYPT NATIONAL LIBRARY
opelkandi.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله مبدع الكائنات ومعلم الانسان مالم يعلم والصلاة والسلام على نبيه محمد سيد المخلوقات من بعث بالحق وفصل الخطاب وعلى آله وأصحابه أجمعين

وبعد فلما كان القرآن الكريم أكبر معلم للأمم بما حواه من تاريخ مختلف الشعوب وما طرا عليها من التطورات ولذا كان قد حض على السفر فى أنحاء الارض ليتعظ الانسان بقدرة خالق الخلق وليقف بنفسه على بعض أسرار عظمة هذا الكون البديع كقوله تعالى « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » وغيرها من الآيات الكثيرة — فقد ولعت منذ حداثة سنى بالاسفار وتجشم المتاعب فى سبيل استطلاع عجائب الكون لا لمجرد التسلية بل لاتقدم بما رأيت الى مواطنى الاعزاء فيشتركوا معى فى رؤية تلك العجائب بقراءة مادونته عنها دون أن يجشموا أنفسهم عناء أو يثقلوا كواهلهم باعباء

وإذا كنت قد تقدمت لمواطنى الاعزاء بما شاهدته فى رحلاتى الثمان الماضية فانى أتقدم اليهم الآن برحلتى الى بلاد الهند تلك البلاد الشاسعة

التى كانت ولا تزال مصدر العجائب . ولقد توخينا الايجاز فى وصف عجائب تلك البلاد حرصاً على وقت القارئ ولكن لم يفتنا أن نلم بطرف مما أنشأه امبراطرة المغول من ملك واسع وما أتوه من عجائب فن البناء مما لايزال يحج اليه الناس من مختلف الأرض لمشاهدته .

وانى لأحمد الله على ما وهبنى من نعمة الصحة والعافية والمال للقيام بهذه الرحلات التى أرى انها جزء من حق الوطن علىّ .

وهنا أبدأ وصف رحلتى وبالله المستعان .

محمد على

الرحلة الهندية

مغادرة جاوا

١٨ اغسطس سنة ١٩٢٩

غادرنا « جاوا » على ظهر إحدى البواخر الهولندية الكبرى وكانت غاصة بالسائحين . ولقد كانت حجر الباخرة فى منتهى النظافة وحسن النظام مما يدل على شدة العناية براحة المسافرين

١٩ اغسطس

وفى صبيحة اليوم التالى خيل الىّ أن حالة الطقس معتدلة ولكن ما كدت أصعد الى ظهر الباخرة حتى شعرت بشدة الرياح فعدت الى مخدعى ولبست قميصا أفرنجيا بياقة صلبة .

وسارت بنا الباخرة تتهادى كالعروس وإلى يميننا جزيرة « بانجكا » وإلى اليسار جزيرة « سومطرة » ولشد ما كانت دهشتى لرؤية اثنين من الانجليز فى « ألبسة » قصيرة من التيل الابيض وهى كثيرة الشبه بما يلبسه الناس فى مصر تحت « البنطلون » ! فأخذت أسائل نفسى هل نحن سائرون فى طريق تقليد العبيد فى ملابسهم التى ما تزال على حالة الفطرة وهل سوف نكون يوماً ما كالسودانيين نكتفى من اللباس بما يستر العورة ؟!

وما تنصفت الساعة الواحدة بعد الظهر حتى كانت الباخرة قد وصلت « مانتوك » عاصمة جزيرة « بانجكا » فأخذ يغادر الباخرة كثير من المسافرين

وأغلبهم من الصينيين وبينهم بعض الاجانب لأن تجارة هذه الجزر يوجد معظمها بأيدى الصينيين .

وقضت الباخرة ساعة فى ميناء « مانتوك » غادرتها بعدها قاصدة « سنغافوره » .

فى الطريق الى سنغافوره

كان السفر من مانتوك مريحا والبحر هادئا وليس فى هذا ما يدعو للدهشة إذ كنا نسير بقرب شواطىء الجزر .

وما وافت الساعة السادسة مساء حتى اجتزنا خط الاستواء . وهذه هى المرة السادسة التى اجتاز فيها هذا الخط أثناء سياحاتى العديدة حول العالم . وكان الطقس دافئا والبحر هادئا والسفر مريحا .

٢٠ اغسطس

وبكرت فى الاستيقاظ صباح يوم ٢٠ أغسطس فلم تحل الساعة الرابعة حتى كنت أتهيأ لصلاة الفجر . فلما فرغت من الصلاة شرعت أتأهب لمشاهدة منظر مدخل ميناء سنغافورة التى كان مقرراً أن نصلها فى الساعة السادسة صباحاً .

وفى الساعة الخامسة تكشفت لنا أنوار المدينة . وليس شك فى أن مدخلها كمدخل غيرها من المدن التى تحيط بها الجزر العديدة ، يعتبر آية فى الحسن والابداع ذلك لأن منظر الجزر يكسب المدينة بهجة و نضرة . على أن اغتباطنا بهذا المنظر لم يدم طويلا بسبب ما انتشر فى الأفق من الضباب الكثيف الذى حجب عنا الرؤية مما ذكرنا بجولندن فى شهر نوفمبر

حيث ينتشر الضباب الكثيف فيكاد يعمى الأبصار . ولعل انتشار الضباب هو الذى أخر الباخرة عن الميعاد المقرر لوصولها بنحو نصف ساعة ، فبدلا من وصولها فى الساعة السادسة وصلت فى منتصف الساعة السابعة .

فى مدينة سنغافوره

كنا نظن اننا سننزل إلى البر بمجرد وصولنا الى الميناء ولكننا لم نتمكن من النزول لأن الموظفين المختصين بفحص جوازات السفر لم يحضروا الينا فورا لسبب انشغالهم بفحص جوازات المسافرين الأمريكان الذين وصلوا قبلنا باحدى البواخر الأمريكية التابعة لشركة « دولار لين » . وقد لبثنا ننتظر رجال الجوازات ريثما ينتهون من فحص جوازات أولئك المسافرين ثم يتفرغون لنا .

وطال بنا الانتظار وبعد ساعة وربع من وصولنا للميناء وافانا أحد موظفى الجوازات ولشد ما كانت دهشتنا بعد كل هذا الانتظار الممل اذ رأيناه يكتفى بالقاء نظرة عجلى على جوازاتنا كأنها كانت بعد طول الانتظار لا تستحق إلا مجرد الفحص السطحى ؛ وبعد الأنتهاء من فحصها بدأ السائحون ينزلون الى البر .

نحن الآن فى سنغافورة . وهى ميناء حر بكل ما تحمله هذه اللفظة من المعانى . أى أنها ميناء بلا جمارك .

ثم اذا نحن بمندوب شركة كوك وقد جاء يستفسر عما نريد فسلمناه أمتعتنا وراح يستأجر لنا سيارة لتقلنا إلى فندق « اوربا » وهو أكبر فنادق هذه المدينة وأفخمها .

وإذا تكلمنا عن كبر الفندق وفخامته فليس إلا من باب التسامح لاغير، وإلا فانه لا يخرج فى الواقع عن شكل « وكالة » شاسعة أو «قشلاق» متسع الجنبات ثم هو فوق كل ذلك مبنى على الطراز القديم

فلما بلغنا الفندق خف لاستقبالنا موظفوه وهم من الهنود . ثم علمنا أن إدارته بأيدى الهنود بينما يتولى الصينيون أعمال الحسابات فيه . وفى صالة الفندق الكبرى الفينا عددا كبيرا من السائحين الاوستراليين ممن سبقونا الى زيارة هذه المدينة .

أما قاعة الطعام فكبيرة الحجم وهى فوق ذلك جميلة يتخللها الهواء ولكن حجر النوم لم تدخلها بعد الاستعدادات الحديثة بمعنى أنها لا توجد فيها مواسير للماء البارد والساخن . ومما لفت أنظارنا بصفة خاصة أن كل مخدع من مخادع النوم كان له درج يؤدى الى « خزنة » صغيرة ظنناها فى بادىء الأمر محلا معدا للعفش والأمتعة ولكن كم كانت دهشتنا إذ علمنا أنها تستعمل بمثابة « بيت الخلاء » .

وفى الحق أن الانسان لتدركه الدهشة لخلو مدينة عظيمة كسنغافوره يؤمها عدد كبير من الأجانب من فندق لائق مجهز بمختلف وسائل الراحة الحديثة !

وفى منتصف الساعة الحادية عشرة عاد الينا مندوب شركة كوك للاطمئنان على راحتنا وللسئوال عما اذا كنا مغتبطين بما حجزه لنا من الحجر فى الفندق وأخذ يستفسر هل كان البحر هادئا والسفر مريحا وما إلى ذلك من الأسئلة . فلما انطلق إلى حال سبيله نزلت لمشاهدة المدينة والتفرج على

ما فيها من العجائب التى كانت تشرئب نفسى إلى رؤيتها كصناعة الحرير الصينى وغيرها من أنواع التجارة الهندية وتجارة البلاد الشرقية النائية المختلفة . ولا أكتم القارىء انى شعرت بشىء من خيبة الأمل اذ وجدت أن كل ماتقع عليه العين هنا هو دون مايشاهده الانسان فى البلاد الأوربية .

وفى الساعة الرابعة بعد الظهر غادرت الفندق بعد تناول الشاى للتجول بالسيارة فى أنحاء المدينة فرأيت عمارة مصلحة البريد وهى ضخمة تأخذ الأبصار بجمال شكلها وفخامة بنائها . ولكن المدينة خالية من الدكاكين والمخازن الكبرى ثم أن شوارعها قذرة تنبعث منها رائحة كريهة .

وانطلقت بنا السيارة قاصدة « الكازينو » على شاطىء البحر فمررنا فى طريقنا اليه بمصنعين من مصانع المطاط تنبعث منهما روائح كريهة جداً تعافها النفس ، ثم اجتزنا ما يسمى « شارع الأرمن » و « شارع العرب » ولاحظنا حيثما توجهنا أن أغلبية أهالى سنغافورة صينيون .

وهناك شارع جميل حقا وهو شارع « الكسندرا رو » نسبة إلى الملكة الكسندرا والدة جلالة الملك جورج الخامس . وهو أبهج شوارع المدينة بلا جدال وهو عامر بمنازل كبار الأغنياء الأجانب . وبالجملة فلقد كان الأثر الذى خلفته فى نفوسنا هذه الزيارة لأنحاء المدينة انها مدينة عاطلة من الجمال لا تستحق أن يعيش فيها الانسان .

ومما لفت أنظارنا فى سنغافوره بصفة خاصة أن مركبات الأوتوبس لا يصرح لها بنقل أكثر من عشرة أشخاص وهذا يقضى طبعا أن يكون حجم المركبات صغيرا اتفاديا من ازدحام الشارع و تعطيل حركة المرور فيه .

واذا أشرت إلى هذه المسألة فلكيما أدل على أن ولاة الأمور هناك فكروا أولا وقبل كل شيء فى راحة المارة فى الطريق .

وفى طريق عودتنا إلى الفندق ابتعنا نوعا من الفاكهة يسمى «مانجوستين» طالما سمعت أطنابا فى حلاوة طعمها حتى لقد زعموا أنها أحلى فاكهة فى العالم وكنت طبعا كثير الميل إلى تذوق طعمها . فناولناها « للسفرجى» لوضعها فى « الثلاجة » لتناولها مع طعام العشاء لأنها لا تؤكل إلا مثلجة . ولقد صدق الخبر الخبر فيما بعد فهى بلامراء ألذ وأشهى ماذقته من الفواكه إلى يومنا هذا .

٢١ اغسطس

وفى منتصف الساعة التاسعة من صباح يوم ٢١ أغسطس بارحنا الفندق قاصدين زيارة حديقة النباتات حيث كان المدير فى انتظارنا بناء على موعد معه حددناه تليفونيا من قبل . فألفيته شابا إنجليزيا حلو الحديث دمث الأخلاق وقد علمت أنه كغيره من النباتيين الانجليز قد تلقى دروسه التطبيقية فى حديقة « كيو » الشهيرة بضواحى لندن . فطاف بنا فى مختلف أنحاء الحديقة وأطلعنا على أهم ما لديه من النباتات وأبدى كثيراً من اللطف والاستعداد لأن يبيعنا ما نشاء من مجموعة نباتاته الصغيرة .

وسلخنا من الزمن نحو ساعة أحطنا فيها علماً بكل ما فى حديقته التى وإن لم تكن كبيرة الحجم ولا تحتوى على عدد كبير من الأشجار إلا أن القليل الذى فيها قد استعمل منتهى سلامة الذوق فى تنسيقه . وعندى أن هذه الحديقة فيها الكفاية لمدينة من طراز سنغافوره .

ويستطيع الانسان وهو فى الحديقة أن يرى على مد البصر قصر السلطان جوهور . ولما أشبعنا أنفسنا بمناظر هذه الحديقة غادرناها قاصدين زيارة أحد المعابد الصينية الذى طارت شهرته فى الآفاق بسبب ما يحتويه من بدائع الفن وأعمال الحفر الجميلة على الخشب المموه بالذهب على الطراز الصينى . وفى الحق ان منظر المعبد ليأخذ الأبصار بروعته وجماله . ولا يفوتنى أن أذكر هنا أن زيارتنا للمعبد كانت فى الوقت نفسه خيرا وبركة على جماعة الفقراء الصينيين الذين هرعوا الى الالتفاف بنا عند مدخل المعبد . وحوالى الظهر عدنا إلى الفندق .

وفى منتصف الساعة الخامسة مساء قصدنا بالسيارة إلى ضواحى المدينة طلباً للنزهة . وهنا لا يسعنى إلا أن أقرر مع الأسف الشديد أن كل ما وقعت عليه أعيننا من المنازل كان فى منتهى القذارة ثم أن الأهالى كانوا فى منتهى الفقر المدقع تعلوهم الأوساخ والأقذار . ومما يزيد الطين بلة أن البحر تنبعث منه وقت الجزر روائح منتنة كريهة يغلب على الظن أنها تسبب أمراضاً كثيرة . وليس من المبالغة فى شىء أن أقول إننا لم نشعر بأننا نتنزه فى الضواحى إلا بعد ان ابتعدنا فعلا عن العمران بنحو ستة كيلو مترات . ثم وصلنا إلى هضبة تسمى « الفتحة » يطل منها الانسان على منظر جميل لبوغاز سنغافوره

والمدينة هنا شبيهة بغيرها من بلاد الهند الهولندية وسواحل شمالى أوستراليا الشرقى بمعنى أنها تتركب من عدة جزر صغيرة تكسوها حلة من الخضرة البديعة . أما الزراعة فى ضواحى سنغافوره فمعظمها أشجار المطاط .

وما أشبه حالة الزراعة هنا بحالتها فى مصر . فان شدة التهافت على زراعة المطاط قد أدى إلى زيادة العرض عن الطلب مما كانت نتيجته وقوع السواد الأعظم من الأهالى فى الفقر .

وأغنياء سنغافوره صينيون . ومع أن هذه المدينة واقعة فى شبه جزيرة « الملايو » فان أغلبية سكانها من الجنس الصينى بدلا من أن يكونوا من جنس « الملايو »

ثم مررنا بحديقة غناء فى وسط أراض متسعة علمنا أنها لأحد أغنياء المسلمين . وفى وسط الحديقة رأينا بحيرة صغيرة يتوسطها انموذج بديع كبير الحجم لبارجة حربية تخفق عليها الراية العثمانيه وقد سميت هذه البارجة الصغيرة « حميدية » .

ومن هناك ذهبنا لمشاهدة خزان مياه الشرب الخاص بمدينة سنغافوره فرأيناه فى وسط حديقة عمومية جميلة منسقة أبدع تنسيق . والمنظر هنا رائع حقاً فان الأشجار تنعكس صورتها على صفحة الماء فيخيل إليك أنك أمام مرآة . وقد أقيم حول حوض المياه حاجز حديدى لمنع وصول الأيدى إلى المياه وتلويثها .

ومبالغة فى العناية لاحظنا أن المياه فضلا عن كونها مقطرة فانها مغلية .

وفى عودتنا إلى الفندق سلكنا طريقاً مستقيمة قامت على جانبها أشجار باسقة محاذية لشريط السكة الحديدية التى تصل سنغافوره « ببينانج » . وقبيل العودة إلى الفندق قصدنا أحد الدكاكين الصينية لابتياع بعض اللوازم الحريرية .

٢٢ اغسطس

وفى منتصف الساعة السادسة من صباح يوم ٢٢ أغسطس كان المطر يهطل بغزارة ولكن كان الطقس حارا برغم المطر . فامتطينا المركبة المسماة « ركشو » وهى ذات عجلتين خفيفتين يسحبها الحوذى نفسه وقصدنا المتحف ومنه إلى محل شركة كوك وهناك أسفنا إذ علمنا أن الباخرة التى كانت ستقلنا إلى «رانجون» قد تأخر ميعاد وصولها بنحو ٢٤ ساعة وانها آتية من «مدراس» وتعنى بنقل البضائع أكثر مما تعنى بنقل الركاب ولذا أعدت نصفها للبضائع والنصف الآخر للركاب . وزاد فى أسفنا لسماع هذا النبأ اننا سنضطر إلى البقاء فى هذه المدينة القذرة ٢٤ ساعة أخرى . ثم اننا بهذا سنضيع فرصة اللحاق بالباخرة التى تقلنا إلى « كلكته » ، ومما ضاعف أسفى انى كنت قد حجزت أمكنة فى الباخرة التى تقلنا من « بومباى » إلى مصر فخشيت أن لا ألحق تلك الباخرة أيضا من جراء ذلك التعطيل .

وخرجنا بالسيارة بعد ظهر ذلك اليوم فى طلب النزهة . فمررنا فى الطريق دكانا وكان لأحد تجار الحيوانات من أهالى المالاى . فرأينا فى الأقفاص أربعة نمور كبيرة الحجم وكثيراً من الثعابين الضخمة وعدداً من القردة والعصافير المختلفة الألوان وغيرها من كافة ما يوجد فى الجزر القريبة من الحيوانات التى ترسل إلى سنغافوره لنقلها بالتالى إلى أوربا وأمريكا . وأغلب الظن أن هذه الحيوانات اشتريت فعلا وأعدت للشحن إلى انجلترا ولا يبعد أن تكون برسم حديقة الحيوانات هناك .

ولفت نظرى بصفة خاصة بين هذه الحيوانات نوع غريب من «البوم»

هذا إلى ثعبان ضخم ذى لون فيروزى جميل .

ولبثت إلى منتصف الليل دون أن استطيع النوم ولست أدرى هل كان ذلك بسبب ما أحدثه زوار الفندق من الضجيج والصخب بسياراتهم التى ينيف عددها عن الثلاثين .

ولابد من القول هنا بأننى منذ اليوم الذى تركت فيه اوستراليا الجنوبية لم أذق للنوم الهادىء طعما ولست أعرف أكان ذلك سببه شدة الحرارة أم كثرة الحشرات والهوام .

٢٣ اغسطس

وفى صبيحة يوم ٢٣ اغسطس بكرت لزيارة حديقة النباتات لدفع ثمن ما كنت قد ابتعته من الأشجار ثم عرجت على شركة كوك لحجز الأماكن اللازمة على ظهر الباخرة .

وفى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر أخذنا السيارة قاصدين زيارة بلدة جوهور وهى على بعد ١٦ ميلا من سنغافوره . والطريق اليها سهلة معبدة ومفروشة بالأسفلت يحف بهامن الجانبين شجر المطاط .

وتتصل شبه جزيرة سنغافوره بشبه جزيرة « الملايو » برصيف يبلغ طوله كيلومتراً واحداً . وقد أنشىء فى منتهى الجزيره كوبرى « هويس » لمرور البواخر وهوكثير الشبه بالكوبرى الذى يصل بولاق بالجزيرة من حيث طريقة فتحه لمرور السفن .

أما « جوهور » المدينة فليس فيها ما يستلفت الانظار والبوليس من أهالى الملايو وهى بمثابة ملجأ يقصده المرضى من الاجانب الذين يتركون سنغافوره ويلجأون الى مستشفيات جوهور لاعتدال مناخها .

ورأينا فى جوهور حديقة غناء ترتفع إلى جانبها هضبة عليها قصر قديم لسلطان جوهور يقال أنه يحتوى على آثار السلطنة وبقرب القصر مسجد وإلى جانب الاخير مصالح الحكومة ثم الحصن الخ . ومن هذه الهضبة يرى الانسان منظراً جميلا مطلا على البحر . وتوجد على مقربة من المدينة أراض شاسعة مزروعة بشجر المطاط .

أما المستشفى فهو بناء كبير واقع فى وسط حديقة شاسعة جميلة ويلوح عليه أنه من أفخر المستشفيات ويتولى الاشراف على ادارته جماعة من الانجليز

وبعد نصف ساعة قضيناها فى التجول فى أنحاء المدينة زرنا المقابر وهى وإن كانت إسلامية إلا أنها مصفوفة بشكل منظم تتخللها الأشجار والزهور مما يكسبها رونقا وبهاء يذكر الانسان بمقابر الافرنج. ولقد ذكرنى نظام هذه المقابر بما شاهدته فى مقابر المسلمين فى «تلمسان» على الحدود المراكشية من حيث العناية والترتيب .

وأهالى جوهور انزام يضرب لونهم الى السمرة أكثر من أهالى جاوا أو الصين مع أن عروقهم يجرى فيها الدم الصينى . ويبلغ عدد الاهالى ١٦٠٠٠٠ نسمة وتقع جوهور فى بوغاز «تبراو» فى مقابل جزيرة سنغافوره وهى متصلة بها بواسطة جسر تمر فوقه سكة حديد سنغافورة بينانج وكذلك الطريق الممتدة بين هاتين المدينتين .

أما القوة العسكرية فى كل من سنغافورد وجوهور فهى من جنود السيخ ومهمتها الدفاع عن البلاد والقيام باعمال الشرطة .

ثم عدنا الى الفندق فى الساعة السابعة مساء .

٢٤ اغسطس

وفى الساعة الثالثة من صباح اليوم التالى هطل المطر بشدة لا تعرف فى غير المناطق الاستوائية . واستمر يهطل ثلاث ساعات سويا حتى غطى شوارع مدينة سنغافوره تماما .

وفى الساعة التاسعة حضر رجال شركة كوك لنقل حقائبنا الكبيرة الى الباخرة . وما وافت الساعة العاشرة حتى بارحنا الفندق فى السيارة وقصدنا الباخرة وهى احدى البواخر الصغيرة التابعة لشركة « بريتيش انديا » ولا تتسع لاكثر من ٤٠ راكب من ركاب الدرجة الأولى واسمها « اكسيما » ومما لفت نظرى فى هـذه الباخرة أن حجرها كبيرة ولكن لا توجد فيها مناضد ولا أدراج وسنقضى على ظهرها ستة أيام .

والآن وقد غادرت سنغافوره فلا بأس من ذكر المعلومات الشيقة الآتية. فقد كان أول من اتخذ الجزيرة كمستعمرة بريطانية السير ستامفورد رافلز الذى ظل حاكما بها من سنة ١٨١٩ الى ١٨٢٣ . وتقع جزيرة سنغافوره بالقرب من شبه جزيرة الملايو الى الجنوب من جوهور وتتصل كما قلنا بالياسة بكوبرى تمر فوقه السكة الحديدية والطريق العمومية وسكة السابلة تمتد من وودلندز من ناحية سنغافوره الى بوغاز جوهور باهرو عاصمه جزيرة جوهور ومقر سلطان جوهور . ويبلغ طول الجزيرة ٢٧ ميلا وأقصى عرضها ١٤ ميلا. أما السكان فقدرهم بمقتضى الاحصاء الاخير ٤٢٠٫٠٠٠ نسمة منهم ٣١٥٫٠٠٠ صينى و ٥٤٫٠٠٠ من أهالى الملايو و ٣٢٫٠٠٠ من الهنود . أما الاجانب فلا يتجاوز عددهم بضعة الاف .

ويوجد فى شاطىء سنغافوره « حوض الملك » ويتسع للسفن التى يبلغ تفريغها ٤٠٫٠٠٠ طن هـذا الى الارصفة العديدة المعدة لرسو السفن وما يلحق بها من الاحواض الصغيرة التابعة لهيأة ميناء سنغافوره الموجودة فى تاندجونج باجار حيث ترسو معظم بواخر المحيط . وتبعد تاندجونج باجار عن الفنادق بنحو ثلاثة أميال .

وتمر البواخر الآتية من بانجكوك وسيجون وهونج كونج واستراليا وجاوا الخ الى الارصفة المعدة لرسو السفن من الجهة الاخرى بحيث يستطيع الانسان أن يرى من على ظهورها منظر المدينة باكملها

أما سفن السواحل وبعض بواخر المحيط فتلقى مراسيها قريبا من مرفأ جونستن حيث تنقل « اللنشات » الركاب وامتعتهم الى البر .

وللمرء أن ينتقل من جهة الى أخرى بواسطة السيارة أو «الريكشو» وأجرة السيارة التى تحمل أربعة أشخاص من ثلاثة ريالات الى أربعة عن الساعة الواحدة والتى تحمل سبعة أشخاص من خمسة الى ستة ريالات .

وتوجد معظم الدكاكين الأوربية والمخازن الكبرى فى شارع رافلز وشارع باتارى وشارع اورشارد وهو الطريق المؤدى الى حى المساكن وحديقة النباتات .

ولا تعتبر سنغافوره من البلاد التى يلقى فيها الباحث عن «الانتيكات» بغيته . نعم أن فضة الملايو جذابة ولكن النماذج الطيبة منها يصعب الحصول عليها . ويمكن ابتياع خيزران « ملاكا » مجردا من قطع المعدن او مطعما بها

فى شارع هاى ، كما يمكن الحصول على التحف القيمة المصنوعة من عظم السلاحف وان كان الموجود منها قليلا محدودا . وكذلك الجواهر والأخشاب المحفورة والحرير و«الدنتلة» يمكن ابتياعها كلها فى سنغافوره وإن كانت واردة من الخارج .

أما مسألة المواصلات فان السفن تجرى بين فترات قصيرة قاصدة جاوا وسومطرة وبانجكوك وسيجون الخ . وتسافر قطارات الاكسبريس مرتين يوميا من سنغافوره ـ وبها عربات حديثة للنوم وللأكل ـ قاصدة مالاكا وسيريمبان وكوالا لومبور وبينانج وتسافر من هذه الأخيرة قطارات الأكسبريس مرتين فى الأسبوع الى بانجكوك حيث تجتاز المسافة اليها فى ٣٤ ساعة ويتعين على الرعايا الغير البريطانيين المسافرين بالبواخر أو بالقطار الى سيام أن يؤشروا على جوزات سفرهم من مكتب مدير الشرطة .

من سنغافوره الى بينانج

غادرنا فندق سنغافورة ضحى يوم ٢٤ اغسطس بالباخرة « اكسيا » كما قدمنا . ولسوء الحظ كان موقع المخدع المعد لنومنا غربيا تتسلط عليه أشعة الشمس الحارة طول بعدالظهر فتحوله الى أتون يستحيل النوم فيه ليلا .

وقد لاحظنا مع الأسف الشديد أن مدير شركة كوك فى سنغافوره لم يسهر السهر الكافى على راحتنا مع أن المستر كوك نفسه كان قد أوصاه شخصيا بأن لايدخر وسعا فى العمل على مرضاتنا وإذا كان مندبو شركة كوك

فى الجهات الأخرى قد سهروا على راحتنا فانهم فى سنغافوره أهملوا أمرنا ولم يعيرونا التفاتا .

وعند الظهر تماما تحركت الباخرة وغادرنا سنغافورة فمررنا وسط الجزائر المحيطة بها فى طريقنا الى بينانج . وكانت مناظر الجزائر رائعة تبهر الانظار

وفى الساعة الواحدة بعد الظهر دق جرس الطعام فلاحظت أن عدد الركاب فى الدرجة الأولى لم يزد على ١٢ ومعظمهم من التجار الأجانب أو من موظفى حكومة الملايو . وقد طلبت الى أحد ضباط الباخرة أن يستبدل حجرتى بأخرى ولكنه أخبرنى أن ذلك أمر غير مستطاع .

وكان الطعام على الباخرة رديئاً جداً .

وفى الليل انتشر ضباب كثيف حتى حجب الجو وصحبه هطول أمطار غزيرة مدة ساعة حتى خشينا أن ترتطم الباخرة باليابسة . ثم ما لبث أن انكشف الجو بعد ذلك فاستطعنا رؤية المنائر وما ينبعث فيها من الأنوار إذ ليس يخفى أن بوغاز « ملاكا » هو الطريق العام للملاحة إلى الشرق الاقصى وأوستراليا فهو لهذا السبب مملوء بالبواخر فى طريق ذهابها وإيابها

٢٥ أغسطس

وفى صبيحة يوم ٢٥ أغسطس كان الجو قد تلطف كثيراً وقد ابتعدنا عن ساحل جزيرة سومطرة وأصبحنا فى وسط الجزر التابعة « للملايو »

وعند الساعة الثالثة أشرفنا على ميناء بينانج وهى عاصمة ولايات الملايو المتحدة ، وفى الساعة الرابعة جاء « الدليل » لارشاد الباخرة الى الميناء نظراً لعدم عمق المياه حول كثير من هذه الجزر وخاصة وان للمدن

والجزر فى تلك الجهات تأثيراً يخشى منه على ارتظام السفن ان لم تكن مصحوبة بالدليل . ثم ألقت الباخرة مراسيها فى الميناء التى ينقصها وجود رصيف معتاد .

فى مدينة بينانج

لما كان برنامج السفر يقضى بوقوف الباخرة « اكسيما » فى بينانج الى الساعة التاسعة مساء رأينا أن ننزل لرؤية مافيها مما يستحق الزيارة . وفى ابان فترة الانتظار صعد الى السفينة عدد من التراجمة الهنود مقترحين على الركاب استصحابهم بالسيارة لرؤية مافى المدينة من الآثار فى مقابل أجر يتراوح بين أربعة دولارات أو خمسة ، فقبلنا الاقتراح واخترنا أحدهم للتوجه معنا الى البر فى رفاص الشركة ومن ثم أخذنا السيارة وبدأنا نجوس خلال المدينة وهى فى منتهى النظام وبها فيللات جميلة وسط حدائق غناء أغلبها ملك للافرنج ولبعض أغنياء الصينيين .

وتقع بينانج فى جزيرة وهذه عبارة عن حديقة جميلة . والطرق معبدة ومفروشة بالاسفلت ومظللة بالاشجار الباسقة الضخمة ، وبها مكان لسباق الخيل يفوق فى جماله واتساعه مكان السباق بالقاهرة ثم ان الانسان لا يرى أثراً للروائح الكريهة التى رآها فى جاوا أو فى سنغافوره . ويقال أن كثيرين من الانجليز يؤثرون المعيشة فى هذه المدينة وبها حديقة نباتية تقع فى واد بين جبلين ويشقها نهير صغير . وقد لاحظنا أن ولاة الأمور تركوا الحديقة على حالتها الطبيعية وخصصوا سكة للسيارات لنقل

الناس اليها . والمنظر هنا رائع جداً ولهذا يخرج الاهالى للتنزه فيها بعد الظهر زرافات زرافات حتى اذا احتشدوا فيها هرعت اليهم القردة من مكامنها لالتقاط مايجودون به عليها من الموز والفواكه .

ومن هناك قصدنا المعبد الصينى القائم على إحدى الهضاب . وتسير على مقربة من هذه الهضبة سكة حديدية جبلية توصل بينانج ببعض القرى الواقعة على ارتفاع ١٠٠٠ متر . أما المعبد الصينى فهو فى الواقع سلسلة معابد مبنية بصفة شرفات على جانب التل . وهناك عدة فيللات صغيرة جميلة يشهد فيها الانسان منظراً بديعاً لجميع نواحى الجزيرة والبحر .

ثم مررنا بعد ذلك بجملة أندية الى أن وقفنا عند مصلحة البريد لارسال خطاباتنا . ومما لفت أنظارنا أننا رأينا عند اختراقنا الحى الأهلى عدة دكاكين صينية وبها من البضائع ما يفوق فى جماله ودقة صنعه ما رأيناه فى سنغافوره وبقرب رصيف الميناء وجدنا ساعة كبيرة فى أعلى أحد الابراج المبنى على الطراز الهندى الفارسى . وقد أهداها للمدينة أحد اغنياء التجار الصينيين .

وتوجد حول الجزيرة طريق للنزهة بالسيارات وهى طريق جميلة ويبلغ طولها نحو ٣٥ ميلا وهى من أجمل الطرق للنزهة بالسيارات ، ويخرج الناس لهذه النزهة فى الصباح المبكر بينما يفضل بعضهم أن يخرج اليها فيما بين الساعة الثالثة والسادسة بعد الظهر

وتقع المخازن الاوربيه على مقربة من الميناء ثم ان بالمدينة عددا ليس بالقليل من الدكاكين الصينية والهندية .

وعدنا بعد هذه الجولة الى الباخره فرأينا عشرة من الركاب الامريكان

قد صعدوا الى ظهرها . وفى منتصف الساعة العاشرة مساء غادرت بنا مدينة بينانج .

وقد يحسن أن أضيف هذه الملاحظات الطلية وهى خاصة بتاريخ المدينة . فقد كان اول رجل انجليزى وطأت قدماه أرض بينانج (أوجزيرة البرنس أوف ويلز) الكابتن سير جيمس لانكستر الذى كان هو ورجاله وسفنه فى حاجة الى الراحة ولذا ألقى مراسى السفن أمام ميناء صالحة واقفة بين ثلاث جزر . وكان هذا فى شهر يونية سنة ١٥٩٢

أما المستعمرة فان الذى أوجدها فعلا هو الكابتن لايت من رجال شركة الهند الشرقية فى سنة ١٧٨٥

وقد نزل الى البر على رأس قوة من الملاحين عددهم ١٠٠ شخص و٣٠ من لاسكار كلكتا عدا ١٥ من رجال الطوبجية الانجليز ومعهم خمسة من الضباط ولم تلبث أن أصبحت بينانج اليوم ثانى موانىء بلاد الملايو بعد سنغافوره من حيث الأهمية.

أما الجزيرة التى تقع فى غرب شبه الجزيرة فى خط العرض رقم ٥ شمالا فتبلغ مساحتها ١٠٧ ميلا مربعا وطولها ١٥ ميلا وأقصى عرضها تسعة أميال .

واسم المدينة والميناء فى عدة خرائط جغرافية « جورج تون » ولكن تسمى المدينة والجزيرة الآن « بينانج » ولا يستعمل اسم مدينة « جورج » فى لغة البلاد المحلية مطلقا .

والجزيرة عبارة عن جملة تلال ووديان ويبلغ ارتفاع « التل الغربى »

وهو أعلى التلال نحو ٢٧٥٥ قدما . وبالقرب من هذا التل يوجد تل « بنديرا » وهو مكان يأوى اليه القوم انتجاعا للصحة . ويوجد فيه «فندق كراج » وعده فيللات صغيرة جميلة .

ومنظر الجزيرة من ناحية البحر فى غاية الجمال والابداع ويفوق منظر مدخل ميناء سنغافوره فى الفخامة بمراحل .

بين بينانج ورانجون

قلت اننا بارحنا بينانج فى منتصف الساعة العاشره من مساء يوم ٢٥ اغسطس وفى صبيحة اليوم التالى كان المطر يهطل بشدة والرياح تهب بعنف بينما كان البحر هائجا . ولم يكن فى هذا ما يدعو الى الدهشة لأن الفصل كان فصل المونسون . ولشد ما خشينا أن تكون هذه الرياح والامطار من علامات المونسون . ومع أن درجة الحرارة كانت مرتفعة فقد خشينا أن تزداد وتشتد الاعصار فتؤدى الى ما لا تحمد عقباه . ولكن حمدا لله تعالى فقد هبطت الرياح وخفت الامطار عندغروب الشمس .

وتحدث الىّ أثناء السفر ضابط الباخرة الميكانيكى فأوقفنى على سر أخذ الباخرة من بينانج ما حولته سفينتان صغيرتان من جوز الهند لنقله الى رانجون . ذلك أن جزر الملايو مغطاة بالغابات والاحراج فلا توجد فيها أراض صالحة للزراعة فيضطر الاهالى الى اتلاف الكثير من شجر جوز الهند للحصول على ما يكفى من الارض لزراعة الخضر والفواكه . أما ما يستغنون عنه من جوز الهند فانهم يرسلونه الى «بورما» لبيعه فيها حيث يستعمله أهالى بورما فى الطعام من ناحية ولاستخراج عصير خاص من

الخمر من الناحية الاخرى . وهذا هو السر فى أن جزر الملايو ترسل الى بورما سنويا ما تبلغ حمولته ١٠٠ر٠٠٠ طن من جوز الهند .

٢٧ أغسطس

بدأ المطر يهطل من منتصف الساعة السادسة صباحا وجعلت السفينة تترنح من جانبيها . وعند الساعة ٣٠ : ٩ مرت الباخرة أمام جزر «ستوريس» وهى سلسلة جزر صغيرة خالية من السكان بسبب صغرها . أما من فيها من السكان القلائل فيتنقلون بالفلائك والقوارب من جزيرة إلى أخرى فى طلب الرزق فتراهم يزرعون فى احدى الجزر قليلا من الأرز وفى الأخرى قليلا من الموز وهكذا بينما هم يعيشون فى جزيرة ثالثة . وفى السواحل وفى داخل الجزر كثير من المعادن كالقصدير وغيره ولكن السكان لا يستطيعون استخراجها ولا الانتفاع بها لعدم وجود الماء العذب فى الجزر ولبعدها عن اليابسة . واذا كانت هذه الجزر قد خلت من السكان فان المعلوم أن بها أنواعا جميلة مختلفة من العصافير وكذا الزهور النادرة الوجود من الفصيلة السحلبية (الاوركيديه) . ونظرا لقلة السكان فالمفهوم أن تكون الجزر غاصة بالثعابين ولكن وجه العجب هنا هو كيف وجدت الثعابين والهوام طريقها إلى تلك الجزر التى تحيط بها المياه من جميع النواحى ؟ !

ومررنا بعد ذلك بجزيرة « موسكا » وبها جنس من عصافير الجنة اشتهرت أعشاشها بين الصينيين بأنها تطبخ كحساء لذيذة الطعم وهى من أشهى مأكولات الصين . ولهذا السبب استأجر بعض كبار التجار الصينيين هذه الجزيره للاستيلاء على الأعشاش المذكورة والاتجار بها وبيعها فى

الصين بأثمان مرتفعة لاستعمالها فى طبخ الحساء .

وانقضى اليوم والسماء ملبدة بالغمام الكثيف والجو فى شدة البرودة حتى أن الأنسان لم يكن يصدق أننا بالقرب من الهند . وكانت إلى اليسار جزيرة «اندامان» التى اتخذها الانجليز مكانا لنفى المسجونين من الهند وبورما.

٢٨ أغسطس

هطلت السماء مدرارا ونحن الآن بقرب السواحل ولكن لم نستطع رؤية شىء لعدم وجود جبال بالقرب من الشاطىء

وفى الساعة التاسعة إلا ربع رأينا أول السفن المجهزة بالفنار الذى يستعمل لارشاد البواخر عند دخول الميناء . وهنا أدركنا أننا على مقربة من مصب نهر «اروادى».

وفى منتصف الساعة العاشرة لاح لنا رفاص صغير خاص بالدليل . فلما اقترب منا صعد صاحبه إلى سطح الباخرة وأخذنا ندخل النهر تدريجا وقد لاحظنا أن مصب النهر هنا عريض جدا . ومما لاحظناه وفرة النباتات المائية ذات الزهر الأزرق التى يوجد مثلها فى الحدائق المصرية وان كانت هناك تعد بالملايين وتنحدر مع التيار .

وأحسب أن لا محل للاستغراب لكثرة هذه الزهور واهمال شأنها. أليست فى تربتها الوطنية ؟ ويرى الأنسان على ضفتي النهر والى مدى ستة أميال أراض طينية ولكنها مجردة من النبات . وهذه هى طبقة الطمى التى يقذفها نهر اروادى على جانبيه .

وأخذت الباخرة تسير وسط النهر فى ممر مشهور يسمى «قناة رانجون»

وعرض هذه القناة ميل ونصف ميل .

وبعد مسير نصف ساعة بالباخرة بدأت تظهر أمامنا السواحل الخضراء وأغلب الأراضى فيها مزروعة أرزا وبها قليل من الأشجار الباسقة .

وفى الطريق يجد الأنسان بعض المنازل الخشبية الصغيره وقد قامت الأشجار بقربها . ومما يستلفت نظر الأنسان هنا — لأنه منظر جديد بالنسبة اليه — البريق المنبعث من انعكاس أشعة الشمس على معابد بورما المموهة بالذهب الوهاج والتى أنشئت على طراز « القلة » . والمسافة بين أول سفينة مجهزة بالفنار ومدينة رانجون نحو ٣٥ ميلا . وقبل دخولنا المدينة رأينا عدة مصانع لاستخراج زيت البترول . ويقال إن بالمدينة مصانع بترول عديدة لاستخراج البنزين وزيت موبيل الذى تستعمله البحرية البريطانية وهو من أجود صنف . ومن المصانع التى اشتهرت بها رانجون مصنع الشمع وخاصة الشمع الكبير الحجم الذى يستعمل فى اضاءة المعابد والكنائس والمساجد .

وعند الساعة الواحدة بعد الظهر كنا بقرب الرصيف ولكن الباخرة لم تستطع الاقتراب منه بسبب انخفاض مستوى المياه فاضطررنا أن ننتظر ريثما يحين ميعاد مد البحر

وفى هذا الوقت حضر الينا رجال الجمرك والطبيب ورجال البوليس وبعد الانتهاء من فحص الجوازات سألونا هل معنا سلاح فاضطررنا أن نجيب بالايجاب لأن بلاد بورما تحت الأدارة الهندية ومحظور قطعيا دخول الهند بسلاح من أى نوع . والقانون صارم وصريح بمنع حمل السلاح فان

وجد من يحمل سلاحا بلا ترخيص فجزاؤه السجن لمدة سنتين .

وأخذ رجال البوليس سلاحى وسلاح مختار افندى ووعدونا برده الينا عند خروجنا من البلاد الهنـدية فى بومباى . وقد أصروا على أخذ السلاح مع أننى أظهرت لهم جواز سفرى وهو جواز سياسى ومع أننى أفهمتهم أننى أحمل هذا السلاح منذ ٢٥ سنة لم أستعمله فيها مرة واحدة وان شاء الله قد لا ألجأ إلى استعماله فى المستقبل . ثم إنى بينت لهم ضرورة حملى اياه لأننى فى سياحاتى أتجول بالسيارات وأخترق الغابات فلا مناص لى من حمل السلاح ولو من باب الوقاية على الأقل لأنه قد يحدث عطل فجأئى للسياره ونحن فى جهة موحشة مقفرة فيضطر الأنسان إلى الدفاع عن نفسه فيما لو دنت منه بعض الحيوانات المفترسة . على أن رجال البوليس لم يقبلوا شيئا من هذه المعاذير وأصروا على أخذ السلاح . فلما تناولتهم مسدسى حاولوا فتح خزانته لانتزاع الرصاص منها فأعياهم فتحه لـكثرة ما علاه من الصدأ فلما رأيت منهم الاصرار قلت لهم فى شىء من التهكم « خذوا سلاحى هذا هدية لـكم فليست له قيمة عندى » ثم قلت اننى لاأريد أن يردوا سلاحى الى فى بومباى بل تنازلت لهم عنه كلية .

فى رانجون

فى منتصف الساعة الرابعة بعد الظهر رست الباخرة أمام الرصيف فصعد الينا من قبل شركة كوك مستخدم هندى لمرافقتنا الى «فندق ستراند» الذى انتوينا الاقامة فيه . ولاحظنا أن السيارة التى أحضرها لنا مهشمة وقذرة

حتى أنها لم تنقلنا إلى الفندق إلا بمنتهى الصعوبة . ولشدة كدرى من هذه السيارة المحطمة ولعدم وجود مندوب أوربى من طرف شركة كوك ذهبت من فورى إلى مكان الشركة للاحتجاج على تصرف مندوبها . ومما قلته لهم « إننى منذ خمس وأربعين سنة وأنا أطوف العالم بواسطة شركة كوك وكنت صديقا المستر كوك نفسه ثم لأولاده وكنت أينما ذهبت فى الماضى يخف لاستقبالى مدير شركة كوك شخصيا ولا يزال ملازما لى إلى أن أنزل بالفندق الذى يكون قد اختاره بنفسه لنزولى كل ذلك ليضمن راحتى . فكيف اذن لم اجد منذ دخولى الى المياه الهندية شيئا من عناية تلك الشركة ولا اهتمامها ؟ ولعله لو حضر شخص لائق من قبل شركة كوك لوفر علىّ مالاقيته من العناء فى الجمرك ولما كنت تعرضت للتعب الذى تعبته مع رجال البوليس بسبب السلاح » . فما كدت أفرغ من احتجاجى هذا حتى كان الجواب « إن مندوبى كوك الأفرنج فى الهند لا يهتمون مطلقا بشئون غير الاوربيين ! ! فدهشت لهذا الرد الجاف وعدت فورا الى الفندق وابرقت احتجاجا الى ادارة شركة كوك فى لندن وباريس قائلا « إن مندوبى كوك فى الهند لا يكفيهم أن يكونوا مجرد رؤساء شركة سائحين بل يريدون أيضا أن يظهروا بمظهر مندوبى وكالة سياسية . فاذا كنت سأعامل هذه المعاملة فى كلكتا فلتعلم الشركة من الآن انى سأستغنى عن خدماتها . »

وليس يمكن الاعتذار عن هذا التصرف المنافى لواجبات اللياقة بعدم وجود مندوبين أوربيين لمرافقتى إلى الفندق فلقد رأيت مكاتب وكالة كوك فى تلك البلاد شاسعة وبها رئيس وعدد من الموظفين الأجانب فكان فى

الاستطاعة بلا جدال انتداب مندوب أوربى للقيام بشؤونى .

على أننى اذا تمسكت بالمندوب الاوربى فليس ذلك الا لما شاهدته بنفسى ويعرفه كل إنسان وهو أن الشرق فى البلاد الخاضعة للحكومات الاجنبية لا اعتبار له على الاطلاق . ففى سبيله تقام العراقيل بلا ضرورة . وبالعكس ترى حامل القبعة تمهد له الطرق وتذلل المصاعب . فمجىء مندوب أوربى أمر لا مناص منه إذن ليكفل التسهيلات اللازمة فى أمثال هذه المواقف .

ثم عدت الى الفندق حيث تناولت الشاى وخرجنا بعد ذلك بالسيارة للتجول فى أنحاء المدينة .

ورانجون ميناء وهي عاصمة بلادبورما وموقعها على ضفة نهر رانجون اليسرى قبيل اتصاله بنهر بيجو وخليج بوز وتداونج وعلى بعد ٢١ ميلا من البحر . وتبلغ مساحة المدينة ٢٢ ميلا مربعا وعدد السكان ٤٣٢٫٠٠٠ نسمة وهى أهم موانى، بورما وثالث ميناء فى الامبراطورية الهندية من حيث الاتساع . وقدأدخلت تحسينات عديدة فى المدينة فى السنوات الأخيرة فهى تضاء الآن بالكهرباء كما توجد فيها عدة خطوط للترام . وأهم صادرتها الارز والخشب والزيت والجلود والياقوت والقطن والانبياء وبعض المواد التى تستعمل فى دبغ الجلود وفى الاصباغ .

أنت من هذا ترى أن المدينة لها أهمية كبيرة ويسكنها كثير من الهنود والصينيين حتى ليصعب على الانسان لسبب كثرة هؤلاء أن تقع عينه على أحد البورمانيين الاصليين وقدرأينا فى الطريق رجالا عاريي الرؤوس محلقين مجردين من الملابس ماخلا حراما أصفر على الجسم مباشرة على شكل المحرمين وهؤلاء هم رجال الدين .

ورجال البوليس فى رانجون هم من طائفة السيخ المعروفين بطول القامة والاهية الكثة . ومما لفت نظرى بصفة خاصة كثرة المساجد فى بورما مع قلة عدد المسلمين . ثم أن البلاد قذرة برغم اتساع شوارعها . نعم توجد هناك عدة دكاكين أوربية كبيرة كما رأينا سوقا منظمة للخضر ولكنك قلما تجد منزلا كبيرا كان أم حقيرا إلا وتجد الأعشاب قد غطت واجهته وذلك لكثرة الأمطار وشدة الرطوبة .

وعدنا بعد ذلك الى الفندق لمطالعة الصحف والوقوف على انباء العالم .

٢٩ اغسطس

أصبحنا والمطر يهطل مدرارا وفى منتصف الساعة التاسعة ذهبنا بالسيارة لمشاهدة الأفيال وهى تستخدم فى نقل أعمدة الخشب فى الميناء ورصها بانتظام ، وكم كان أسفنا شديدا لحرماننا من مشاهدة هذا المنظر لأنه كان يوم العطلة للأفيال وإن كنا قد رأينا أربعة منها مربوطة استعدادا للعمل

ومن هناك ذهبنا لمشاهدة « الباجودا » أو المعبد الكبير . وهو عبارة عن جملة معابد صغيرة محاطة بسور منيع من الحجر على شكل الاستحكامات . وحول السور خندق مياه . ويدخل الانسان المعبد بواسطة باب هو آية فى الفن والتنسيق . ثم شهدنا حركة دخول وخروج كبيرة بين الأهالى . وإذ أفهمونا أن العادة عند زيارة هذه المعابد أن ينزع الانسان حذاءه وجواربه توقفنا عن الزيارة ، ولم يكن يسعنا أن ننزل على هذه العادة لأن رجال هذه المناطق اعتادوا مضغ مادة حمراء تسمى « تبال » ثم بصقها على الأرض بعد الفراغ من مضغها فيكون لون البصاق قانيا كلون الدم تتقزز

منه النفوس. ومما يزيد الطين بلة وجود كلاب كثيرة بالمعبد مصابة بنوع من الجرب فاذا أضفت هذا الى ما تخلفه هذه الكلاب من القاذورات فى كافة أنحاء المعبد لاشمأزت نفسك من السير حافى الأقدام على هذه القاذورات. ولهذا عدلنا عن دخول المعبد واكتفينا بمشاهدة ما استطعنا مشاهدته منه من الخارج. وليس يخفى أن هذه المعابد البورمانية مشهورة بما تحتويه من بدائع صناعة حفر الخشب المزخرف بالذهب.

وغادرنا المعبد لرؤية بحيرة صغيرة بها نادى التجذيف وبقربها تمثال للملك ادوارد السابع. ومن هناك مررنا ببركة مقدسة شاهدنا الناس ينقلون اليها الأسماك من مختلف الجهات فتصبح هذه الأسماك مقدسة! والى هذه البركة يحج الناس داعين الآلهة أن تجيب مطالبهم وفى اعتقاد القوم أن هذه المطالب لن تقضى إلا إذا اطعموا السمك الموجود فى البركة خبزاً!

ومن الغريب أن هذه البركة ليست قاصرة على السمك بل يوجد بها قليل من البط وليس من سبيل طبعا لمنع البط من التهافت على الخبز. ولكن الأهالى يدفعون أجراً زهيدا نحو مليم أو اثنين لأشخاص مخصوصين موجودين هنا مسلحين بالبوص الطويل ومهمتهم ابعاد البط عن مزاحمة السمك فى أكل الخبز. ومن غريب اعتقادات القوم أن السمك إذا بادر بالتهام خبز زيد من الناس قبل خبز شخص آخر قضيت حاجة الأول قبل الثانى. ولقد حدثتنا أنفسنا بالاشتراك فى هذه العملية من باب التسلية. وكم كانت دهشتنا لكثرة الأسماك التى تهافتت على الخبز فانها غطت سطح الماء فى الجهة التى القيناه فيها.

ومع اننا وقع اختيارنا على سائق سيارة يحسن التكلم باللغة الانجليزية إلا أن شأنه معنا كان عجيبا . فكلما أردنا منه شيئا تظاهر بعدم فهم مانريد وراح يفعل طبقا لهواه ، مثال ذلك أننا استأجرنا سيارته بحساب الكيلومتر فما كان منه عند ماطلبنا اليه العودة الى الفندق بعد الفراغ من نزهتنا إلا أنه راح يلف بنا فى مختلف الجهات بلاحاجة الى ذلك وكلما ازددنا إلحاحا بالعودة إلى الفندق ازداد تجاهلا لرغبتنا . ولقد قضى طيلة الصباح وهو يلف ويدور الى أن عاد بنا حوالى الظهر الى الفندق من تلقاء نفسه . وقد فهمت من مسلكه هذا أن السائحين هنا فى غاية الخبث والاحتيال لأننا استأجرنا بالأمس سيارة لا بالكيلومتر بل بالساعة فكان السائق يسير بنا الهوينا نحو الجهة التى قصدناها حتى خيل الينا أن سيارته تزحف زحفا .

ثم ذهبنا بعد الظهر لابتياع بعض الفواكه الخاصة بهذه البلاد فرأيت فى السوق أقمشة جيدة ولا بد أن يكون القوم هنا مولعين بأكل الطيور كالدجاج والديكة الرومى يدل على ذلك كثرة هذين الصنفين فى السوق . كذلك قل عن شدة ولعهم بالزهور لحاجتهم إليها فى زيارة القبور وفى المنازل .

ثم تاقت أنفسنا للتنزه على الأقدام ولكن حالت دون ذلك حرارة الجو وقذارة الشوارع فعدنا الى الفندق .

وقد لاحظنا أن الاهالى برغم طيبة قلوبهم فانهم كسالى ، وبرغم سعة البلاد فسكانها قليلون ولذلك تراهم قانعين بما تمنحهم الطبيعة إياه بلا قوت . ولكن الانجليز عند ما استولوا على هذه البلاد أدركوا أنها غنية بمعادنها وأخشابها

فاستقر قرارهم على استعمارها . على انهم أحسوا أن البورمانيين لا يستطيعون الاضطلاع بهذه المهمة فجاؤوا من الهند بنحو ١٥٫٠٠٠٫٠٠٠ هندى للعمل فى الأرض وهكذا أصبح الأهالى الهنود أكثر من البورمان مما أثار الاحتجاج الشديد من البورمانيين .

ومما شهدته من المستغربات أن الانسان فى البلاد الغاصة بالسكان الفقراء يرضى فى سبيل الحصول على مجرد القوت أن يسخر كالحيوان فى مقابل أى أجر زهيد . لهذا كنت أشهد من شرفة الفندق كثيرا من المركبات الكبيرة ذات العجلتين مشحونة بالبضائع الواردة من الجمرك يسحبها أو يدفعها نحو ستة أشخاص من الهنود العرايا الأجسام إلا من القماشة الصغيره حول الحقوين . وهى عملية شاقة مضنية حتى إذا ما رآهم الانسان وهم فى لجة من العرق من كثرة التعب عاد به الخيال الى ما كان يراه من الصور التى تمثل العبيد فى عهد الرومان وهم مسوقون الى العمل . وكل ماهنالك من الفارق أن العبيد فى الأزمنة الغابرة كانوا يساقون بالكرباج أما هنا فهم مسوقون بمحض اختيارهم ولكن بدافع الكدح وراء العيش

ثم سألت أحد الهنود من موظفى الفندق لماذا لا يستخدمون المواشي فى جر هذه المركبات فكان الجواب أن خدمة المواشى على ندرتها فى بورما أكثر كلفة من هؤلاء الاشخاص . فوقلت وحمدت الله اننا لم نصل بعد الى هذا الحد فى مصر .

ولا يفوتنى أن أفوه بذكر مستشفى الجذام فى جهة « كندين » وهو

القائم على التبرعات الخيرية . وهو من أرقى المستشفيات التى توجد فى الشرق وتشرف على ادارته جماعة المبشرين الكاثوليك الفرنسيس .

ويوجد فى « مندلاى » مستشفيان كبيران للجذام . وتشرف على أكبرهما جماعة المبشرين الكاثوليك الفرنسيس لمكافحة الجذام وعلى أصغرهما جماعة المبشرين البريطانيين لمعالجة الجذام . وفى الحق أن الزائر لا يسعه إلا التغنى بما تقدمه هاتان الجماعتان من عمل الخير وما تقومان به من التضحية الشخصية .

ملاحظات عامة

الطقس : يبتدىء موسم السياحة فى بورما من نوفمبر وينتهى حوالى مارس حيث ترتفع الحرارة فى نهاية هذا الشهر الاخير . وفى شهر ابريل يشتد الحر . وفى مايو تبتدىء الامطار وتستمر عادة الى نهاية شهر اكتوبر .

الملابس : يحتاج السائح الى لبس القبعات الشمسية لاتقاء أشعة الشمس . واذا جاز أثناء النهار لبس الملابس الخفيفة الخاصة بالمناطق الحارة فلا غنى للانسان عن لبس الأقمشة الصوفية فى الليل .

ويتحتم على السائح أن يأخذ معه فى تجوله فى شمالى بورما ملابس ثقيلة لأن البرد خلال أشهر الشتاء شديد فى الليل وفى الصباح ، كذلك لا بد من الحصول على فراش للنوم فى القطار وهو ما يمكن تداركه بثمن معتدل فى رانجون حيث توجد دكاكين عديدة يحصل فيها الانسان على كل مايريده فى سبيل المعدات الملائمة لمناخ المناطق الحارة .

الخدم : يستأجر السائحون الخدم الوطنيين لمرافقتهم فى السياحة والقاعدة المتبعة فى استئجار الخدم أن يعطى السائح لخادمه فى بدء استخدامه

عشر روبيات بمثابة عربون وأن يدفع له أجرة ترحيله الى الجهة التي أخذه منها ويقوم الخدم بدور الدليل والمترجم ولهم فائدة كبيرة للسائح الذى لا يستطيع التكلم بلغة البلاد ولا يعرف لهجاتها المختلفة .

ولما كنا سنغادر رانجون فى اليوم التالى رأيت أن أكتب لمحة عامة عن بلاد بورما . فهى تقع فى شرق خليج البنغال . وتحد من الشمال الغربى والشمال بشيناجونج ومانيبور واسام والصين أما فى الشرق فتحد بمملكة سيام . أما فى الجنوب فتوجد شبه جزيرة الملايو . وتبلغ مساحة الاقليم بما فى ذلك ولايات «شان» ٧٣٨ر٢٣٦ ميلا مربعا وعدد السكان ٢٠٥ر٠٠٠ر١٣ نسمة .

والبورتغاليون هم أول من وطأت أقدامهم أرض البلاد من الاجناس الاوربية . وقد أنشأوا المصانع فى « مارتبان » و « سيريام » فى فجر القرن السادس عشر .

وفى سنة ١٨٢٤ نشبت الحرب البورمانية الاولى ولما وضعت أوزارها تنازلت البورتغال لانجلترا عن مقاطعتى « أراكان » و « تينا سيريم » واحتل الانجليز مدينة رانجون مؤقتا ثم سلمت لهم بمجرد دخول شروط الصلح فى دور التنفيذ .

وفى سنة ١٨٥٢ نشبت الحرب البورمانية الثانية وقد انتهت بالتنازل للانجليز عن مقاطعة « بيجو » بأكملها وهى تشمل مدينة رانجون .

وفى سنة ١٨٨٥ نشبت الحرب المرة الثالثة ولما لم تجد الحملة البريطانية أية مقاومة تستحق الذكر احتلت « ماندلاى » فى يوم ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٨٥ واسرت الملك تيوبو . وفى أول يناير سنة ١٨٨٦ اعلن ضم شمالى بورما بأكملها الى أملاك الامبراطورية البريطانية .

ونعود الى سياق الحديث الخاص برحلتنا فنقول كانت الشمس فى اليوم التالى وهو ٣٠ أغسطس حارة ولما شعرنا بالحرارة فى الساعة السادسة صباحاً أدركنا أن اليوم سيكون من الايام الحارة جداً. وما وافت الساعة الثامنة حتى جاء مندوب شركة كوك لنقل حقائبنا الكبيرة الى الباخرة « ارانكولا » وهى إحدى البواخر الصغيرة التابعة لشركة « بريتش انديا » ولها مدخنتان.

فلاحظت أن الباخرة مزدحمة بالركاب الهنود فى الدرجة الثالثة وهم عائدون إلى بلادهم. أما المخدع الذى أعد لى فى الباخرة فقد كان ضيقاً وقذراً ولم يكن يلوح على القائمين بشأن الباخرة الميل لترضيتى بنقلى الى مخدع آخر أقرب الى الراحة فأدركت أن من الخطأ أن يجعل الانسان كل اعتماده على رجال كوك وأن الأجدر به أن ينظم شئونه بنفسه عملا بالحكمة القائلة ماحك جلدك مثل ظفرك. وعلى أن مسألة استبدال مخدعى بآخر ما كانت تحتاج الى كبير عناء وخاصة والباخرة كانت معدة لخمسين من ركاب الدرجة الاولى فى حين أن عدد المسافرين فى هذه الدرجة لم يزيدوا عن ٢٧ شخصا. وقد كنت أوصيت مندوب كوك بصفة خاصة أن ينتقى لى مخدعا يلائمنى ولكن يلوح أنه لم يأبه بتوصيتى.

ورأينا مع الهنود الذين كانوا معنا فى الباخرة نساءهم وقد لبسن لباسا يشبه الكيس الابيض وقد شد بازار فوق رؤوسهن وبه فتحتان فقط للعينين. ومع اننى كمسلم اعرف معنى الحجاب إلا اننى رثيت لحال أولئك النسوة المسكينات لأنهن صبرن على حالة لا يمكن احتمالها فى هذا الكيس الذى كان فى ذلك الجو الحار أشبه بالغلاية.

بين رانجون وكلكتا

٣٠ اغسطس

فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ٣٠ اغسطس اقلعت الباخرة وغادرنا رانجون. أما الباخرة فهى من البواخر القديمة وجميع الايدى العاملة فيها طاعنة فى السن. وكان يوجد بين خدامها ثلاثة أو أربعة تتراوح أعمارهم بين الستين والسبعين عاما. ثم ان الطعام هو من أردأ ما وقعت عليه عيناى طيلة حياتى. وكانت السماء تمطر بشدة. وقد أخذنا نرجع القهقرى فى مصب نهر اروادى قاصدين البحر.

وعند الساعة الثالثة بعد الظهر تركنا الدليل ونظراً لشدة رطوبة الجو اضطررت أن ألبس ملابسى الصيفية.

٣١ اغسطس

فى صباح يوم ٣١ اغسطس كانت السماء ملبدة بالغمام ولكن انقطع المطر وأخذت السفينة تترنح من جانبها وان لم يكن البحر هائجا. وفى أثناء محادثتى مع ربان الباخرة أخبرنى أن الشركة التابعة لها الباخرة نظراً لعدم وجود مزاحمة من شركة أخرى لاتعنى براحة ركاب الدرجتين الاولى والثانية. ولهذا لاتهتم باصلاح شأن الباخرة لأن ركاب الدرجتين الأولى والثانية لايزيد عددهم فى الغالب عن السبعين ولا بد من بذل عناية خاصة لهؤلاء فمن طعام خاص الى خدم خصوصين و... و... الى آخر ماهنالك من النفقات التى تعتبرها الشركة باهظة وغير منتجة أى انها لاتعود بالربح على الشركة. أما فى الدرجة الثالثة ففى وسع الباخرة أن تأخذ من ركابها من ٨٠٠ — ١٠٠٠

شخص وهؤلاء يدفع كل منهم من ١٤ الى ١٦ روبية وليس من شأن الباخرة أن تقوم بخدمتهم أو تقدم الطعام لهم عدا الماء الساخن للشاى . وما دامت الشركة لاتتكلف نفقات ما لركاب هذه الدرجة فلا ترى مسوغا لبذل عناية خاصة لركاب الدرجتين الاخريين .

وفى المساء بدأت السماء تمطر مطراً متقطعاً .

أول سبتمبر

كان الجو معتدلا فى الصباح ولما كان الجو صحوا فقد خشينا أن يكون اليوم حارا . وقد بدأ الهواء يهب من الجنوب الغربى . وعلى العموم ليس يسعنا إلا أن نحمد الله على انتهاء الرحلة من سنغافوره إلى هنا بواسطة باخرة صغيرة دون حدوث طوارىء جوية وخاصة متى لاحظنا أن الفصل كان فصل المونسون

والمونسون كما هو معروف عبارة عن أعصار شديدة مصحوبة بسيول الامطار تغشى المياه الهندية حتى اذا جاء أوانها لا يسع السفن الا اغلاق كل ما فيها من الفتحات حتى لا تتسرب المياه الى داخلها فتعرضها للتلف او الغرق . ويمكنك بعد سد تلك المنافذ أن تصور لنفسك ما يعانيه الركاب وقتئذ من ذلك الحر الخانق . وليت البلاء يقتصر على كتم الأنفاس بهذه الطريقة بل هناك سيول الأمطار التى تحجب الرؤية فلا يسع القبطان أن يميز ما أمامه فهو يخشى التقدم بسفينته خشية الاصطدام . ثم لا تنس ما يصحب هبوب هذه الأعاصير من هيجان البحر إلى درجة أنه كثيراً ما يغمر بأمواجه سفينة صغيرة كالتى تقلنا .

وعند الساعة الخامسة بعد الظهر رأينا أنفسنا أمام أول سفينة من السفن المجهزة بالفنار لتنبيهنا إلى أننا نقترب من مصب نهر الجانج . وأبصرنا هنا لون مياه البحر قد تغيرت وصارت تضرب إلى الاحمرار بسبب ماتلقيه فيها المياه العذبة من الطمى . ثم اجتزنا أربع سفن من سفن الارشاد .

وقد لاحظنا أن المياه الحمراء التى يصبها نهر الجانج فى المحيط داخلة فيه إلى مسافة ١٢ ميلا تقريبا . ويوجد إلى جانب سفن الأرشاد الأربع التى أشرنا اليها ثمانى عوامات مزودة بالمصابيح اللازمة لارشاد السفن .

وفى منتصف الساعة الثامنة مساء ألقت الباخرة مراسيها إذ كان المقرر أن نقضى الليل هنا حتى مطلع الفجر انتظاراً للمد لتتمكن الباخرة من مواصلة سيرها إلى مدخل الجانج .

ولقد كانت ليلة ليلاء تلك التى قضيناها هنا فى انتظار المد . فلقد كان الحر لايطاق وليس هناك أثر للنسيم المنعش للنفوس . ولكن ضوء القمر كان بديعا وسط السماء الصافية فان أشعته الفضية كانت تنعكس على المياه بشكل يفتن الأبصار .

ولاحظنا وجود أربع بواخر الى جانبنا كان حظها كحظنا أى أنها كانت تنتظر مثلنا ريثما يسعفها المد فيحملها الماء الى مدخل النهر وأغلب هذه السفن التى تنتظر المد سرعان ما تجد نفسها راسية على الارض فى وقت الجزر . فمتى جاء المد رفعها عن الأرض وعومها . أما قبطان الباخرة فهو اول من يعرف وقت حلول المد وذلك بدوران السفينة حول مرساها فيأمر بانتزاع المراسى استعدادا للسير . وينزل ركاب بواخر المحيط عادة عند رصيف « اوترام

جات» رأسا. اما فى وقت الجزر فانهم يغادرون الباخرة عند «جاردن ريتش» على بعد أربعة أميال ومن ثم يذهبون بالرفاص الى « اوترام جات » .

٢ سبتمبر

وفى منتصف الساعة الثامنة من صباح يوم ٢ سبتمبر دخلنا الجانج وكم كان اتساع النهر هنا مما ذكرنى باتساع الأنهر فى جنوبى أمريكا وفى الصين . والأراضى هنا كلها مسطحة وسهلة والزراعة الرئيسية هنا هى الأرز . والفرق بين ما يراه الانسان هنا وما يراه فى بورما أن القرى الصغيرة التى يقطنها المزارعون وصيادو السمك هنا يخطئها العد . وبديهى أن كثرة القرى دليل العمران . وبعد أن سرنا فى النهر نحو ساعة كان لا يزال عرض النهر نحو ١½ كيلو متر . وأول ما وقعت عليه أعيننا من المبانى التابعة للأجانب مخازن البترول وعلى مقربة منها الأهالى وهم مشتغلون بصناعة ضرب الطوب وهذا لقلة الأحجار . إذ المعلوم أن معظم البلاد الزراعية المسطحة تقل فيها الأحجار فيضطر الأهالى إلى الالتجاء للطوب .

وهؤلاء الصناع المشتغلون بضرب الطوب مرزوقون على كل حال فهم لا يكادون يفرغون من حفر حفرة فى جهة من الجهات لاستخدام محتوياتها فى ضرب الطوب حتى يطالعهم نهر الجانج فى اليوم التالى بما يكفى من الطمى لسد الحفرة أو بعبارة أخرى أن النهر يمونهم بالطين اللازم.

وقد قيل لنا أن أغلب المبانى فى كلكتا بالطوب الأحمر لبعد المدينة عن الجبال مما يجعل البناء بالاحجار كثير الكلفة .

ثم رأينا الى اليسار مصانع كبيرة منهمكة فى تحضير نبات « الجوت » لصنع الاكياس وهذا من أكبر منابع الثروة فى بلاد البنغال .

ويقال أن ثلاثة أرباع ما يستعمل فى العالم من الأكياس مصدره مصانع البنغال ومعظمها ملك لعظماء الانجليز والشركات الانجليزية الكبرى . وهذه هى المصانع التى اذا اضرب عمالها لسبب من الأسباب ظهرت آثاره الضارة بين الدوائر المالية والصناعية والتجارية فى انجلترا .

وقبل ان يغادر الركاب الباخرة الى البر تعطى لهم استمارة من الجمرك لملء الخانات بالبيانات المطلوبة عما يحملونه من الامتعة وهذه البيانات تسلم الى موظفى الجمرك عند ما يصعدون إلى سطح الباخرة .

ثم صعد الينا رجال البوليس ومندوبو الجمارك للتفتيش على الجوازات كما حضر الطبيب للتثبت من عدم وجود أمراض . ورأيت البوليس يبدون اهتماما بمسدسى ويتساءلون هل مازلت أحمله أم سلمته فى رانجون فادهشنى الحاحهم فى هذه المسألة والحافهم فى السؤال الذى يبلغ حد المضايقة . وهنا أخذت أسائل نفسى: « إن العادة فى البلاد المحظور فيها حمل السلاح أن يؤذن لمن هم من طبقتى بحمله من باب التساهل . أما هنا فى بلاد الهند فهم لا يستثنون جوازاً سياسيا ولا يحفلون بأمير من الأمراء بل ينبغى فى عرفهم نزع سلاح الجميع بلا تمييز » . ومما زاد فى استغرابى جواب قومندان البوليس عند ما أطلعته على جوازى السياسى إذ قال :« وماذا عسى أن يهمنى هذا الجواز السياسى . إنك لست من رجال السياسة فى الهند فليس لى إذن بجوازك السياسى شأن ما » .

ثم جاء مندوبو كوك ونقلوا حقائبنا وارشدونا الى فندق « جريت ايسترن » . ونحن الآن فى بلاد الهند .

بلاد الهند

قبل التكلم عن مشاهداتى فى كلكتا أقول كلمة عن مناخ الهند وما يلائمه من الملابس . ففصل الشتاء يمتد من نوفمبر الى شهر مارس .

وجو بومباى بارد عادة من أوائل ديسمبر إلى نهاية فبراير . أما فى كلكتا فقد يشتد البرد حوالى عيد الميلاد . وقد يشتد البرد أحيانا فى رانجون فى ديسمبر ويناير ولكن قد يكون البرد محتملا فى بعض السنين أو معدوما بالكلية . وفى كولومبو لا يشعرون بالبرد مطلقا ولكن رحلة قصيرة بالسكة الحديدية كافية لأن تأخذ السائح الى ارتفاع ستة اوسبعة آلاف قدم حيث يشتد البرد . وفى كافة المناطق الواقعة فى شمال الهند وبورما العليا يهب النسيم عليلا طول اليوم من شهر نوفمبر الى شهر مارس بينما يشتد البرد فى الليل .

أما من حيث الملابس فان الأمر يقتضي — كما ترى — أن يكون لدى السائح عدته من الملابس الصيفية والشتوية على السواء . ويمكن الحصول على الملابس الملائمة للمناطق الحارة بأثمان زهيدة عند الوصول إلى الهند . ولا غنى للانسان عن المعاطف وأغطية الأقدام وفى وسع السائح أن يلبس الأقمشة الخفيفة أو بذل الفانلا براحة تامة فى الشطر الأخير من موسم السياحة . وإنما لابد له من مقدار كبير من الملابس الخفيفة الملاصقة للجلد . وينبغى أن يلبس القبعة الواقية من أشعة الشمس لغاية الساعة الخامسة بعد الظهر .

والسفر بالسكة الحديدية يقتضى السفر ليلا والمعروف أن البرد قارص فى ليالى الشتاء ومن هنا كان لابد للمسافر بالسكة الحديدية من بعض أدوات

للفراش . ويحسن به أن يستأجر فراشاً قاصراً على ما يحتاج اليه فقط مثل ما يسمونه « ريزاى » أى مرتبة خفيفة وملاءتى فراش ووسادتين وأغطية للوسائد وبطانية ومناشف وصابون الخ فى مقابل أجر زهيد يبلغ روبية واحدة فى اليوم بشرط أن يكون الحد الأدنى للاستئجار ٢٥ روبية .

والحديث فى صدد فراش السفر يجرنا حتما الى الخوض فى شأن الخدم الذين يستأجرهم المسافرون لمرافقتهم فى السفر للسهر على راحتهم وتهيئة الفراش لهم وقت النوم الخ الخ فأقول : ان المسافر لاغنى له عن الخادم وعندى أنه يستحق ما يبذل من النفقات بسببه وتبلغ أجرة تذكرة سفره بالسكة الحديدية جزءا من ستة أجزاء من أجرة تذكرة الدرجة الأولى .

أما أجرة الخادم فهى ٤٥ روبية فى الشهر يضاف اليها ٨ « انة » يوميا بدل طعام و ١٥ روبية ثمن ملابس شتوية . وهذه المسألة الأخيرة أصبحت الآن فى حكم العادة . وعليه فان مجموع نفقات الخادم مدة شهر سياحة هو ٧٥ روبية تقريبا تضاف اليها أجرة سفره فى السكة الحديدية .

ولكن فى مقابل هذا المبلغ يقوم الخادم مقام المترجم والساقى . وأكثر ما يدرك المسافر أهمية خادمه هذا عند ما يضطر أن يغادر مركبة السكة الحديدية للذهاب الى عربة الأكل ليحصل فيها على شاى الصباح المبكر حتى إذا عاد الى مركبته الفى الخادم قد رفع السرير وأعد المقاعد للمسافر . وبالجملة فان الخادم يسهر على راحة مستخدمه .

وهؤلاء الخدم يحصل الانسان عليهم فى مكاتب السياحة بالهند ولهم طبعا إلمام بلغة البلاد ولهجاتها المختلفة كما يعرفون الاماكن التى تستحق الزيارة ولا يستحسن تكليف هذا الخادم بأداء وظيفة المرشد المحلى فان هذا الأخير

أدرى بأماكن الزيارة وأعرف بتاريخها وأقدر على شرح كل ما يتعلق بها للمسافر .

وليس يفوتنى أن أذكر هنا أن هذا الخادم يؤدي وظيفة أخرى مفروضة عليه ازاء حكومة الهند وهى أن البوليس إذا أراد الاستعلام عن شخص من بين السائحين فان هذا الخادم يمكنه الادلاء بالمعلومات المطلوبة .

أما وسائل النقل فى المدن فهى السيارة والاجرة ١٢ «انة» لكل ميل وأجرة المركبة التى تجرها الخيل كما يأتى : المركبة من الدرجة الأولى روبية واحدة و ٨ « انة » للساعة الأولى ثم ١٢ « انة » لكل ساعة اضافية . المركبة من الدرجة الثانية روبية واحدة للساعة الأولى و ٨ «انة» لكل ساعة إضافية .

أما فيما يتعلق بالعملة فوحدة النقود هى الروبية وقيمتها ستة قروش صاغ ونصف وتحتوى على ١٦ « انة » وتحتوى كل « انة » على ١٢ « بى » وهكذا توازى « الآنة » أربعة مليمات تقريبا .

* * *

وقد يلاحظ أننى توخيت الايجاز وضربت صفحا عن التفاصيل الجغرافية لعلمى أن الناس قد وقفوا على هذه التفاصيل أثناء الدراسة .

وإذا قلت الهند فانما أقصد بلاداً تعج بمئات الملايين من البشر فهى عالم بنفسها وفيها ماينيف عن ٣٢٠ مليون نسمة ونحو ٨٠ من الأديان المختلفة أما لغاتها المتعددة ولهجاتها المختلفة فما لا يقع تحت حصر وبحسبى أن أقول أن سكان المناطق الشمالية لا يستطيعون التفاهم مع سكان الجنوب كما أن أهل الأقاليم الشرقية لا يفقهون شيئا من لغة الأقاليم الغربية وهكذا .

ولقد اخترت السفر الى الهند فى الصيف مع أنه كما أعلم لا يعتبر الفصل الملائم للسياحة ولكننى كنت حريصا على عدم مغادرة بلادى العزيزة مصر فى فصل الشتاء وهى أطيب بلاد المعمورة مناخا فى هذا الفصل . ولما كنت قد طفت العالم بأسره ووقفت على ما فيه من العجائب فان نفسى كانت تتطلع لاجتياز البلاد الهندية — وهى البلاد الوحيدة التى لم أكن قد شاهدتها بعد لرؤية ما فيها من الآثار وخاصة ما لا يزال قائما من الآثار التى خلفها المسلمون عندما كانوا حكاما فى تلك البلاد . وهى والحق يقال أعظم الآثار روعة ورواء وجمالا . وكم أراد جناب اللورد لويد عند ما كان مندوبا ساميا لدولته فى مصر أن أنزل ضيفا رسميا على حكام الهند ومهرجاناتها ولكنى آثرت أن أتجول فى أنحائها كسائح عادى متنكرا باسم « رستم بك » لأتمتع بما أشاء من الحرية التامة فى مشاهدة ما ترغب نفسى فى مشاهدته .

فى كلكتا

كانت كلكتا الى عهد قريب عاصمة البلاد الهندية الانجليزية ولكنها أصبحت الآن عبارة عن قاعدة أحد الحكام العموميين الانجليز.

والهند كما هو معلوم مقسمة إلى عدة أقسام ولكل قسم منها حاكم عام وعلى رأس أولئك الحكام العموميين يوجد نائب الملك.

ولقد نزلنا بفندق « جريت ايسترن » كما قلنا سابقا حتى اذا ارتحنا قليلا من عناء السفر تاقت نفوسنا للخروج للنزهة ولكن شدة الحرارة حتمت علينا أرجاء هذه الفكرة الى منتصف الساعة الخامسة بعد الظهر . لأن طالب التنزه أو الباحث وراء الآثار بقصد زيارتها عليه أن يبكر جدا

فى اليقظة ليقضى أربه من النزهة أو الزيارة فى الجو الملطف ثم يعود إلى الفندق حوالى الساعة التاسعة فينزع ملابسه ويأوى الى فراشه تحت المروحة الكهربائية ويظل فى سريره الى الساعة الرابعة حتى تخف حرارة الجو بحيث يستطيع الانسان أن يخرج للنزهة .

من أجل هذا لم نستطع الخروج للنزهة بعد وصولنا الى الفندق مباشرة بل طلبنا الى الدليل (أو بعبارة أخرى الخادم الذى سلفت الاشارة اليه) أن يوافينا فى الفندق فى منتصف الساعة الخامسة بالسيارة للتجول معنا فى أنحاء المدينة . وفى الميعاد المضروب خرجنا فرأينا كل ما يشعر الانسان بأن المدينة من أكبر العواصم فمن دور عظيمة إلى دكاكين كبيرة الى شوارع متسعة غاصة بالناس الى مركبات للترام ولكن مع الأسف كانت توجد إلى جانب عظمة المدينة قذارتها .

وليس شك فى أن العناية بنظافة الأحياء الأفرنجية بالغة منتهاها ولا غرو فان قصر حاكم البنغال قائم فى تلك الأحياء وسط حديقة شاسعة وبالقرب منه ناد للعب التنس وفى ناحية أخرى مكان السباق . وفى الجهة الأخرى من الميدان الكبير بقرب القصر يوجد بناء عظيم من المرمر الأبيض يسمى تذكار الملكة فيكتوريا وقد شيد ليكون بمثابة اعتراف باتساع نطاق الامبراطورية البريطانية ودخول الهند فى هذا النطاق فى عهد الملكة المذكورة .

وقصدنا بعد ذلك مصلحة البريد وقصر وزارة الحقانية ومن هناك واصلنا السير الى السوق فرأيناها نظيفة يتخللها الهواء من كافة نواحيها . وهنا

شاهدنا المناظر المألوفة فى كافة أنحاء الشرق وهى من ناحية انبطاح الفقراء والمتسولين على أرصفة الشوارع بحالة قذرة تعافها النفس ، ثم من الناحية الأخرى اعتبار الطريق العام كأنه ملك خاص لكل من فيه من السكان . فعلى قوارع الطرق وفى وسط الشوارع ترى هذا يطهى الطعام وذاك يحلق شعره الطويل المرسل وثالثا يغسل ملابسه وآخر يغسل أولاده العرايا على ملأ من الناس لايخشى اعتراضا من أحد . وكثير غير ذلك من المناظر التى يعرفها كل من يتجول فى الأحياء الفقيرة فى الشرق .

واذا كانت هذه المناظر مألوفة كما قدمنا فهناك فى كلكتا يشهد السائح ذلك المنظر الغريب وهو وجود الابقار بكثرة حيثماذهب واينما حل. وأمر هذه الابقار عجيب حقا .

فمثلا اذا أراد شخص معقم أن تهبه الآلهة الذرية توجه الى ادارة البوليس فوهب للآلهة بقرة معينة ومن ثم تصبح مقدسة فتكون لها الحرية المطلقة فى السير فى الطرقات العامة وفى غشيان المطاعم والمساكن بلامقاومة أو اعتراض بل يرحب بها الجمهور أينما رآها ويبادر الى تقديم العلف لها . وأكثر من هذا فى التدليل على ما لهذه البقرة المقدسة من المكانة السامية فى قلوب القوم أن الناس يتبركون بروثها المتناثر على الأرصفة ويتسابقون الى اقتنائه .

٢ سبتمبر

قضينا ليلة شديدة الحرارة حتى إذا انتصفت الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى قصدنا حديقة النباتات وتبعد عن المدينة بنحو نصف ساعة بالسيارة وتقع على ضفة الجانح اليسرى . ونظرا لأن الحديقة شاسعة الاطراف

لا يستطيع المرء أن يحيط بها كلها سيرا على الأقدام فقد تجولنا فيها بالسيارة. ولا مناص من التسليم بأن أشجارها جميلة وغريبة وان كان شأن الحديقة مهملا مما يبعث على الأسف .

ولما كان الوصول الى هذه الحديقة يقتضى اجتياز منطقة المصانع وعنابر السكة الحديدية وترسانة البواخر وغيرها من مناطق الصناعة فان سراة كلكتا وأغنياءها لا يهتمون بزيارة الحديقة كثيرا وهذا سر إهمال شأنها .

على أنه توجد طريق أخرى للحديقة ولكن لابد لمن يختارها من اجتياز الأحياء الوطنية وهى كما قدمنا فى منتهى القذارة . لهذا كان أسفى شديدا لأهمال أمر تلك الحديقة الشاسعة التى لابد أن يكون إنشاؤها قد تكلف نفقات باهظة جدا . ولقد دلتنى مطالعاتى فى الكتب النباتية على أن هذه الحديقة هى من غرس كبار النباتيين الانجليز. والى هؤلاء العلماء الأعلام يرجع الفضل فى ارشاد العالم الى ما فى الهند من النباتات العجيبة النادرة . وليس ريب فى أن حديقة كلكتا كانت أثناء حياة أولئك العلماء تعتبر فى طليعة حدائق العالم والتى تضرب بحسن مجموعة نباتاتها الأمثال . ولكنها الآن فقدت أهميتها وأصبحت دون حديقة «بيتانزور» فى جاوا شأنا أو حديقة « كاندى » بسيلان . لا بل أن حديقتى بينانج وسنغافوره على صغرهما أكثر ترتيبا وأبعث على الاعجاب وانشراح النفوس من حديقة كلكتا .

ومما تاقت نفسى الى رؤيته بصفة خاصة فى حديقة كلكتا شجرة « البانيال » Ficus Bengalensis وهى التى سارت الأمثال بضخامتها وبأنها أكبر شجرة فى العالم طرا لأن أغصانها يمكن أن تظلل آلافا من الناس فى وقت

واحد . وانما تاقت نفسي لمشاهدتها لأقارنها بشجرة البانيال الموجودة في حديقتي بمصر . وقد بروع منظرها الضخم من لادراية له من الناس بالشئون النباتية فينخدع بهذه الضخامة ويحسبها شجرة واحدة ، ولكن الرجل الخبير — مثلي — لايكاد بصره يقع عليها حتى يدرك لأول وهلة انها شجرة مركبة في الواقع من أربع شجيرات تآلفت فروعها بعضها مع بعض وأندمجت حتى ليخيل للانسان انها شجرة واحدة . لأن لكل شجرة « أماً » وهذه «الأم» تكون في الوسط ومنها تتفرع الشجرة وتنبسط جزوعها وهي دائماً أضخم من الجزوع التي تنطلق تحت سطح الارض لتكوين جذور جديدة . أما في حالتنا هذه فقد وجدت أربع « أمهات » متساوية الحجم والشكل مما أقنعني انها لأربع أشجار . ولست أريد أن يفهم من كلامي هذا أنه لاتوجد في كافة بلاد الهند أصلا شجرة بانيال تفوق الشجرة التي في حديقتي من حيث الضخامة كلا بل كل ما أريد أن أقوله انني لم تقع عيني على شجرة في الهند تفوقها في ضخامتها وحجمها . والفرق بين نوع هذا الشجر في الهند وعندنا في مصر هو أن الشجرة في الهند تبلغ ارتفاعا شاهقا لانها تحاول التغذي بمياه الامطار وهي كثيرة في الهند كما لايخفى ، ولما كانت الرطوبة متوفرة في المطر كان طبيعيا أن تمتد الاغصان الى ناحية السماء وبذا ترتفع الشجرة طلباً للغذاء من الأمطار . أما في مصر فالامطار قليلة فلا معنى إذن لارتفاع الاغصان . ولما كانت الرطوبة تنتشر على سطح الارض فان الفروع تبعا لذلك تنتشر بقرب سطح الارض لتحصل على الغذاء المطلوب ، ومن ثم تجد

هذا النوع من الشجر واطئاً فى مصر بينما يبلغ فى الهند ارتفاعا شاهقاً .

وبهذه الحديقة جملة طرق اصطفت على جوانبها أشجار النخيل الغريب النوع .

وعند العودة الى الفندق فى منتصف الساعة العاشرة صباحاً وجدنا الطريق مسدوداً وحركة المرور معطلة بسبب ازدحام الألوف المؤلفة من الناس بملابسهم البيضاء . فسألت الخادم عن سر هذا الازدحام فقال انهم سكان الضواحى الذين يقصدون فى هذه الساعة الى محال أعمالهم فى البنوك وغيرها . وبوسعى أن أؤكد أن عددهم كان يتراوح بين ١٥٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ وكلهم سائرون على الأقدام وبعضهم يحمل المظلات . فلم يكن غريباً أزاء هذا السيل العرم من الناس الذى يبلغ طوله ١½ كيلومتر ان تتعطل حركة المرور وهنا ساءلت نفسى فى دهشة عن مبلغ الصعوبة فى ضبط زمام هذه الجماهير أو كبح جماحها فيما لو تقدمت متراصة الصفوف بقصد الاحتجاج أو لابداء مظهر من مظاهر العنف . وعلى أننى لم أدر سر دهشتى هذه مع اعتيادى رؤية مئات الآلاف من الناس محتشدين فى أماكن السباق . ولعلها راجعة الى علمى بأن الهند كانت وماتزال فى حالة غليان شديد . وقد أقنعتنى رؤية هذا البحر الزاخر من النفوس البشرية وهم ذاهبون إلى محال أعمالهم بأن الثلاثمائة مليون نسمة الذين يقطنون الهند لو أجمعوا كلمتهم على أخراج الانجليز من بلادهم لاستطاعوا . ولكننى ما كدت أذكر من الناحية الأخرى ما وقعت عليه عيناى من القاذورات وما شاهدته من ضعف الأهالى وكسلهم حتى اقتنعت بأن الهند لا مناص لها من سلطة أجنبية تدفعها فى طريق الاصلاح

والخير. ومع أنه برغم ما قام به الانجليز فى الهند من اعمال الجبابرة فى ابان المائتى عام التى سلخوها فى تلك البلاد فانها نظرا لاتساع البلاد وتوانى أطرافها تكاد لاتعتبر شيئاً مذكوراً. لأن الانسان لايكاد يتوغل فى الاحياء الوطنية حتى يحس بأنه قد انقطعت صلته تماما بالعالم الخارجى. فلا يكاد يشعر بأن هناك دولة أوربية من أعرق الامم فى الحضارة قد ساخت كل هذه المدة فى الهند أوأن سلطانها مبسوط على كافة أنحاء البلاد.

٤ سبتمبر

بارحنا الفندق فى الساعة التاسعة صباحاً بالسيارة لزيارة تذكار فيكتوريا فوجدنا داخل البناء مجموعة من الصور والكتب والاسلحة يرجع عهدها الى بدء حكم الانجليز فى الهند وبداية صلتهم بها.

والبناء كما قدمنا من المرمر الأبيض ويدل طراز المعمار على نهاية سلامة الذوق. فطفنا بكافة الحجر ثم بالبهو الرئيسى فوجدنا فيه صورة كبيرة الحجم يبلغ طولها أربعة أمتار تمثل الاحتفال بيوبيل الملكة فيكتوريا فى لندن.

فقلت لمختار أفندى «أنعم النظر جيدا فى الصورة فان رأيت جواداً عربيا أبيض الاوزفان راكبه لامحالة هو شخصى عندما اشتركت فى ذلك الاحتفال». وما هو أن دقق النظر حتى رأى صورتى على ذلك الجواد الأبيض فقلت «ياسبحان الله من كان يظن أننى سأجتاز البحار وأتجول فى مختلف الأقطار لأهبط أرض كلكتا فاشهد صورتى فى أحد متاحفها».

وفى الصالة الوسطى يوجد تمثال من المرمر للملكة فيكتوريا. ولعل

أجل مافى هذا المتحف النقوش العديدة المزينة بالألوان مما يجده الانسان فى المكتب بريشة اكبر وأشهر رسامى الهند والفرس .

ثم قصدنا المتحف العام فشاهدنا فى الطبقة الامامية من البناء مجموعة من حيوانات الهند المختلفة . وفى ناحية أخرى توجد مكتبة عظيمة . ولم نستطع التوغل فى الحجر لشدة الحرارة من جهة ولكثرة ما يستعمله الهنود من العطور فى ملابسهم من ناحية أخرى .

ومن هناك ذهبنا الى شركة كوك لنقف على ما اعدته من معدات السفر لاننا كنا ننتوى مغادرة كلكتا فى منتصف الساعة التاسعة من مساء هذا اليوم .

وعند الساعة الرابعة بعد الظهر وافانا مندوب الشركة المذكورة وهو من أرق الشبان الانجليز واسمه مسترهويت لنسليمنا التذاكر وليضع معنا برنامج السفر .

وما تنصفت الساعة الخامسة حتى انطلقوا بحقائبنا الكبيرة إلى المحطة .

أما فندق جريت ايسترن الذى نزلت فيه فهو من أكبر فنادق كلكتا وهو مبنى على الطراز الأوربى . ولكنه أشبه بالثكنة العسكرية فالسقوف مرتفعة وأرضية الحجر من الرخام وذلك لتلطيف الحرارة . وهنا — كما فى البلدان الشرقية الأخرى — يجىء التجار لزيارة السائحين فى غرفهم وعرض سلعهم عليهم . ونظرا لتفاهة أجرة الخدم يوجد جيش عرمرم منهم فى كل فندق فتراهم اذا مر بهم الانسان استووا واقفين لتحيته فى غدوه ورواحه على الطريقة الهندية كل ذلك فى انتظار أن ينفحهم الانسان بالبقشيش . واذ

كان عددهم لا يحصى فقد سألت مندوب كوك كيف السبيل الى إرضاء هذا الجيش وبخاصة وبينهم الكثيرون ممن لم يقوموا لى بخدمة أصلا ؟ فأجابنى أن الواحد منهم ليقنع كل القناعة لو نال مايما واحدا كبقشيش !

وما وافت الساعة السابعة حتى تناولت طعام العشاء وفى الساعة الثامنة غادرنا الفندق إلى المحطة . وفى الحق ان محطة كلكتا من أكبر وأروع محطات الهند . وكان القطار فى الانتظار فارشدنا مندوب كوك إلى الديوان الخاص بنا فوجدناه متسعا يحتوى على فراشين مريحين وقد اعدهما للنوم الخادم الذى استأجرناه من قبل .

بين كلكتا وبنارس

اما مركبة السكة الحديدية فانها فسيحة الجوانب وبها « دورة مياه » وما يلحقها من مستلزمات الغسيل هذا إلى حمام مجهز « بالدوش » إذ يقال أن الأنسان بسبب شدة الحرارة هنا يحتاج إلى « دوش » من ساعة لأخرى . ونظرا لان ملابس الانسان خفيفة وبسيطة فازخلعها للاستحمام لا يكلفه أقل عناء .

وكل ما تقع عليه عين المسافر فى هذه المركبات بهيج سار سوى أنها متى أغلقت صارت أشبه « بالزنزانة » لعدم وجود ممر (كوريدور) فى المركبة .

وكانت نوافذ القطار موصدة درءا للحرارة تخيل إلىّ عند ما غادرنا المحطة فى الساعة الثامنة والدقيقة العشرين مساء أن سرعة القطار سوف تروح عنا قليلا بما ينفذ إلينا من الهواء العليل خلال النوافذ الخشبية. ولكن

تبين لنا أننا كنا واهمين فاننا سرعان ما اضطررنا إلى ادارة المراوح الكهربائية فوق رؤوسنا حتى نستطيع النوم .

وكان القطار يطوى الارض بسرعة عادية ولاحظنا المستخدمين فى غاية النظام بينما كان مفتش القطار والسائق انجليزيين .

٥ سبتمبر

فى الساعة الخامسة صباحا أحضر خادمنا الشاى فى ديواننا عند مدينة تسمى « أرطة ». وفى الساعة الثامنة والربع وصلنا إلى بلدة تسمى « مجول سراى » وهى محطة كبيرة وملتقى عدة خطوط رئيسية للسكك الحديدية بين الشرق والغرب والوسط والشمال. فنزلنا هنا إلى « بوفيه» المحطة وتزودنا بطعام الأفطار .

وفى هذه المحطة استبدلنا القطار الذى أقلنا من كلكتا بآخر يقلنا إلى بنارس . وفى منتصف الساعة التاسعة صباحاً تحرك بنا القطار الثانى قاصداً إلى بنارس وهى المدينة الشمالية المقدسة عند الهندوس وتقع على نهر الجانج . فوصلنا بعد ثلث ساعة بعد أن اجتزنا كوبريا جديدا يشرف على منظر بديع للمدينة .

فى بنارس المقدسة

أول ما يستلفت نظر الداخل إلى مدينة بنارس التى تعتبر مدينة مقدسة فى نظر الهندوس المسجد الذى شيده الملك المسلم أورانجزب . وهذا المسجد يعتبر تاج بنارس . فبعد أن استولى أورانجزب عليها هدم أكبر معبد بها وكان قائما على هضبة فى داخل المدينة ثم شيد مكانه المسجد الرائع المذكور

الذى يشرف على المدينة بأسرها وله مأذنتان شاهقتان .

وكانت السيارة فى انتظارنا فغادرنا المحطة قاصدين إلى فندق صغير يسمى «فندق كلارك» وهو من فنادق الدرجة الثالثة لكنه نظيف. ومما لفت نظرى بصفة خاصة أن مديره رجل وديع الأخلاق سامى الآداب .

وكنا قابلنا فى المحطة بعض الأمريكيين الذين كانوا معنا فى السفينة وسبقونا فى كلكتا إلى زيارة بنارس .

وبعد الظهر حضر إلى الفندق بعض الهنود الذين يحترفون اللعب بالثعابين وقد رأيناهم يحملون زهاء ٢٠ ثعبانا مختلفة الأشكال والأحجام والألوان . وبين هذه الثعابين العديدة أربعة من أضخمها وأشدها فتكا وثعبانان أخضران رفيعان الفاعقد ذنبيهما وحاهما على التوالى .

ولما فرغ هؤلاء من عرض ألعابهم جاء إلينا مدير الفندق ليمتعنا — كما خيل إليه — ببعض ملحه الطريفة ! فأخبرنا أنهم عثروا أمس أمام حجرتنا على ثعبان ضخم ! وليس فى العثور على الثعبان ما يدعو إلى الاستغراب متى تذكرنا أن الحجر أرضية وتحيط بها الحديقة من جميع الجهات . ولكن وجه الاستغراب هو أن يزعج مدير الفندق ضيوفه بهذه الأنباء التى يظنها تسليهم ! أفلم يكن الأولى به أن يتحاشى أخبارهم بهذه الملحة المزعجة حتى لا يبلبل أفكارهم أو يقض مضاجعهم بل يتذرع بالصبر إلى أن يعولوا على السفر وهناك فقط يخبرهم بما شاء ؟ ولكن هكذا كان .

وفى الساعة الرابعة مساء طلبنا سيارة . وأعارنا صاحب الفندق دليلا من البراهمة تدل ملامحه على التربية وإلمامه التام بأصول المدنية . فقصد بنا بادىء الأمر إلى أحد المعابد فألفينا فيها كثيراً من القردة ولذا سمى «معبد القردة» .

ثم زرنا « المعبد الذهبي » لأن داخله موشى كله بالذهب . والقباب المذهبة في الهندهي من النحاس ثم تطلى بطبقة رقيقة من الذهب. ولما كان الذهب لا تنفذ منه الصواعق فالهندوس يباهون بأن الصواعق لا تنفذ إلى القباب ويعللون ذلك بأن في القباب سرا يحول دون نفوذ الصواعق إليها .

ثم زرنا مسجداً أورانجزب وهو مسجد إسلامي بكل معنى الكلمة . وفي القسم الخلفي من البناء وجدنا باب المعبد القديم ليتبين الانسان أن أصل المسجد معبد .

وعلى مقربة من المسجد بئر تعتبر في نظر الهندوس مقدسة إذ كانت في الماضي مكانا يرمى فيه الأقدمون هيا كل لآلهم « فيشنو » ولذا يحج اليها الناس رجالا ونساء واطفالا لاكتراع مائها المقدس ففيه شفاء للأمراض كما يزعمون ! ولهذا أسرع قسس الهندوس الى الاستيلاء على هذه البئر وبيع مائها للجمهور .

ثم قصدنا بعد ذلك معبدا آخر به كثير من الأبقار المقدسة ويسميه الإفرنج معبد الأبقار.

وتمتاز أبقار هذا المعبد عن ابقار كلكتا بأن قرونها موشاة بالذهب.

ومعبد القردة هو المعبد الوحيد في بنارس الذى يسمح فيه بطقوس الفدية . ففي الاعياد يقوم متعصبو الهندوس بعد الصلاة باجراء عملية الذبيح . وبعد أن كانوا في الماضي يذبحون إنسانا أصبحوا يكتفون في الوقت الحاضر بذبح إحدى الماعز ثم يتبرك المصلون بوضع الدم على وجوههم.

وبنارس أكبر المدن المقدسة في الهند ومن هنا يعتقد الهندوس انها أول

ما انشىء من مدن العالم . وفوق ذلك يعتقدون أن من يموت فيها تخلد روحه في دار النعيم . لهذا يهرع اليها كبار الهنود وراجاتهم وقضاتهم إذا تقدمت بهم السنون ليموتوا فيها فتذهب أرواحهم الى النعيم كما يعتقد المسلمون في شأن مكة .

ومن عادة الهندوس إحراق الجثة بعد الوفاة إلا إذا كان الميت من الأولياء فيحتفظ بجثته وتدفن كالمعتاد للتبرك .

وليس للرجل أن يتزوج إلا مرة واحدة وكذلك المرأة لا تتزوج إلا مرة واحدة حتى وان ترملت فلن تستطيع الزواج بشخص آخر . على أن الأمر الغريب أن لراجاه بنارس نفسه ثلاث زوجات ثم أن الشابات الأرامل يبحثن رغم المنع عن أزواج جدد وهـذا دليل على أن القيود الدينية تخف وطأتها تدريجا بمرور الزمن .

ثم توجهنا بعـد ذلك لرؤية صناعة الأقمشة المذهبة التي اشتهرت بها بنارس فأخذنا الخادم الى عشش صغيرة مصنوعة من الآجر تشبه عشش فلاحي مصر فدخلنا عشة إحدى الاسر الاسلامية واسمها أسرة عبدالغفور وله من الاولاد عشرة بين ذكور واناث وكلهم منهمكون في هذه الصناعـة البديعة بواسطة النول مما ذكرني بعمال الكسوة الشريفة في حي الخرنفش . فابتعت منهم قطعة ثمينة .

ومن هناك توجهنا لرؤية قصر مهاراجا بنارس فألفيته قصراً عاديا ليس فيه ما يستلفت النظر وكان يسكنه قاض انجليزي يسمى « ديفيز » . ولما نشبت الفتنة الهندية هاجم الثائرون القصر وحاولوا الفتك بديفيز هذا . ولكن كان يوجد بالقصر لحسن حظه درج ضيق لا يسمح لأكثر من شخص واحد أن

يتسلقه. فاستطاع بما عنده من السلاح والذخيرة أن يطيح رأس كل من حاول الصعود اليه .

وعدنا فى الساعة السادسة الى الفندق . وكان المدير بين آن وآخر يسألنا عن ابن المسيو جروبى وقرينته وقد أخبرنا أنه كان يعمل فى محله أثناء أيام الحرب .

٦ سبتمبر

تناولنا الشاى فى الساعة الخامسة لأننا كنا معتزمين الذهاب إلى ضفة نهر الجانج فى الفجر لرؤية الهندوس وقت العبادة .

وهنا لابد من كلمة صغيرة عن الفندق . فنظراً لأن مدينة بنارس تعتبر مقدسة فلا تستعمل فيها الكهرباء ولهذا لا يضاء الفندق إلا بزيت البترول ولا أثر فيه للمراوح الكهربائية بل هناك الخادم فهو الذى يشد حبلا يحرك به المروحة الهندية المألوفة . لهذا كانت إدارة الفندق تستأجر طول الليل أشخاصا لشد حبل المروحة لتلطيف جو الغرفة . ومن الغريب أن التى كانت تشد حبل مروحة حجرة مختار افندى امرأة هرم تناهز السبعين فلم يدر بخلدى أنها تستطيع القيام بهذه المهمة الى أن أكد لى مختار افندى فى الصباح أن هذه المرأة الطاعنة فى السن باتت طول الليل تشد حبل المروحة . وهو أمر يدعو إلى الدهشة ولكن المسألة على ما يظهر مسألة اعتياد .

ونعود إلى حديث زيارة نهر الجانج فأقول أننا عند وصولنا إلى ضفة النهر استأجرنا قاربا صغيرا لنتجول به حول ضفتيه . على أننا والحق يقال لم نشهد شيئا من مظاهر العبادة مما هولت فيه الكتب بل كان ما رأيناه أقل بمراحل مما سمعنا عنه.

وإليك خلاصة ماشاهدناه. فلقد شاهدنا كثيرين من الرجال يغتسلون فى النهر حتى إذا فرغوا خرجوا من الماء وقعدوا القرفصاء فى انتظار الحلاق لترجيل شعورهم . ثم رأينا رهبانا يرسمون لهؤلاء المغتسلين شارات مقدسة خاصة على وجوههم ويضعون فى الجباه بين أعينهم نقطا خضراء أو صفراء بحسب درجاتهم المقدسة . وقد قيل لى أن لهذه الدرجات معان وهى شبيهة بما يحمله عندنا أرباب الطرق من الاشارات كالأحمدية والشاذلية والبيومية الخ وبين هذه العلامات علامة تحظر على صاحبها أكل لحم الحيوان والاكتفاء بالنباتات . وقد أخبرنا خادمنا أن من يريد التطهر من ذنوبه عليه أن يغتسل بمياه الجانج ثم يتلو أوراده وهو متجه ناحية الشمس !

وقد لاحظت أن الكثيرين من الواقفين على ضفة النهر كادوا يقفزون الى داخل قاربنا لولا ما أبديناه من التشاد معهم لمنعهم من اللحاق بنا وهو ما كانت تخشى عواقبه . ولعلهم قصدوا بغتابعتنا الحصول على البقشيش .

ولئن كان الموت غرقا فى نهر الجانج يعتبر فى نظر الهندوس أمنية الأمانى إذ يذهب الغريق بعدها الى دار النعيم فلقد أشفقنا نحن المسلمين على حياتنا من الغرق وحمدنا الله على تخلصنا من مضايقة هؤلاء الناس .

ثم اجتزنا معبدا صغيرا يقال فى صدده أن المصابين بمرض الجدرى يغطسون فى مياهه للشفاء من المرض . ثم اذا بنا بضجة تثيرها أسرة أحد الرهبان بقرب أحد المعابد فقد كانوا يدقون الدفوف والساجات ويعزفون على المزمار فأخبرنا الخادم أن ضجتهم هذه هى لتسلية الآله الموجود فى المعبد!

ومررنا بعد ذلك بمنزل به كثيرات من النساء فى ضجيج وابتهال للآلهة فقيل لنا أن هذا الابتهال هو للتخفيف عن امرأة توفى عنها بعلها .

ولما كان الوقت وقت الفيضان وليس فى الاستطاعة إحراق جثث الموتى على ضفة النهر فقد كانوا يحرقونها فوق رصيف على مقربة منه. وعادة الهندوس فى إحراق موتاهم أن يحرقوها على الخشب. وكانوا فيما مضى من الزمن يحرقون المرأة مع زوجها المتوفى إلى أن أبطلت الحكومة البريطانية تلك العادة منذ عهد بعيد.

ومن المحتمل أن تكون هذه الفكرة قد نبتت فى أدمغة الهنود بسبب اتساع البلاد واكتظاظها بالسكان وهى مسألة ينشأ عنها القحط فيؤدى إلى هلاك الكثيرين. فلعل فكرة إحراق النساء بعد وفاة أزواجهن هى للتخلص من كثرة السكان. ولكن مثل هذه الوحشية لم تعد تتمشى مع تقاليد العصر الحاضر.

والمشهور عن اليهود أنهم يكسرون للميت أحد عظامه أما الهندوس فانهم اذا ماألقوا الجثة فى النار لاحراقها تقدم منها أقرب الناس ارتباطا بأسرة الميت فحطم رأس الجثة ببلطة وذلك اعتقادا منهم بأن تحطيم الجمجمة يساعد على تخليص الروح من الجسد والتعجيل بها إلى دار النعيم.

ومررنا بعد ذلك بعدة منازل صغيرة يملكها المهاراجاه وهى أشبه بالتكايا عند المسلمين يأوى اليها رجالهم عند تقدم السن للسكنى إلى أن تحين منيتهم.

وقد اجهدت نفسى باحثا عن دراويش الهندوهم كدراويش مصر المولعين باعمال الشعوذة كأكل الثعابين وابتلاع الابر والمسامير الخ ولكن ذهب بحثى سدا. وقد قيل لى أن هؤلاء الدراويش أخذ عددهم يتضاءل حتى انك لتراهم

فى الكتب الافرنجية الموضوعة عن الهند القديمة أكثر مما تراه فى الهند نفسها فى الوقت الحاضر .

وعند الساعة السابعة صباحا وصل بنا القارب الى حيث كانت السيارة فى انتظارنا. ورأينا فى الاقتراب من شاطىء النهر شيئا من الصعوبة . ولكن سرعان مارأينا ستة أشخاص فى انتظار خدمة يؤدونها يحصلون من ورائها على البقشيش . فبادروا الى بذل جهودهم وسحبوا القارب الى الشاطىء وبذا نالوا بغيتهم .

وفى عودتنا الى بنارس ذهبنا بطريق الكوبرى الذى اجتزناه بالقطار وكان مفتوحا للمارة وقتئذ اذلم يكن موعد مرور القطارات.

وفى الساعة التاسعة قفلنا راجعين بالقطار الى مجول سراى . فوصلناها فى ٢٠ دقيقة وهناك لبثنا فى انتظار قطار الساعة العاشرة الذى يذهب الى دلهى .

من بنارس الى دلهى

فلما أقبل القطار كان فى شدة الازدحام ولكنا والحمد لله وجدنا الديوان المخصص لنا محجوزا.

وقد شاهدنا فى المحطات هنا كثيرا من التجار يعرضون سلعهم المختلفة على المسافرين من مأكولات ومصنوعات كما وجدنا أناسا يغطون فى نومهم على أرصفة المحطات فذكرنى هذا بمن ينامون فى المساجد عندنا فى مصر .

وقضينا النهار بأكمله فى القطار . أما الطعام فى مركبة الأكل فكان

فى منتهى الرداءة هذا الى انه كان باردا أيضا ثم ان الخدمة كانت مجردة من العناية .

والبلاد هنا مسطحة وآهلة بالسكان ويرى المسافر الكثير من زراعة الاذرة على طول الطريق كما انه يرى على مد البصر ان الفلاح الهندى تعوزه القوة بعكس الفلاح المصرى وهذا هو السر فى أن الزراعة فى الهند لاتخدم الخدمة الكافية .

ولما قاربنا «الله آباد» و«كاونبور» لاحظنا كثرة أشجار المانجو فى الحقول. وهذه الاشجار هى من الضخامة والارتفاع بحيث تزيد عن أكبر شجرة جميز فى مصر .

ثم اجتاز بنا القطار بلادا ملآى بالاحراج الصغيرة ولكن الاشجار هنا ليست بالكثرة التى شاهدناها فى جاوا وملاكا .

وفى الساعة الرابعة اجتزنا بلادا تتخللها المستنقعات الكثيرة وهى متروكة للمراعى وبها كثير من الطيور الجارحة التى تهوى الاقامة فى المستنقعات .

ثم رأينا نوعا من أبو قردان له رأس حمراء وعين بيضاء وله رقبة رصاصية اللون وجسمه أبيض . وهو من الطيور التى اشتهرت بها بلاد الهند ويبلغ ارتفاعه عن سطح الارض مترا ونصف متر . كما اننا رأينا أحيانا كثيراً من الطواويس وهى فى الهند من الطيور البرية . وقبل أن ينتصف الليل بنصف ساعة وصلنا الى دلهى . فلما وصلنا الحجر المعدة لنا فى فندقها كان الليل قد انتصف .

فى دلهى

عند ماوصل القطار الى محطة دلهى وجدنا فى انتظارنا بها مندوب كوك وهو شاب انجليزى على جانب عظيم من الأدب ودماثة الاخلاق . وهذا يدل على أن تلغراف الاحتجاج الذى بعثت به من قبل الى مركز ادارة الشركة كان له الاثر المطلوب لأنى لاحظت أن كل ما اتخذ من الاجراءات فى الفندق كان داعياً للارتياح مما يدل على العناية والاهتمام .

٧ سبتمبر

وفى صبيحة اليوم التالى كان الجو معتدلا . ومع اننا نمنا نوماً هادئاً فقد كنا ما نزال نشعر بتعب السفر فى السكة الحديدية لهذا رأيت أن أتحاشى زيارة أى مكان يقتضى السير على الأقدام .

فطلبت من الدليل الطاعن فى السن الذى أرسله إلينا كوك أن يجيئنا بسيارة للتجول بها فى أنحاء المدينة وزيارة مايستحق الزيارة والمشاهدة .

فمررنا بحديقة شاسعة تسمى «حديقة الملكة» بعد أن خرجنا من المدينة من بوابة كشمير . إذ ليس يخفى أن دلهى القديمة كانت محصنة تحيط بها عدة بوابات كبوابة النصر وبوابة الفتوح وباب رسيلة فى مصر . وانما سميت بوابة كشمير لأن الطريق الممتدة منها تؤدى الى بلاد كشمير .

ثم ذهبنا الى حديقة أخرى تسمى «حديقة ليكلسون» وسرنا فى الطريق المؤدية الى «اليبور» للوصول الى «حديقة كودزيا»

وعلى مقربة منها زرنا مقبرة الشاه علام

وعند العودة مررنا بحديقة « روشانارا » . ويدل تعدد هذه الحدائق الغناء على العناية بالمدينة والاهتمام بتنسيقها وتجميلها .

وعرجنا بعد ذلك على السكة الجديدة المسماة « شارع الملك » وقد أنشىء هذا الشارع بمناسبة تتويج الملك جورج فى دلهى .

وقد صارت دلهى الآن — كما كانت فى الماضى — عاصمة الهند . وعندى أن هذا هو العدل بعينه. فالبلدة جميلة وعظيمة وهى طيبة المناخ والمياه. وكانت فى الماضى قاعدة الحكم الاسلامى فى الهند فى مختلف العهود أى فى عهد الافغان والمجول والفرس . ونظراً لموقعها الجغرافى فى وسط البلاد الهندية كان من الطبيعى أن يقرر الانجليز أخيراً أن تكون العاصمة .

ثم بدأوا فى تأسيس بلدة جديدة ملاصقة لدلهى وهى تضاء بالكهربائية على الطراز الأوربى . وهنا شرع المهاراجات ينشئون القصور الفخمة للنزول فيها عند مجيئهم لدلهى فى المناسبات الرسمية .

وستنشىء الحكومة الهندية لنفسها قريباً قصر كبيرا على الطراز الهندى من الحجر الاحمر الموجود بالقرب من دلهى .

وبعد ذلك قفلنا راجعين الى الفندق .

وفى الساعة الخامسة بعد الظهر اجتزنا بوابة أدجير ومررنا أمام مسجد دلهى الكبير وهو والحق يقال من أفخم مساجد الهند وأروعها .

ضريح صافدار جانج

ثم مررنا بعد ذلك بضريح صافدار جانج وزير وزراء أحمد شاه الفارسى ونظراً لعناية حكومة الهند بهذه الاماكن لاحظنا أنها فى حالة جيدة جداً .

فلما دخلنا الضريح المذكور الذى تحيط به حديقة غناء بهرت أنظارنا وعادت بنا الذاكرة الى العصور الذهبية التى وجد فيها أمثال أولئك الملوك والعظماء وحلق بنا الخيال فى جو ماضيهم المجيد وما كان لهم فيه من عظمة وسلطان .

منار قطب وعامود راجا داهافا — دلهي

والضريح صافدارجانج روعة خاصة . وقد بدىء بانشائه فى السنة التى التحق فيها بالرفيق الأعلى أى فى سنة ١٧٥٣ ميلادية . وهو يبعد عن دلهى بنحو خمسة أميال. ويشرف هذا الضريح الهائل على ساحة كبيرة من الأرض وقد زينت بالخضرة وأحواض الزهور والنافورات . هذا عدا قناة لنقل المياه . ثم هناك أسوار عالية تظهر منها عند الأركان أبراج مثمنة الشكل تلفت النظر من أجل ستائرها المصنوعة من البلاط الاحمر المحفور حفرا هو غاية الابداع والاتقان .

والمدخل يتركب من بوابة رائعة توجد إلى يمينها قباب المسجد المصنوع من البلاط الاحمر . وقد حليت واجهته بثلاثة أبواب مرتفعة مقوسة . أما الضريح نفسه فهو من الرخام الابيض الاملس وهو محفور حفرا يعتبر آية فى الابداع وهو فى حاله جيدة . وقد نقشت عليه هذه العبارة :

« مهما علت مكانة الانسان وسمت منزلته فى أعين الناس فانه صغير الشأن ذليل أمام الله » .

أما الشرفة التى عليها « المقام » فترتفع عن سطح الحديقة بنحو عشرة أقدام وتبلغ مساحتها ١١٠ قدما مربعاً وينزل منها درج إلى القبو الذى يضم لحد صافدارجانج .

***

والطريق من هنا الى « منار قطب » جميلة جدا وعلى جانبها عدة قبور صغيرة تحتوى بقايا من اشترك من عظماء الضباط فيما نشب من الحروب

فى تلك الجهات ، ولهذه القبور من الحرمة فى نظر مسلمى الهند ما لقبور الخلفاء فى نظر المصريين . أما ضواحى دلهى فهى والحق يقال منسقة أبدع تنسيق .

منار قطب

ثم أقبلنا على منار قطب وهو أحد عجائب الهند السبع ويبعد عن دلهى بنحو احد عشر ميلا وهو بلا ريب من أبدع وأروع التماثيل الاسلامية فى الهند وبعد آية من آيات الفن . وهو عبارة عن مأذنة مسجد مصنوعة بشكل غريب كمدخنة المصانع وهى من الحجر وقد نقشت على جدرانها الآيات القرآنية .

والذى بنى هذه المأذنة قطب الدين الباق أحد قواد السلطان محمد الغورى . فلقد غزا هذا السلطان الهند واستولى على دلهى فى سنة ١١٩٣ ميلادية ثم انطلق يواصل فتوحاته وترك خلفه قطب الدين فى العاصمة دلهى وأنعم عليه بلقب نائب الملك . وسرعان ما أصبح قطب الدين حاكم الهند الاسلامية وظلت دلهى عاصمة ملكه . على أن المدينة القديمة التى شهدت فتوحات هذا القائد قد أصبحت طللا دارسا وآثارا بالية كما تلاشى المسجد الذى أنشأه وان كانت مأذنة قطب لاتزال على حدتها .

وقد بدأ القائد قطب الدين انشاء منارته المشهورة فى سنة ١٢٠٠ ميلادية ولكن أيامه لم تمتد حتى يفرغ من بنائها كلا بل لحق بربه وتولى صهره شمس الدين آلطماش اتمامها وقد خلفه فى الملك وعاش بين سنتى ١٢١٠ و ١٢٣٦ ؛ وبعد مائة عام أخرى أعيد بناء الطابقين الرابع والخامس بواسطة فيروز شاه طوغلق (١٣٥١ — ١٣٨٨) . ونظراً لصلابة البلاط

الاحمر الذى بنيت به المنارة وقوة احتمالها لفعل العناصر الجوية فان الانسان ليخيل اليه انها حديثة البناء . ثم ان جمال شكل البناء وحسن رسمه العجيب كل ذلك يجعل المنارة بمثابة تاج لصناعة البناء فى دلهى .

ويبلغ ارتفاع منار قطب فى الوقت الحاضر ٢٣٨ قدما وبوصة واحدة . وبينما تجد قطره يبلغ عند القاعدة ٤٧ قدما وثلاث بوصات اذا به لايزيد عند قمته عن تسعة أقدام . والمنارة مقسمة الى خمس طبقات مدرجة وبكل طبقة شرفة مركبة من عدة نتوء محفورة حفراً بديعاً على الطراز المألوف فى عهد الباتانيين الأول .

ويبلغ ارتفاع الطبقة الأولى ٩٥ قدما تقريبا . ولا ريب فى أن المؤذن كان يطوف فى شرفة هذه الطبقة لدعوة المصلين إلى الصلاة فى المسجد الجميل الذى أقيمت فوقه المأذنة . وارتفاع الطبقة الثانية ٥١ قدما تقريبا والثالثة ٤٠½ قدما والرابعة ٢٥¾ قدما والخامسة ٢٢¾ قدما .

ويوجد داخل المنار سلم حلزونى يمتد إلى القمة ويحتوى على ٣٠٠ درجة تقريبا . وفى أشد الأيام حرارة يشعر الانسان فى قمة المنارة بالهواء الشديد البارد . وكانت المنارة تنتهى فى الزمن الماضى بقبة صغيرة ولكنها تحطمت فى زلزال سنة ١٨٠٣ ووضع مكانها سياج من الحديد العادى .

منار علاء الدين

وإلى شمال منار قطب وتبعد عنه بنحو ٤٢٥ قدما توجد منارة علاء الدين . وقد أراد صاحبها أن تنافس منارته منار قطب فبدأها فى سنة ١٣١١ ميلادية . وكانت النية منصرفة الى جعل المنارة الجديدة ضعف منار قطب فى الارتفاع

والسمك . وقد وصل بها فعلا إلى ارتفاع ٨٧ قدما ثم أدركه منيته فى سنة ١٣١٦ فلم يعن أحد باتمامها بعد وفاته .

مسجد قطب الدين

ولا بد أن نذكر هنا أن المسجد الذى أشرنا إلى مأذنته المسماة منار قطب كان فى الأصل معبدا ثم حوله قطب الدين إلى مسجد . واذا كانت المنارة ما تزال على جدتها حتى ليخيل إلى الانسان كما قدمنا انها حديثة البناء فان المسجد قد أصبح طللا دارسا شبيها بالآثار . ولقد وصف ابن بطوطة الرحالة المراكشى المعروف مسجد قطب الدين هـذا وكان قد رآه بعد إنشائه بمائة عام فقال « إنه مقطوع النظير فى جماله واتساعه » .

ولا تزال للمسجد المهدم حرمة إلى اليوم فى قلوب الناس باعتباره أول مكان للعبادة الاسلامية فى بلاد الهند . وقد بدأ قطب الدين بانشائه فى ١١٩٣ ميلادية على أثر استيلاء المسلمين على دلهى .

و يمتد حائط المسجد من الناحية الغربية إلى نحو ٣٨٥ قدما من الشمال الى الجنوب وتكتنفه خمسة أقواس يبلغ ارتفاع أكبرها ٥٣ قدما واتساعها ٢٢ قدما . وقد يخيل الى الانسان من رسم هذه الاقواس أنها من عمل الفاتحين من الأجانب ولـكن ما يغطيها من أعمال الحفر الدقيق المعدوم النظير يدل بصفة قاطعة على انها من عمل الهنود .

ويبلغ طول الصالة ١٣٥ قدما وبها عدة أعمدة . والمظنون أن هذه الصالة كانت ليوانا اومزارا فى الماضى وهى من أبدع وأروع ما أخرجته يد الصناعة . والسقف محمول على خمسة صفوف من الأعمدة المحفورة حفرا فنيا بديعا .

وقد كتب على مدخل المسجد التاريخ سنة ١١٩٣ ميلادية واسم قطب الدين كبير قواد جيش السلطان محمد الغورى الذى انتزع دلهى فى تلك السنة من أيدى « بريتفى راى » آخر امبراطرة الهنود .

وقد أدخلت عدة تغييرات وزيادات فى المسجد من آن لآخر . ففى عهد التمش (١٢١٠ — ١٢٣٦) زيدت مساحه السياج المقدس بحيث يحتوى على منار قطب . وقد بلغ مجموع طول واجهة البناء الأصلى والمبانى الأضافية ٣٨٤ قدما كما بلغ عرضها ٢٠٠ قدما . وبلغ عدد اعمدة المسجد ٦٠٠ ولا يمكن أن يوجد مايفوق ماعليها من أعمال الحفر لا من حيث الجمال ولا من حيث اختلاف الرسم . وقد أدخل علاء الدين خلجى على المسجد معالم جديدة بديعة فى سنة ١٣٠٠ ميلادية .

عامود راجا داهافا

هذا العامود يعتبر بحق من أعجب آثار الهند وهو قائم فى فناء مسجد قطب الدين ولطالما اثار وجوده دهشة الناس وبعث فيهم حب استطلاع تاريخه . وأكثر من هذا فان العامود أصبحت تتصل به انواع شتى من الخرافات . وقد اختلفت الاراء ايما اختلاف فى تاريخه ووقت انشائه . ولكن المفهوم أنه أنشىء فى القرن الميلادى الثالث . وقد كان الأولون يزعمون أن سلطان الهنود قائم فى دلهى مابقى عامود راجا داهافا قائما ! وقد رددت هذه الخرافة أمام قطب الدين . ومما يدلك على مبلغ اهتمامه بالأقوال التى من هذا القبيل انه أفسح لهذا العامود مكانا فى مسجده . ولا يزال العامود قائما إلى اليوم .

وهو من الصلب وارتفاعه ٢٣ قدما وثمانى بوصات وينتهى فى قمته بتاج مصنوع من الحواشى « المشطوفة » . وهناك رأى بأن العامود صنع من الحديد اللين ومركب من عدة اسطوانات أفقية صهرت ثم عشقت أجزاؤها بعضها فى داخل بعض بواسطة المطرقة .

وكان الاعتقاد السائد أن العامود بعيد الغور فى الأرض بحيث لا يمكن لمخلوق أن يصل إلى منتهى عمقه . ولكن سرعان ما تبين فساد هذا الزعم إذ دل البحث على أنه مثبت تحت الأرض الى عمق ثلاثة أقدام فقط حيث ينتهى بأكرة تستند إلى ثمانية قضبان قوية مثبتة فى كتل الأحجار . وعلى طول العامود كتابة واضحة باللغة السانسكريت معناها « أن العامود هو سلاح شهرة راجادهافا وقد أحرز بسلاحه سلطان الارض لأمد مديد »

ولا يقتصر وجه الدهشة على امكان صنع عامود من الصلب منذ قرون عديدة بل أن مما يرفع الأمر الى درجة السحر أن هذا العامود مع تعرضه للتقلبات الجوية وللأعاصير والعواصف مدة سبعة عشر قرن كاملة فليست تعلوه ذرة واحدة من الصدأ بل لا يزال لامعا ناعم الملمس كأنه صنع اليوم !! ثم أن ما عليه من الكتابة من الوضوح والجلاء كما كانت يوم اقامة العامود .

أقدم ضريح فى الهند

يرجع إلى آلطماش صهر قطب الدين الفضل فى توسيع المسجد وإتمام المأذنة المعروفة بمنار قطب . وقد توفى سنة ١٢٣٦ ودفن فى ركن المسجد من الناحية الشمالية الغربية . وضريحه هو أقدم ضريح فى الهند . وكان فى أول إنشائه منقوشا بلون زاه جدا مزخرفا بالذهب وهذا عدا اعمال الحفر التى

صمدت وحدها لمقاومة فعل الزمن .

ويختلف هذا الضريح عما عداه من الأضرحة بكونه مكشوفا من أعلاه ويعزون ذلك الى رغبة آلطماش فى « أن لا يستظل بسقف آخر عدا السماء».

والمبانى والمساجد والمدافن مزينة كلها بالآيات القرآنية المحفورة فى الحجر بالخطين الكوفى والثلث . والكتابة بهذين الخطين من أبدع مايتصوره الانسان بل ليس لهذا الأبداع نظير فى مصر. لأن العرب ـ كما هو مشهور ـ لم يكونوا يحفلون بالخط بعكس الفرس الذى نشأ عن ولعهم بالرسم شغفهم بجودة الخط .

ثم زرنا مكانا يسمى «البيت الخاص» وهو لأحد السلاطين وبه ضريح ومدرسة . وكانت توجد أمام المدرسة فى الزمن الغابر نافورة قطرها كيلو متر واحد تقريباً ؛ ولا محل للدهشة لسماع هذا النبأ فان بلادا كالهند والصين تعج بمئات الملايين من المخلوقات حيث لا يتناول العامل الا أجراً زهيدا ليس عجيبا أن يكون كل ما فيها هائل وعظيم . والمنظر من بعيد آية فى الابداع .

لورد كيرزون والاثار الاسلامية

اذا كنا معشر المصريين لا نميل كثيرا إلى لورد كيرزون بسبب سياسته نحو مصر أيام ان كان وزيراً للخارجية إلا أن ما شاهدته من آثار خدماته الجليلة فى الهند قد جعله فى نظرى من أكبر المصلحين وأعظم محبى الخير شأناً. لأن من رأيى أن من يقدر الفن ويكبر ما آتاه الأسلاف السابقون من جلائل الأعمال فهو رجل عظيم بلا جدال .

فان هذا اللورد أمر بأن يخرج من قصور الهند وقلاعها القديمة كل

من كانوا فيها من رجال الجيش الانجليزى وقد كانوا اتخذوا تلك القصور دورا لهم . والأرجح أن يكونوا فى مدة اقامتهم فى تلك القصور قد عبثوا بما فيها وخربوا ماتحتويه من آيات الفن هذا عدا ما أخذوه لأنفسهم . ثم أن المساجد والأضرحة كانت كالأطلال الدارسة تحيط بها الاشجار بشكل بعيد عن النظام . فأمر اللورد من فوره باصلاح هذه المساجد وترميمها وخطط لكل منها حديقة غناء منسقة أبدع تنسيق على الطراز الهندى وجعل هذه المبانى الأثرية كافة تابعة لحكومة الهند وربط لها ميزانية خاصة وعين لها حراسا من المحاربين الهنود القدماء الطاعنين فى السن . فاذا زار الانسان هذه الآثار ورأى هؤلاء الحراس ولحاهم البيضاء التى تكاد تبلغ وسط أجسامهم تذكر الماضى حتى ليظنهم عاشوا فيه .

وكان طبيعيا ان لا يستطيع الانسان فى الماضى مشاهدة هذه البدائع الفنية. لأن وجود رجال الجيش فى القلاع والقصور كان من شأنه أن يحتم على راغب زيارتها الحصول على إذن خاص . ثم هو بعد ذلك الأذن لا يستطيع رؤية الحجر والصالات الفخمة التى كانت تستخدم «ميس للضباط». هذا إلى أن الأضرحة كانت كلها تستعمل لسكنى الأسر أو المشايخ . وبالجملة فقد كان من الصعوبة بمكان أن يشهد الانسان شيئا من هذه التحف الفنية النادرة . أما الآن فقد تغيرت الأحوال وبحسب الانسان أن يصطحب دليله فيستطيع مشاهدة كل هذه الآيات الفنية فى وقت قصير .

وبالجملة فان لورد كيرزون قد أحيا هذه التحف بعد موتها ورد إليها نضرتها بعد أن عبثت بها يد الحدثان .

ثم قصدنا بعد ذلك مرة اخرى عاصمة دلهى الجديدة لمشاهدة القصر الفخم الذى يجرى إعداده للحكومة . وليس غريبا أن يكون هذا القصر ضخما فسيح الأرجاء الى أكبر حد. بل هو أمر طبيعى لأنه سوف يكون مقر أعمال حكومة تشرف على مصائر بلاد يضيف عدد سكانها عن ٣٥٠ مليون نسمة ولسوف تبلغ نفقاته الثمانية الملايين جنيها وهو من الحجر الأحمر الذى تبنى به الآثار القديمة . ولكن. . . نعم ولكن القصر برغم كل هذا يعتبر بناؤه خاليا من الذوق وهو لا يقاس من هذه الناحية بالقصر الذى شيدته لنفسها حكومة بريتوريا عاصمة الترنسفال .

ولقد رأينا فى طريقنا من اوستراليا أن الحكومة الاوسترالية منهمكة هي الأخرى فى بناء قصر فخم مما يدل على أن الحكومات تتسابق بعضها مع بعض فى بناء القصور الضخمة .

أما قصر دلهى فداخله على النمط الأوربى وأما الخارج فهو على الطراز الهندى . وهو قائم على هضبة تحف بها حدائق شاسعة غناء . وليس ريب فى أن دلهى الجديدة سوف تصبح بعد خمس سنوات أو عشرة من أجمل مدن العالم وأبهجها متى كثرت فيها المبانى وازداد عدد القصور الفخمة . ومهما يكن جمال المدينة فى المستقبل فان هذا لا ينفى أن عددا قليلا من المهاراجات قد باعوا مع الأسف أراض شاسعة فشيدوا عليها عمارات يشهد بناؤها بالافتقار الى الذوق. وليس شك فى ان وجودها فى وسط المدينة يشوه جمالها. وما أشبه ما يعمله أولئك المهاراجات بمن يلبس لباسا فخما ثمينا ولكن تشوه جماله لطخة من المداد أو يكون بوسطه ثقب من أثر الحريق. أو كمن يسير بين العمارات الضخمة

التى تزين شارع سليمان باشا فى القاهرة ثم إذا به يشهد فجأة بيتا حقيرا لأحد أبناء الطبقة الدنيا ممن وقفت به رقة الحال دون إتمام بياض واجهة المنزل فتكون النتيجة تشويه جمال الشارع بأسره .

فقلت للدليل الهندى المرافق لنا « لقد خدم الحظ دلهى بلا مراء . فان كلكتا ظلت عاصمة الهند الانجليزية مايقرب من المائتى سنة ومع ذلك لا تجد فيها مايلفت النظر سوى تذكار فيكتوريا. بعكس دلهى التى لم يكد يمر عليها خمسة أعوام حتى رأينا ما فيها من أعمال التجميل مما يفوق بمراحل ما عمل فى ٢٠٠ سنة فى كلكتا.

وبهذه المناسبه ألفت نظر القراء الى إحساسات الهنود بصفة عامة . فعند ما كنا فى كلكتا وزرنا تذكار فيكتوريا وهو كما قلنا بناء ضخم من المرمر الأبيض التفت الىّ الدليل وقال: « يافندى! الانجليز أرادوا بناء قصر من المرمر ليقنعونا بأنهم أعظم من سلاطين المغول القدماء . فهم يريدون بقصرهم هذا منافسة تاج محل ! » ثم استرسل فقال: « إن تذكار فكتوريا لم يمض عليه بعد إلا عشرون سنة فقط بينما تاج محل هذا لايزال قائما حيث هو منذ ٥٠٠ عام كاملة ! ولسوف نرى هل ماشيده الانجليز يقوى على مغالبة الزمن خمسه قرون أم ينهار تحت تقلبات الأيام ويصبح فى عداد الأطلال الدارسة».

وهنا فى دلهى التفت الينا الدليل عندما استفسرنا منه عن شعور الأهالى نحو القصر الضخم الذى تشيده الحكومه ليكون مقراً لها فقال : « أنهم يشيدون هذا القصر ليصبح فى مستوى واحد مع القصر القائم فى دلهى منذ أمد بعيد. ولكن فاتهم أن القصر الأخير كان للمغول ثم تداوله من بعدهم

الأفغان والتركستانيون ثم الفرس ثم الانجليز وقد انقرضوا جميعا ما عدا الأخيرين . فليت شعرى هل حسب الانجليز أنهم مخلدون فى قصرهم الضخم الذى يشيدونه أم أخذوا على الدهر عهدا بأن لا يخلفهم فيه جيل آخر ؟ ».

ولئن كنت ذكرت هاتين الملحتين فلأبين ميل الهنود الى الفكاهة والمداعبة ثم هو فى الوقت نفسه يدل على أن حب الوطن مايزال يجرى فى عروقهم .

وأخيرا عدنا إلى الفندق عن طريق الأحياء الوطنية . وتصادف أن كان هذا اليوم أحد أيام عيد الهندوس . فرأينا الكثيرين من الرجال عائدين من الاستحمام فى النهر تصحبهم نساؤهم وجميعهم فى أفخر حللهم يحملون الزهور والمأكولات لتوزيع الهدايا فى المعبد . فلما استفسرت من الدليل عن سر اجتماع هؤلاء القوم أخبرنى أن هذا اليوم من أكبر أعيادهم إذ هو يوم مولد إلههم ولهذا فهو صائم كغيره من الهندوس . ويبدأ الصيام من الليل ويستمر طيلة اليوم التالى الى وقت الغروب وبزوغ القمر . وهنالك يفطرون . ومتى رأى الناس القمر راحوا يطبلون ويزمرون إبتهاجا بظهوره لأنه علامة الافطار .

قصر دلهى وقلعتها

٨ سبتمبر

فى يوم ٨ سبتمبر كان الجو معتدلا فغادرنا الفندق فى منتصف الساعة التاسعة صباحا لرؤية قصر دلهى وقلعتها . فوصلنا بابها وإذا بنا أمام قوة عسكرية بريطانية . فابتعنا تذكرة دخول من كشك صغير وصدر الاذن

بدخول السيارة متمهلة . ثم مررنا بباب آخر وقفت أمامه ثلة من الجنود الانجليز يبلغ عددهم الأربعين . ولما اجتزنا هذا الباب وقفت بنا السيارة فاذا بنا أمام القصر البديع الذى شيده شاه جهان .

وقصر المغول أو قلعتهم ـ كما أصبحت تسمى الآن ـ قائمة بين حدود المدينة التى كانت تسمى فى الماضى شاه جهان آباد ثم أصبحت تسمى الآن دلهى . والقصر محاط بسور عالية سميكة وهى على شكل مثمن غير متساوى الاضلاع ويبلغ طوله ميلا ونصف ميل وأطول أضلاعه ضلعاه الشرقى والغربى ثم هناك ستة أضلاع قصيرة فى الشمال والجنوب .

ويبلغ ارتفاع السور أمام النهر نحو ٦٠ قدما ثم يزداد ارتفاعه من ناحية الأرض حتى يبلغ ١١٠ قدما وحيث توجد وسيلة أخرى للوقاية وهى الخندق الهائل الذى يبلغ عرضه ٧٥ قدما وعمقه ٣٠ قدما . وقد حدثنا برنييه الطبيب الفرنسى الذائع الصيت الذى كان ملحقا ببلاط أورانجزب عن هذا الخندق فقال أنه مكتظ بما فيه من مختلف أنواع السمك . ثم راح يخبرنا عن كيفية ملاصقة الخندق للحدائق البديعة المنسقة أجمل تنسيق وكيف أن الأراضى الواقعة فى الشرق بين القصر وبين نهر جومنا كانت تستخدم كمكان للاستعراض وكساحة للمصارعات المشهورة بين الفيلة وهو نوع من التسلية كان للملوك المغول ولع خاص به .

والقلعة هى من صنع شاه جهان ذلك الملك الذى نقل قاعدة الامبراطورية من أجرا الى قرب دلهى هومايون . وهنا شرع شاه جهان فى بناء قلعته

على اليابسة الى جنوبى سليمجار مباشرة وهى القلعة التى بناها إسلام شاه فى سنة ١٥٤٦ لمنع زحف همايون .

وقد روى مانوكى رواية طريفة عن عملية البناء وصرح بأن شاه جهان جاء بما يلزمه من أدوات البناء من أطلال دلهى القديمة وطوغلاق اباد . ثم قال : « أن المدينة المذكورة تقع على ضفة نهر الجومنا فى سهل كبير ذى محيط هائل وهذا السهل كثير الشبه بهلال غير تام

« أما الحيطان فقد بنى نصفها من الطوب الأحمر والنصف الآخر من الحجر . وتوجد فى كل مائة خطوة زاوية لتقوية الحائط وزيادة متانتها ولكن لم تنصب مدافع على هذه الزوايا . وأهم البوابات اثنتان الأولى ويمتد الطريق منها الى اجرا ، والثانيه وتؤدى الى لاهور . وتوجد فى ركن المدينة الشمالى القلعة الملكية وهى تطل الى الشرق وتوجد أمام القلعة أى بينها وبين النهر ساحة واسعة لصراع الفيلة . فيجلس الملك فى النافذة لمشاهدة هذه المصارعة كما تراها النساء أيضا ولكن من خلف « الشيش ». ومن هذه النافذة يستطيع الملك أيضا أن يشرف على الاستعراضات التى تقام فى تلك الساحه ويشترك فيها اشراف البلاد ونبلاؤها وأعيانها . وزيادة فى الفخفخه والتظاهر يوجد تحت شرفات القصر ليلا ونهاراً فيل مجنون . وقد غرس شاه جهان حديقتين شاسعتين إحداهما فى شمال القصر والأخرى فى جنوبه . ولما كان منسوب المياه فى نهر الجومنا لا يرتفع إلى الحد الكافى لرى الحديقتين فقد حفر شاه جهان قناة عميقه لهذه الغاية تتلقى ماءها من أحد الانهار بالقرب من سيرهند وتبعد عن دلهى بنحو مائه فرسخ . وقد

كلفت هذه القناة شاه جهان أموالا طائلة ونصباً كبيراً » .

وقد سمى جهان مدينته الجديدة هذه « شاه جهان آباد » ولكن هذا الاسم مالبث أن اختفى مع الزمن وأصبحت المدينة تعرف باسم « دلهى » . وهكذا ترى أن هذه المدينة القديمة وان كان قد انتقل مكانها إلا أن اسمها مازال باقياً باعتبارها عاصمة هندوستان .

واستغرق بناء القلعة تسع سنوات كاملة وهى من الحجر الاحمر . وكانت مركبة من اثنى عشر صرحاً رئيسياً اختفى الكثير منها نهائياً وحلت محلها المروج الخضراء . وقد تم العمل فى هذه القلعة فى سنة ١٦٤٨ . ويقدر ما تكلفته بمائة لكخ من الروبيات (أى نحو عشرة ملايين روبية) .

ووصلت الى جهان الأنباء وهو فى كابول بأن هذا القصر الفخم أصبح معداً لاستقباله وكان وقتئذ فى سن السابعة والخمسين وقد مر على جلوسه على العرش عشرون عاما ، فما كاد يسمع بهذه الأنباء السارة حتى كر راجعاً الى دلهى حيث استقبل بما يحب من المهرجانات والحفاوة المقطوعة النظير .

وكان دخوله الى المدينة رسمياً عن طريق البوابة المواجهة للنهر . وقد ركب الى جانبه فى الهودج ابنه وولى عهده وأحب أبنائه اليه الأمير «داراشيكوه» لوسيم الطلعة. وجعل هذا الأمير ينثر قطع الذهب والفضة حول رأس أبيه الامبراطور. وفى الوقت نفسه كان القصر الملكى قد زين أبدع زينة وليس أبهى حالة يمكن أن ينسجها الفن أو يبتكرها الغنى . وعلقت على حيطان القصر الستائر الفاخره كما فرشت ردهاته بالسجاد البديع الذى

كان مزدانا بنجوم مزركشة بالذهب مما لا يوجد نظيره إلا أمام قصور كبار الملوك. وغطيت الحيطان والأعمدة والسقوف بالقطيفة والحرير المنقوش المزركش الوارد من الصين وبشيلان الحرير البديعة التي صنعت خصيصاً لهذه المناسبة في بلاد كشمير. وأعرب الامبراطور عن ارتياحه لما اتخذ من وسائل التنسيق هذه بما وزعه على كبار رجال الحاشية من النياشين والهدايا.

وفي خلال حكم شاه جهان وحكم ولده أورانجزب كانت القلعة تسمى القلعة المباركة كما كانت تعرف باسمها التاريخي « شاه جهان آباد ثم اصبحت تسمى في عهد بهادر شاه الثاني (١٨٣٧ — ١٨٥٧) آخر امبراطرة المغول « بالقلعة المعلاة » وهذا هو السر في أن لغة البلاط في ذلك العهد كانت تسمى « اللغة الأوردية المعلاة ».

وفي سنة ١٧١٩ أصيبت القلعة باضرار جسيمة بفعل الزلازل المتكررة التي استمرت من آن الى آخر مدة شهر. وفي سنة ١٧٣٩ استولى الفاتح الفارسي نادرشاه على عرش الطاؤوس المشهور ورحل به الى بلاده مع غيره من تحف سراي المغول. وفي عهد احمد شاه الدورانى (١٧٥٩) لحق بالقلعة تلف كبير بسبب هجمات ماراثا. وأخيراً أزيلت الصالات الصغرى والدهاليز وعدد من المباني والحدائق عقب انتهاء الفتنة الهندية في ١٨٥٧.

وكانت نتيجة هذا كله أنه لم يبق الآن إلا أثر طفيف من عظمة ذلك القصر المنيف الذي لم يكن له نظير في فخامته يوماً ما كما وصفه لنا برنييه وغيره.

البوابات

قلنا أن للقلعة بوابتين رئيسيتين : بوابة لاهور وهي تتجه إلى الغرب وبوابة دلهي وتتجه نحو الجنوب. وأمام البوابة الثانية فيلان فاخران وضعهما

لورد كيرزون ليحلا محل الفيلين الذين اتلفهما أورانجزب ذلك المتعصب المجرد من الرحمة . والى جانب هاتين البوابتين الرئيسيتين توجد ثلاث بوابات أخرى ثانوية .

شطا سوق أو شارع الشمسية

ويدخل الانسان القلعة عادة من البوابة الغربية وهى التى تطل على « سوق شاندنى » وهو أهم شوارع دلهى .

وبوابة لاهور الغربية هذه مصنوعة ككل مبانى شاه جهان فى القلعة من الحجر الأحمر . وهـذه البوابة مقوسة ويبلغ إرتفاعها ٤١ قدما واتساعها ٢٥ قدما وعلى جانبيها برجان على شكل نصف مثمن يعلوهما سلاملك على شكل مثمن . ولزيادة التحلية يوجد ستار من الاصص الصغير المزدوجة تحت سبع قباب مصغرة مصنوعة من المرمر وهذه تنتهى بمنارات دقيقة فى أعلاها مصابيح .

وقد خطر لاورانجزب (١٦٥٨ — ١٧٠٧) أن يزيد فى متانة المدخل الغربى باقامة برج للحراسـة يبلغ ارتفاع حيطانه ٤٠ قدما هذا عدا باب فى الجانب الشمالى يعلوه سور محصن وعدد من المنارات .

فلما وصل الى جهان وهو فى سجنه فى أجرا حديث هـذه الزيادات المزعمة كتب الى ابنه الذى اغتصب الملك منه قائلا : « لقد كان همى ان أجعل القلعة كالعروس ولـكنك وضعت حجابا أمام وجهها » .

أما المربع الواقع أمام بوابة لاهور فقد كان المخيم المخصص لاشراف الهنود عند ما يحين دورهم للقيام بالحراسة على ظهور الخيل لمدة ٢٤ ساعة

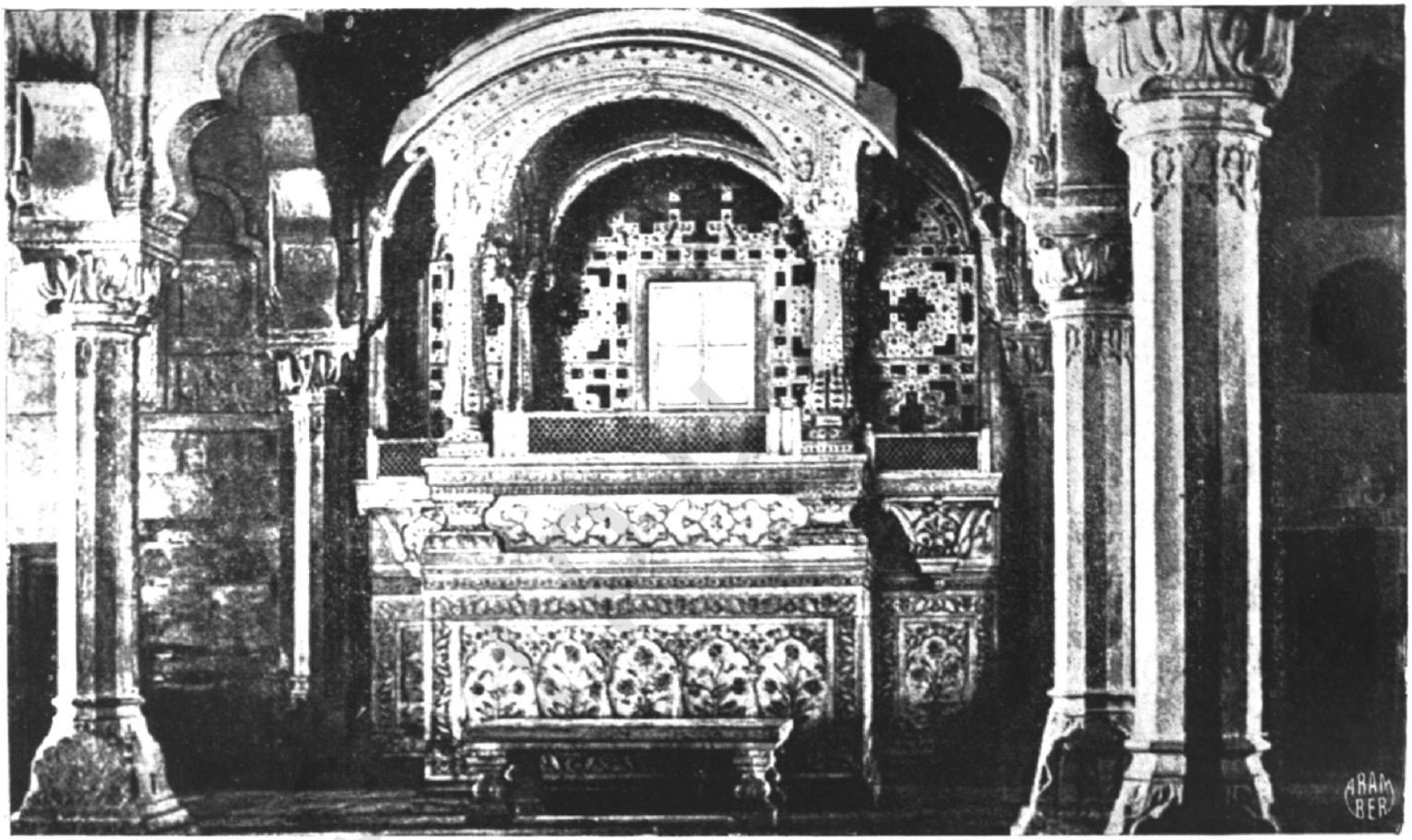

العرش فى الديوان العام — قلعة دلهى

ويؤدى الطريق الكبير الذى تحت البواكى إلى رواق له سقف . هـذا الرواق « هوشفا شوق » المشهور أوشارع الشمسية أو بتعبير آخر « السوق المسقف » وهو من الحجر الأحمر العادى ومحفور حفراً جميلا على شكل زهوروقد كتبت عليه آيات قرآنية . وتوجد فى الجانبين عدة أروقة مزدوجة بينما يوجد فى الوسط فناء مثمن الشكل غير مسقوف . والمقول أن جهان نفسه هو الذى وضع رسم هذا الشارع .

وكان هذا الشارع بادىء بدء يؤدى إلى حوش كبير فى وسطه صهريج وتحيط به أروقة مسقوفة من جميع الجوانب . وكان اتساع هذا الحوش نحو ٢٠٠ قدما مربعاً وهو معد لرئيس الحشم . والى يمين الحوش وشماله تمتد الأروقة وهى تدوى بالحياة فى السوق . وهنا كان يرى الأنسان جواهرجية البلاط والصياغ والرسامين والذين ينقشون على المينا وصناع السجاجيد ونساجى الحرير الراقى وتجار الشيلان الفاخرة للعمائم وصناع أحزمة البيجاما المزركشة بالزهور المصنوعة من الذهب أو الفضة وغيره من الصناعات الكمالية التى تناسب ذوق أبهج بلاط فى العالم .

نوبهات خانة

ولئن كان الحوش المذكور لم يعد له وجود فلا يزال يوجد الى جانبه وفى شرقيه بناء كبير الأهميه وهو « النقار أو النوبهات خانة » . وقد كان دار الطبل الملكية حيث كانت الموسيقى تعزف خمس مرات فى الاربع والعشرين ساعة .

أما فرقة الموسيقى فقد كانت مركبة من ثلاثة أنواع من أنواع الطبول وهى « الكوريك » و « النقارة » و « الدهلة » . اما الآلات الموسيقية الأخرى فكانت تشمل الصنج وما عداه من الأبواق الذهبية والفضية والنحاسية هذا الى بوق على شكل قرن البقر .

وكانت العادة أن الانسان متى وصل الى النوبهات خانة أن يترجل ويسير مشيا على الأقدام . وكانت هذه القاعدة تسرى على السفراء ومن اليهم من كبار الأعيان والموظفين ماعدا الأمبراطور وأمراء البيت المالك . ومن هنا يسير الأنسان مترجلا على الأقدام إلى أن يبلغ الديوان العام .

الديوان العام

وطوله ٥٠٠ قدم وعرضه ٣٠٠ قدم وهو محاط بالأروقة المسقوفة وحيطانه مموهة بالذهب . وكان رؤساء الحشم يقطنون الأروقة المحيطة بالديوان وكانت الحزازات والمنافسات تعمل عملها بينهم جميعا بمناسبة حفلات الدولة إذ يحاول كل منهم أن يتفوق على نظيره بنظافة رواقه .

وتوجد المطابخ الملكية فى الشمال وفى شرقها الديوان العام وهو من الحجر الاحمر وكان فى الماضى مزخرفا بحلى خشبية مموهة بطبقة ذهبية سميكة .

جهاروخا

ويشرف على وسط الصالة على ارتفاع بضعة أقدام من سطح البلاط دهليز من المرمر عرضه ٢٠ قدم ويحيط به « درابزين » من المرمر الجميل الحفر . أما داخل الدهليز فمركب من مربعات صغيرة من الرخام الاسود

لا نظير لها فى الهند . وهذه المربعات ملبسة بشكل جميل بالموزيك الملون وبحجارة تقرب من الحجارة الكريمة مثل اليشم والعقيق اليمانى وحجر اللازورد الخ . أما الطيور والزهور فمصنوعة صنعا آية فى الابداع والاتقان.

وكان هذا الدهليز يعرف باسم « نشيمان الظل الالهى » أى مكان الظل الالهى ، ولكن الناس كانوا يسمونه جهاروخا . وهنا كان يجلس عاهل المغول يوميا نحو ساعتين فترفع عرائض الرعية بواسطة كبير موظفى البلاط الذين يقفون فى أسفل الدهليز لهذه الغاية . وكان الناس يعلقون أكبر أهمية على حضور الامبراطور أمامهم فى هذا الوقت حتى أنه لم يكن يستطيع أن يتغيب خشية أن يؤدى تغيبه إلى حدوث ثورة .

والدخول الى كرسى الحكم من الخلف حيث كان يتصل بحجر الأمبراطور الخصوصية بواسطة درج وممرات عديدة . ولاريب أن هذا المنظر كان غاية فى الابداع فى تلك الأيام الخوالى . وقد صور لنا بيرنييه الصالة الكبرى فقال «ان حيطانها كانت مغطاة بالستائر الحريرية البنفسجية المشجرة وهى مشدودة بحبل من الحرير الاحمر القانى وله شراريب من الذهب وتحت الاقدام كانت السجاجيد الفارسية الفاخرة ذات طول وعرض خارق العادة بينما كانت هناك ستار مشجرة قائمة تحجب جهاروخا ـ أو كرسى الامبراطور ـ عن الانظار إلى أن يحين موعد قدومه . وكانت الموسيقى تعزف فى النوبهات خانة فتزيد ضجيج الجمهور المنتظر شدة . وفى أسفل كرسى الحكم كانت توجد منصة رخامية صغيرة ملبسة بما يشبه الاحجار الكريمة» . وفى الاحاديث أن هذه المنصة كانت خاصة بالوزير ومهاراجا جيبور ومهاراجا جودهبور .

والى خلف الجهة المرتفعة يوجد فراغ يحيط به درابزين من الفضة وطول الفراغ ٤٠ قدم وعرضه ٣٠ قدم ولا يسمح بدخوله إلا لا كابر أشراف الدولة . وفى الخارج يوجد صغار الأعيان . أما صغار الموظفين فمكانهم عند الحاجز الأحمر الواقع خارج الديوان العام مباشرة . وقد غص بقية الفناء الهائل وما يحيط به من الأروقة بالنظارة وأرباب الدعاوى وأصحاب العرائض وغيرهم ممن لهم حاجة عند الامبراطور لأن عاهل المغول قضى بأن لا يكون هناك حجاب بينه وبين أدنى شخص من رعاياه .

وعند إعطاء اشارة معينة تخشع الأصوات وتسكن الحركة ويقف الناس من الأمير إلى أحقر حقير وقفة الخشوع منكسى الرؤوس وأعينهم فى الارض وأيديهم مربوطة على صدورهم . وقد ألغى شاه جهان عادة تقبيل الارض عند قدوم الامبراطور . وهنا يشتد عزف الموسيقى ثم تنفرج الستار عن العرش الذى يجلس فوقه ذلك الامبراطور الكبير صاحب الشخصية المتلألئة التى تذهل الاعين وتبعث الخوف والرهبة فى النفوس . فان نظرة عابسة منه معناها الموت العاجل . فى عرش الطاؤوس يستوى عاهل المغول وهو عرش كالكرسى الكبير أو الديوان وهو من الذهب الخالص . هذا بينما الطيور المحلى بها العرش تبهر الأبصار بما ركب فيها من أحجار الماس واللؤلؤ والياقوت الازرق والاحمر والزبرجد .

وقد وصف بيرنييه ملابس الامبراطور فقال « انها جلباب من الأطلس الأبيض مزركش بنقوش بارزة من الزهور الحريرية الملونة وإطارها موشى بالذهب . أما شال العمامة فمزركش بالذهب وقد ربط من الامام بطائر

مصنوع من الجواهر على شكل البلشون (أى مالك الحزين) وملبس بأحجار الماس من الحجم الكبير الغالى الثمن . وفى مخلب الطائر ماسة صفراء هائلة الحجم لا تقدر بثمن وهى تضىء كالشمس الصغيرة . وتتدلى من رقبة الامبراطور قلادة لؤلؤية تصل إلى الوسط . والى جانب الامبراطور يقف أمراء البيت المالك وكل منهم بلباسه الفاخر المناسب المقام ووقف وراءهم بعض الخدم فى لباس مناسب يحملون مراوح من ريش الطاؤوس والضفائر لتلطيف حرارة الجو من جهة ولطرد الحشرات من جهة أخرى» .

ومن ثم يبدأ عمل اليوم. فكل من كانت له شكاية مهما صغر شأنه ومهما كانت شكواه تافهة عليه أن يرفع يده ملوحا بعريضة فيلبيه الامبراطور ولا يكاد ينظره حتى يطلب اليه التقدم إلى الامام وإذ ذاك يعالج شكواه .

فاذا ما أوشكت الإجراءات أن تصير مملة أو إذا ما لحق الأمبراطور الاعياء من إقامة العدل بين الناس جىء بالجياد الملكية ومر بها الخدم أمام جهاروخا لاستعراضها ويأتى بعد الجياد دور الفيلة وقد نقش كل منها باللون الأسود الزاهى ويمتد خطان قرمزيان من جانبى الجبهة إلى الخرطوم حيث يرسمان رقم (٧) ثم ان الفيلة كانت تغطى أجسامها ملابس فاخرة وفى عنق كل منها سلسلة فضية هائلة تمتد إلى الظهر ويتدلى منها فى كلا الجانبين جرس فضى يرن رنينا عاليا عند كل خطوة . ويتدلى من آذان الأفيال الملكية أكياس من الجلد الأبيض وهى من أذناب ثيران بلاد التيبيت وتعتبر أثمانها باهظة .

الديوان الخاص

ولا توجد الآن أمام الزائر إلا بقع خضراء مكشوفة يكسوها العشب وتفصل الديوان العام عن تلك الصالة الكبرى التى كانت يوما من الأيام تحت حراسة شديدة وهى صالة المجلس الخاص . ويرتفع هذا المجلس المصنوع من المرمر الجميل على افريز وتحمل سقفه المسطح بواكى وأعمدة ملبسة بزهور الموزيك على ألوان مختلفة من حجر الحية الاخضر الى العقيق الكثير الألوان إلى الحجر السماق الأحمر والبنفسجى ثم حجر اللازورد الأزرق وقد كتبت بأحرف من ذهب على الطنف من كلا الجانبين هذه العبارة المشهورة « إذا كانت توجد فى الدنيا جنة نعيم فهذه هى » .

وتجرى فى الصالة قناة صغيرة لتلطيف حرارة الجو فى الصيف ويفوح منها فى الوقت نفسه عبير ذكى الرائحة و تسمى نهر الجنة .

وقد زار الليفتنانت كولونيل فوريست هذا القصر فى سنة ١٨٢٠ فراح يصف بعض ما رآه فى المجلس الخاص قال :

« يوجد المسند أو العرش المعد للأمبراطور فى وسط الصالة وإلى جانبه قطعة من البلور النقى طولها اربعة أقدام وعرضها ثلاثة أقدام وارتفاعها قدمان وهى أجمل قطعة بلور عرفها العالم » .

وكان السقف من أهم مفاخر هذا المجلس وقد قدر تافيرنيه الجوهرى الفرنسى ثمنه بنحو ٢٧٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك . هذا السقف الذى يعد آية من آيات الصناعة كان من الخشب ذى لون قرمزى داكن ومطعم بالذهب

ومغطى بأكمله بأوراق الشجر المصنوعة من الذهب والفضة البارزة . وقد نهب هذا السقف العجيب جماعة مارانا فى سنة ١٦٧٠ وأذابوه فى النار لانتزاع محتوياته . وعلى أن السلاملك البديع مازال موجودا ولا يزال معجزة من معجزات الحفر على الموزيك .

وقد كان الأمبراطور بعد أن يفرغ من مقابلات رعيته فى منتصف النهار يأوى إلى هذا الديوان مع القليلين ممن يثق فيهم للبحث فى الشئون الخاصة . وهنا أيضا كان يعقد مجلس البلاط مساء : وويل للموظف الذى يتخلف عن الحضور فإن مرتبه يخفض وتنزل درجته ويصبح مستقبله فى خطر إن لم يضع نهائيا .

تخت الطاؤوس

وعلى المرتفع المرمرى يوجد تخت الطاؤوس أو عرش الطاؤوس الفريد فى حسنه والذى لايقدر بثمن قبل أن ينهبه نادرشاه ويذهب به إلى فارس فى سنة ١٧٣٩ . وقد تكلم تافيرنيه عن سبعة عروس تابعة للمغول ولكن تخت الطاؤوس كان بلا جدال أجملها وأفخمها وقد قدره هذا الجوهرى الفرنسى بمالا يقل عن ٠٠٠ ر٠٠٠ ر٦ جنيه . وقد روى باد شاه نعمة حكاية نشأة هذا العرش فقال :

أصدر شاه جهان أمره بجمع كافة المجوهرات التابعة للبيت المالك ماعدا طبعا جواهره الشخصية . ثم سلمت هذه الجواهر ويقدر ثمنها تقريبا بثمانية ملايين روبية الى بيبابدا خان ومعها التعليمات المطلوبة بتحويلها إلى عرش ومن ثم شرع مدير مصلحة الصياغ فى هذا العمل فورا ولم ينته منه

إلا بعد سبع سنوات . وكان بين الجواهر التى احتواها العرش ياقوتة كبيرة الحجم مهداة من عباس الثانى شاه فارس إلى جهانجير وقدرت وحدها بمبلغ ١٠٠ر٠٠٠ روبية .

وكان العرش من الذهب الخالص وله درج من ثلاث سلالم مصنوع من الذهب أيضا ومطعم بالجواهر . وكان يظل العرش سجف من الذهب يحمله اثنى عشر عامودا من الزمرد وكان سطح السجف الأسفل مطعما بالمينا الملونة بالألوان الذهبية الجميلة بين كان فوق السطح الأعلى طاؤوسان مصنوعان من مختلف الجواهر والأحجار الكريمة . وإلى جانب الطاؤوس كانت توجد شجرة من الجواهر وبقربها بغبغان مصنوع من قطعة زمرد واحدة .

ولما حمل نادر شاه عرش الطاؤوس معه إلى فارس استبقاه فى مكان صنع خصيصا من التحف التى نهبها من دلهى وقد كان عبارة عن خيمة من القماش الأحمر المشغولة بالأطلس البنفسجى ومطرزة من الداخل والخارج بصور من الحيوانات والطيور والزهور والأشجار المطعمة بأثمن الجواهر والتحف . أما أعمدة الخيمة فكانت من الذهب الخالص المطعم بالأحجار الكريمة وقد نصبت على شكل دائرة حول العرش . وكان نادر شاه يصطحب معه العرش والخيمة أينما ذهب فى فتوحاته . وكان يحملهما سبعة من كبار الفيلة .

وقد أصبح للديوان الخاص منذ أيام شاه جهان أشد ارتباط بمصائر أمبراطورية المغول . فإلى هذا الديوان جاء جهان ليتبوأ مكانه لأول مرة

فى قصره المشيد حديثا . فلما استوى جالسا على عرش الطاؤوس بدأ يوزع الرتب و الهدايا بين كبار رجال حاشيته . وفى هذا الديوان كانت تعقد الجلسات السرية التى تبرم فيها الشئون الأمبراطورية .

وفى يوم ٩ فبراير سنة ١٧٣٩ اقتحم القصر نادر شاه الفاتح الفارسى وفرض على الأمبراطور محمد فدية بمبلغ ٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٢٥ جنيه . وهنا قدم الأمبراطور محمد ما يساوى هـذا المبلغ فجاء إلى نادر شاه بأكوام من أبهج التحف وأغلاها فمن قطع نقود ذهبية وفضية إلى سبائك إلى عروش إلى تيجان إلى زهريات وأطباق مطعمة بأنفس الجواهر . وكأنما رأى أن كل هـذا لا يكفى فقدم أيضا عرش الطاؤوس . فقبل نادر شاه الفدية وجلس على العرش فى الديوان الخاص . وهنا أراد أن يعرب عن ارتياحه فنزع عمامته و استبدلها بعمامة مضيفه المطعمة بأنفس الجواهر .

وفى هـذا الديوان الخاص أيضا جلس نادر شاه ومضيفه الامبراطور وهو أشبه بالأسير . وقد جلسا يدخنان « الشيشة » ويحتسيان القهوة عشية اليوم الذى وقعت بعده مذبحة دلهى التى ذهب فيهـا ٠٠٠ ر ١٠٠ من السكان ضحايا لسيوف الفارسيين .

ولقد شهدت سـنة ١٧٩٨ ميلادية أفظع وأشنع مأساة ارتكبت فى داخل هـذا السلاملك المرمرى الجميل . وكان ذلك فى عهد علم شاه . فلقد استولى زعيما قبائل الروهللا — وهما غلام قادر واسماعيل بك — على القصر . وإذ كانا مقتنعين بأن غنيمة كبيرة مخبأة فى أحد أركانه فقـد أمرا ذلك الامبراطور المسكين الهرم بافشاء مكانها . ثم انتقلا من الأمر الى التهديد

والوعيد تم من تهديد هذا الشيخ المحطم الفانى إلى تعذيبه . وعبثا حاول ذلك الهرم المنحوس أن يفهمهما بأنه لاتوجد أشياء مخبأة فى القصر . وأخيرا تقدم الفاتحون فقيدوا سيدات الحريم وانهالوا عليهن بالسياط . وكأن هذا لم يكفهم بل جاؤوا بأولاد الامبراطور وقتلوهم أمام عينيه ومزقوهم أربا أربا . وأخيراً استل غلام قادر خنجره وطعن الأمبراطور فى عينيه . كل ذلك جرى فى الديوان الخاص . وبعد هذا أوقد غلام قادر النار فى القصر وانسحب .

الحمام

ربمايلوح غريبا فى نظر الغربيين أن يكون الحمام بهذا القرب من الديوان الخاص . ومدخل الحمامات يواجه الحائط الشمالية من حيطان الديوان المذكور . ويقال أن الحجر الصغيرة التى فى الجانبين تحتوى على حمامات لأصحاب السمو الأطفال المكيين . وهناك ثلاث حجر رئيسية . وحيطانها من المرمر المطعم بالموزيك وتضاء بنوافذ زجاجية ملونة يحيط بها إطار من المرمر على شكل الدنتلا .

وتسمى الحجرة الأولى « عقبة الحمام » وهى معدة لارتداء الملابس وتطل على النهر وبها ثلاث أحواض مجهزة بحنفيات مساطة إحداها على خزان خاص لماء الورد .

وبالحجرة الثانيـة حوض مجهز بحنفيات للماء الساخن والبارد وديوان من المرمر . أما الحجرة الثالثة فهى خاصة بالحمام الساخن فحسب . وقد بنيت آلة تسخين المياه فى الحائط الغربية ولابد لتسخين ماء الحمام من ١٠٫٦٠٠ رطل من الخشب . أما خزان الماء البارد فتمتد من جوانبه الأربعة أربع فوارات

(بزابيز) من الذهب بينما كان الحمام الساخن مطعما بالأحجار الكريمة .

وكان امبراطرة المغول الأولون مولعين بالحمام بل أنهم كثيرا ما أبرموا أهم شؤون الدولة فى داخل حيطانه المرمرية وعلى مسمع من خرير نافورات ماء الورد الباعث على تهدئة الأعصاب . وقد أشار كثير من الكتاب المعاصرين إلى محادثات على جانب عظيم من الأهمية دارت فى الغسل خانة . ولاسباب مجهولة يلوح أن الحمام فى قصر دلهى لم يستعمل فيما بعد عهد أورانجزب .

مسجد المعطى أو مسجد اللؤلؤ

وقد بناه أورانجزب ثالث أولاد شاه جهان وخليفته على العرش فى سنة ١٦٥٧ ميلادية . وكان هذا المسجد مكان عبادة الامبراطور . وهو مصنوع من المرمر الأبيض ويحيط به فناء صغير حوله سور من الحجر الأحمر . ويدخل اليه الانسان بواسطة أبواب صغيرة من النحاس الأصفر بديعة الشكل . وكانت القباب فى البداية مصنوعة من النحاس وعليها طبقة كثيفة من الذهب ولكنها هدمت بقنابل المدافع فى إبان الثورة الهندية. وهذا أيضا ما أصاب تاريخ بناء المسجد وقد كان محفورا على قطعة حجر فى المحراب كتبت عليها آية قرآنية .

أما الزخارف الداخلية والمصابيح المطعمة بالأحجار الكريمة والستائر وغير ذلك من علامات المجد فقد تلاشت منذ زمن مديد . ومع ذلك فان مسجد اللؤلؤ لايزال قائما كالخزانة البديعة التى انتهبت مجوهراتها .

حجر الامبراطور الخاصة

وهى تشمل حجرة التسبيح وقصر الأحلام وحجرة الملابس . وقد زار الكونت فون أورلش القصر فى سنة ١٨٤٣ فوصف دخوله إلى حجرة النوم الأمبراطورية فقال : « علقت ستار على الباب الذى كان يجلس أمامه شخص يسلى الامبراطور بنوادر متقطعة الى أن يتغلب عليه النوم على نحو ما ورد فى حكايات ألف ليلة وليلة » .

البرج المثمن

ويبرز من الحائط الشرقية فى قصر الأحلام (أو الجناح المعد للنوم) البرج المثمن وهو سلاملك مثمن الشكل كان يسمى فى الماضى البرج المذهب وترجع هذه التسمية إلى أن قبة البرج من النحاس المطلي بطبقة سميكة من الذهب . وتشرف على النهر خمسة من جوانب هذا المثمن . ومن هذه الجوانب الخمسة توجد أربعة قد سدت بحواجز من المرمر بها عدة فتحات صغيرة . أما الجانب الأوسط وهو الخامس فهو مكشوف ويؤدى إلى مقصورة صغيرة مسقوفة أضيفت فى عهد أكبر الثانى الذى أضاف الكتابة المنقوشة على البوابات .

محل رانج

أو قصر الألوان وكله من المرمر الأبيض وهو أكبر المبانى التى كانت مقدسة يوما ما فى القصر الأمبراطورى . وكان ـ كما يؤخذ من إسمه ـ مطليا بأبدع الألوان المذهبة . أما السقف فكان من الفضة الخالصة ومطعم بالزهور الذهبية . وكان ذلك فى أيام المجد فى عهد شاه جهان حيث كان هذا القصر

يسمى بالمحل الممتاز. وفى عهد فاروق سيار نزع الذهب والفضة من هذا القصر وأذيب فى النار لسداد بعض مطاليب مالية.

وبالبهو الرئيسى إثنى عشر عامودا لكل منها ١٢ جانب وهى مرتبة على شكل بواكى. ولذا فان البهو ينقسم إلى ١٥ من هذه البواكى. وتشرف على النهر من الحائط الشرقية خمس نوافذ بينما تطل كبار العقائل والسيدات من خلف الحواجز المرمرية على مصارعات الفيلة ومعارض الحيوانات المفترسة التى كانت تجرى فى البقعة الرملية الواقعة خلف الحصون.

وفى اعتقادى أن قصر الألوان عند ما كانت حيطانه مزينة بالألوان الزاهية وسقفه مطعما بالذهب والفضة وسطحه يخطف الأبصار بقبابه النحاسية المطلية بالذهب، أقول أن القصر لما كان بهذه الحالة كان بلا جدال يستحق ما نظمه فيه كتاب البلاط وغيرهم من عقود الثناء والاطراء. ولقد ظل الجنود الانجليز إلى ما بعد الثورة الهندية بزمن طويل يستعملون هذا القصر بمثابة « مس للجنود ».

المحل الممتاز

ويستعمل الآن كمتحف وكان فى الماضى جزءا من الحريم. ومنذ إنتهاء حكم المغول استعمله ولاة الأمور كسجن عسكرى وأيضا « مس للجاويشية » وكان يتصل فى الأيام الغابرة بالقصور الكبرى بواسطة أروقة.

المسجد الجامع

إن نظرة واحدة يلقيها الانسان على المسجد الجامع أو المسجد الكبير كافية لاقناعه بأنه أبدع بناء فى دلهى بأسرها. ويرجع الفضل فيما للمسجد

من المنظر الباعث على الهيبة الى موقعه على المرتفع الصخرى المشرف على القصر وعلى المدينة . وقد شيد ذلك البناء العظيم شاه جهان فى مقابل مبلغ ١٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ روبية وبدأ العمل فيه سنة ١٦٤٤ وظل متواصلا خمسة أعوام كاملة . وكان يعمل فيه يوميا ٥٠٠٠ بناء .

والقباب التى فوق المسجد من المرمر وترتكز الى مساند بدلا من أن ترتفع رأسا من السقف بينما يبلغ ارتفاع الابراج الملاصقة للقباب ١٣٠ قدما وبداخلها درج يصل إلى قمتها . ويوجد فى وسط الفناء صهريج كبير .

ولما كانت دلهى عاصمة بلاط المغول كان من عادة الامبراطور أن يذهب فى صباح يوم الجمعة إلى المسجد الجامع فى احتفال رسمى . وكانت الشوارع تكنس وترش جيدا قبل خروجه إلى المسجد وتصطف الجنود على جانبي الطريق ويسير فى طليعة الموكب الملكى جماعة يقرعون الطبول لتنبيه الناس ويأتى بعدهم رؤساء الحشم إما فى مركباتهم أو محمولين فى محفاتهم ثم يأتى الامبراطور ومن خلفه جماعة من حملة القضبان الذهبية .

وفى فناء المسجد الجامع يحيى امبراطور المغول سنة ابراهيم فى تقديم الفداء فيأمر بعقر بعير فى عيد الاضحى .

ومما لفت نظرى فى كافة نواحى هذا القصر شدة النظافة الدالة على اعتناء المستخدمين بالمكان .

ولقد قيل لى أن الأحجار الملونة تلويناطبيعيا والتى طعمت بها الحيطان قد استولى عليها الجنود عندما كانوا يحتلون القصر .

وهنا تذكرت مرة أخرى ما أداه لورد كيرزون للفن من الخدمات

الجليلة مما يحق للانجليز والهنود على السواء أن يفاخروا به . وإذا ذكرت خدماته فانى أذكر بصفة خاصة نظافة المبانى ونظامها مع أنهما حديثا العهد إذا لم يمض وقت طويل على خروج الجنود من القصر .

ولكثرة دهشتى لروعة ما رأيته من هذه المبانى الفخمة ناجيت نفسى قائلا : «يحسب الإنسان أن يحج إلى الهند خاصة لمشاهدة هذين القصرين فهما من أجمل وأروع ما وقعت عليه العين بل لا نبالغ إذا قلنا انه لا يوجد لهما نظير فى كافة أنحاء المعمورة » .

ثم غادرنا القلعة وذهبنا لزيارة الحى المشهور ببناء المرمر وحفره . ولما كان الحر قد اشتد فى الساعة العاشرة صباحا ولاحظت أن المواصلات والفنادق فى الهند ليست داعية إلى الارتياح بالدرجة التى كان يتوقعها الإنسان رأيت أن اذهب إلى شركة كوك لتغيير برنامج رحلتى والعدول عن زيارة مدينتى جابور واردیابور . ذلك لأن دلهى واجرا هما أجمل مدن الهند ومتى فرغت من مشاهدتهما يصح أن استغنى عن مشاهدة المدن الهندية الأخرى .

فطلبت منه أن يسهل لى السفر إلى أجرا لمشاهدتها على أن أذهب بعدها إلى بومباى رأسا . ثم عدنا إلى الفندق وكانت نظافته لا بأس بها . على انى لاحظت أن الفندق المبنى على الطراز الأوربى مغلق فى فصل الصيف . وليس شك فى أن دلهى متى ازدادت حركة العمران فيها وهرع اليها الانجليز بصفة خاصة فاسوف تزداد العناية حتما بالفنادق . والطعام فى دلهى خير منه فى الجهات الأخرى .

وبعد الظهر زرنا بعض الدكاكين الاهلية التى توجد فيها قطع «الانتيكة» ثم ذهبنا من هناك لزيارة ضريح هومايون شاه .

ضريح هومايون شاه

لهذا الضريح أهمية خاصة من ناحية الفن المعمارى إذ هو أول بناء انشىء على النمط المغولى وله مميزات خاصة . ومن العوامل الجديدة فى البناء وجود المنارات أو الابراج التى ترى هنا لأول مرة فى أركان البناء الأساسى الأربعة . ثم أن القبة القصيرة العنق هى أيضا من المميزات الجديدة .

وقد اختار هومايون شاه بنفسه مكان الضريح . فلما أدركته الوفاة شرعت أرملته حميدة بانو ـ أو كما يسمونها الحاجة بيجام ـ والدة أكبر فى بناء الضريح من فورها . وهذه الأميرة مدفونة هنا كما دفن أيضا عدد من الامبراطورة والاميرات من بيت تيمور وأخصهم بالذكر جهاندارشاه (١٧١٢ — ١٧١٣) وفاروق سيار شاه (١٧١٩ — ١٧٢٣) وعلا مجير الثانى (١٧٥٤ — ١٧٥٩)

والضريح قائم فى وسط حديقة شاسعة مزروعة أعشابا وزهورا وتقوم حوله أسوار عالية تتخللها أبواب آية فى الابداع الفنى متجهة الى الجنوب والغرب .

وهو من المرمر الأبيض الناعم ومكانه فى وسط البهو الأوسط الكبير الذى يؤدى الى عدة مقصورات صغيرة .

واستعمل الدور الأعلى من الضريح فى وقت من الأوقات كلية تخرج منها بعض الأساتذة الذائعى الصيت . ولكنها ألغيت منذ أكثر من قرن ونصف قرن .

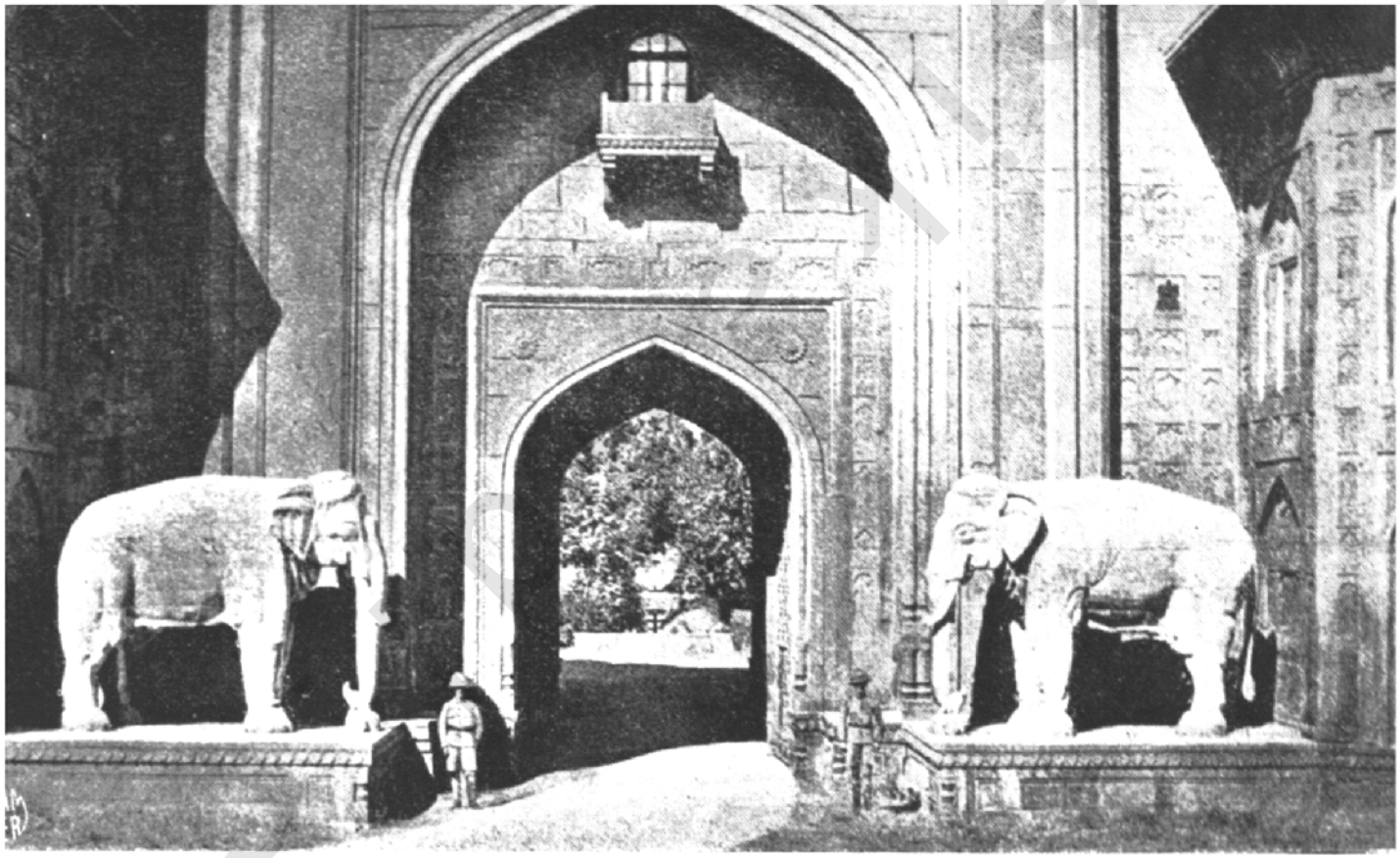

« بوابة دلهى أو بوابة الفيل » — قلعة دلهى

ولئن كان الضريح مايزال باقيا فان الزمن قد ترك أثره فيه فأضاع كثيرا من جماله بعد أن تلاشت ألوان القيشانى الزاهية الرائعة.

ضريح نظام الدين القديس

وبالقرب من ضريح همايون شاه يوجد ضريح نظام الدين وقد ذهبنا لزيارته وهو ضريح مقدس فى أعين مسلمى الهند ويعدونه كأحد الاولياء. بل مقامه فى الهند كمقام أحد الأئمة عند المسلمين. ومن هنا نرى كثيرين من المسلمين يفضلون أن يدفنوا بالقرب منه.

ويحج إلى القبر عدد هائل من الناس وتروى رؤيات غريبة عن «سر» صاحب الضريح. ثم هناك حكايات عن شفاء من مختلف الأمراض أو إستجابة دعوة الخ بعد زيارة إلى الضريح المذكور.

وعلى أن بعض حساده يزعمون انه كان من السحرة وعضوا فى جمعية سرية خطيرة مركزها الرئيسى فى خوراسان من أعمال فارس وانه منشىء مذهب الطوجية.

ويقال انه تنبأ مرة بأن غياث الدين طوغلق شاه — وقد كان متغيبا فى إحدى غزواته — لن يعود حيا إلى دلهى وأن ابنه محمد طوغلق سوف يتبوأ العرش مكانه. فلما قيل له ان الأمبراطور برغم تلك النبوءة يسارع فى العودة إلى عاصمة ملكه أجاب نظام الدين فى سكون «ولكن لا تزال دلهى بعيدة!» ثم جاءت الحوادث مطابقة لنبوءته فان غياث الدين لم يدخل دلهى حيا بل قتل قبيل دخوله إليها!

ويقال ان نظام الدين عند ما لحق بالرفيق الأعلى كان الامبراطور محمد طوغلق أول من ذهب لحمل نعشه لغاية الضريح الذى ووريت فيه جثته.

ويقوم قبر نظام الدين فى قرية أصبحت الآن تسمى باسمه وهى على بعد خمسة أميال من دلهى المغولية.

والدخول إلى الضريح بواسطة بوابة من الحجر تحف بها مقاصير تستعمل الآن كحجر للتدريس. والتاريخ المكتوب على البوابة هو سنة ١٣٧٨ بعد الميلاد. والذى بنى هذه البوابة وكذا البوابة الداخلية التى بجانب « المغطس » طوغلق فيروزشاه.

أما المغطس وهو قريب من القبر فيبلغ طوله خمسين مترا وعرضه خمسين مترا وكان المسلمون يغسلون موتاهم فيه قديما ولكنهم أقلعوا عن هذه العادة الآن وأصبح الهنود هم الذين يفعلون ذلك بعد أن أصبحوا يعتقدون بكرامة صاحب الضريح.

وإلى جانبي المدخل ضريح باثانى وإلى يمينه يوجد مسجد مركب من طبقتين.

وأول ما يستلفت النظر الصالة الشاسعة وبها ٦٤ عمودا أقامها أمبراطور المغول جهانجير (١٦٠٥ — ١٦٢٧) وتحتوى على ضريح عزيز كوهال طوش أخى الامبراطور الاكبر العظيم. وتتركب من صالة من المرمر محاطة من جميع الجوانب بحواجز من المرمر الأبيض المحفور. أما السقف فتقوم عليه خمس وعشرون قبة صغيرة. وعلى قيد خطوات من هذه الصالة توجد المقصورة المحتوية على ضريح نظام الدين وهو من المرمر ومحلى

بالنقوش البديعة والآيات القرآنية

ولما اقتربنا من المسجد الذى يحتوى ضريح نظام الدين محاولين دخوله هرع إلينا الحراس فالبسونا المز على الاحذية . ثم لاحظت وجود عدد هائل من المتسولين عند مدخل المسجد .

ومن دواعى الأسف أن المكان مهجور ومجرد من النظام والنظافة وهو بعكس ما كنت أتمنى. ولعمرى ان الانسان ليدركه الأسف المصحوب بالحيرة عند ما يرى الآثار التى تحت رقابة الأوربيين معتنى بها أتم عناية مما يكسبها رونقا وبهاء ويعيدها إلى الحياة بينما ما تحت رقابة الأوقاف الإسلامية من الآثار مهمل أشد إهمال وفى حالة هى أقرب إلى الموت منها إلى الحياة .

ولما تأهبنا للخروج تصدقنا ببضع روبيات لابتياع خبز ومأكولات وتوزيعها بين من كان موجوداً من جيش المتسولين .

وكنا حين زرنا هذه الأضرحة الإسلامية نقرأ لأرواح أولئك الشهداء الفاتحة ترحماً عليهم وإعجاباً وتمجيداً لما أتوه من الأعمال الخالدة العظيمة التى أصبحت منقوشة بأحرف من نور فى بطون التواريخ . فلقد جاؤوا من بلادهم فاتحين فأسسوا سلطاناً عظيما مقطوع النظير ومكنوا للدين الإسلامى فى هذه البلاد النائية وثبتوا دعائمه بما لا يمكن أن يزلزلها شىء على ممر الايام والعصور.

وكم كنا نشعر أن من علامة رضا الله عنهم وقبوله عز وجل لما أتوه من جلائل الأعمال ان وفقهم إلى إنشاء هذه الأبنية الفخمة والأضرحة الرائعة التى ماتزال برغم ما توالى عليها من العصور فى حالة عجيبة كما أنها لا

تزال موضع إجلال واعجاب من جاء بعدهم من الاجيال وزينة تباهى بها الهند وتتيه بها اعجاباً ودلالا على البلدان الأخرى .

وهنا شاهدنا عدداً من المسلمين يقيمون الصلاة . ولشد ما كان فرح مشايخ الضريح واغتباطهم عند ما رأوا اخوانا لهم فى الدين يجيئون من بلادهم لمشاهدة هذا المسجد. ثم أخرجت من جيبى ورقة مالية من فئة عشرة روبيات ووضعتها فى الصندوق. فقام الشيخ الكبير وأهدانى قليلا من الورد الموجود على الضريح على سبيل البركة . وقيل أنه يوجد بهذا الضريح شيخ مشهور بكتابة التمائم ضد الحمى وأن الهنود أنفسهم مع أنهم غير مسلمين يؤمنون بهذا الشيخ ويحجون اليه جماعات جماعات ليكتب لهم الاحجبة والتمائم .

والفقر مجسم فى الهند بحيث لا يكاد يضع الإنسان يده فى جيبه الا ويرى أمامه سيلا من المنسولين احتاطوه وتهافتوا عليه تهافت الطير على الحبوب .

ومن هناك ذهبنا إلى سوق المدينة فرأينا التجار جالسين أمام حوانيتهم الصغيرة وقد لفوا سلمهم فى « البقج » على النحو المألوف فى مصر ولطول العهد منذ فتح هذه البقج فان التجار قد نسوا محتوياتها .

وفى هذا السوق توجد الأقمشة الفاخرة المزركشة بالذهب . والتجارة الأساسية هنا هى الشباشب المزركشة بالذهب وعلب السجاير والعصى المصنوعة من السن والنقش بالميناء على سن الفيل والحفر على النحاس كل هذا بأثمان تعتبر باهظة . وقد يكون المقصود بهذه الأثمان السائحين مع ملاحظة «العمولة» التى يعطيها هؤلاء التجار للدليل فى مقابل أحضار « الزبائن » إليهم.

وهنا رأينا لأول مرة المركبات تجرها الابل بدلا من الخيل فاستغربنا كيف لم يفكر المصريون قديما فى استخدام الابل فى هذه المهمة مع وفرتها فى البلاد المصرية .

ثم قفلنا راجعين إلى الفندق لأن الشمس تغرب فى الصيف هنا حوالى منتصف الساعة السابعة .

وفى اليوم التالى بكرنا فى الساعة التاسعة بأخذ السيارة لمشاهدة السد والقناة التى تجرى فيها المياه المعدة لشرب سكان دلهى . وهذا السد يبعد عن العاصمة بنحو خمسة أميال . فوجدنا الدقة والنظام يتجليان فى بنائه وقد رأينا بجانبه منزلا صغيرا يقطنه المهندس الانجليزى المكلف بالأشراف على السد المذكور .

وقيل لنا أن فى الأنهر القريبة من دلهى توجد التماسيح بكثرة.

ومن هناك سرنا إلى مدينة « طوغلق آباد » وهى على بعد تسعة أميال من دلهى وهى طابية كبيرة يبلغ محيطها ستة أميال . وكان بداخل الطابية فى الزمن الغابر بلد صغير له خمسون بابا. وبها بئر عمقها ٨٠ قدما ومحفورة فى الحجر. وعلى كل فقد أصبحت الطابية وما كان فيها أطلالا دارسة . ثم شاهدنا ضريح طوغلق وزوجته وبالقرب منه ضريح كليهما الوفى .

ثم عدنا بعد ذلك إلى دلهى .

كلمة إجمالية عن تاريخ الهند الأسلامية

لما كنا قد قررنا أن نبارح دلهى فى صبيحة اليوم التالى قاصدين إلى أجرا رأيت أن ألم هنا بتاريخ الاسلام فى الهند فى الكلمة الاجمالية الآتية :

العهد التركى

يبدأ التاريخ الاسلامى الصحيح فى الهند منذ الفتح التركى عند ما أغار محمد الغورى على أسرة شوهان الهندية فى سنة ١١٩٣ . فلقد خلف أخاه حاكما على غازنى واقتحم الهند عاقدا النية على أن ينشىء أمبراطورية مترامية الأطراف فى هندستان . وهو كحاكم يعتبر من خيرة من رأت الهند من الملوك من حيث العدل والمقدرة .

وبعد فترة من الزمن تقلب فيها العرش بين عدد من الملوك انتخبت بالاجماع الأمبراطورة « رضية » المشهورة لتتبوأ عرش الهند الشاغر . وتمتاز « رضية » بأنها الملكة الوحيدة التى حكمت دلهى . ولا بد أن تلك الملكة كانت على جانب كبير من الشجاعة والمقدرة وحسبك دليلا على ذلك أنها قادت جيشها بنفسها إلى ميدان القتال . ويستدلون على ما كان لها من سعة الاطلاع بأنها قرأت القرآن بأكمله . ولكنها برغم ذلك أخضعت الدين لمقتضيات حالتها . فقد خلعت الحجاب ولبست ملابس الرجال . وكانت تركب الفيلة وهى سافرة الوجه وتستقبل رعاياها فى رابعة النهار وتفصل فى شؤونهم بالقسطاس المستقيم .

واختلفت الروايات فى مصير هذه الملكة العظيمة فمن قائل أن ماثار فى عهدها من الفتن كانت نتيجته وضعها فى السجن حيث قتلت فيه . ومن قائل أنها نجت بمفردها من حومة الوغى ثم امتطت جوادا قطعت به مرحلة طويلة ثم ترجلت عنه عند ما غالبها النعاس فنزلت على حكمه فداهمها فى نومها

فلاح يائس وقتلها طمعا فى الحصول على حليها وما كان عليها من اللباس الفاخر. ويقال إن ضريحها قائم بقرب بوابة التركمان فى دلهى المغولية .

قبل عهد المغول

ثم تولى العرش ملوك عديدون من أسر مختلفة نسرد أسماءها سردا فمنها اسرة « الخلج » وقد لبثت من سنة ١٢٩٠ الى سنة ١٣٢٠ ثم أسرة « طوغلاق » وقد انقرضت فى سنة ١٤١٤ وأعقبتها أسرة الأسياد وعدد ملوكها أربعة وانقرضت فى سنة ١٣٥١ ثم أسرة « لودى » التى انقرضت بمقتل آخر ملوكها الثلاثة وهو ابراهيم الثانى على يد بابار المغولى الذى يبدأ به عهد المغول الزاهى فى الهند .

عهد المغول

بابار (١٥٢٦ — ١٥٣٠)

بعد قرن وربع قرن من خراب دلهى على يد تيمورلنك أصبح حفيده فى الجيل الخامس وهو بابارشاه امبراطور هندستان .

كان محمد ظاهر الدين أو كما يسمونه « بابار » النمر حفيد أبو سعيد الخان السابع لجهات ترانس أوكسيانا . وكان ميلاده فى سنة ١٤٨٢ وما لبث أن خلف أباه فى رئاسة العشائر فى فاراغانه . وفى سن الثانية والعشرين حرم من الميراث بمساعى شاريبانا ومن معه من تتار يزبك . ومن ثم ولى بابار اهتمامه نحو أفغانستان وبادا كشان (١٥٠٤) . وبعد أن لبث يحكم كابول عشرين سنة حدثته نفسه باقتفاء آثار سلفه العظيم تيمورلنك وأن ينشىء امبراطورية تتارية فى هندستان .

ولما بلغ سن الثالثة والاربعين هاجم دلهى على رأس ١٢٠٠٠ جنديا منظمين أحسن تنظيم فتغلب على جيش ابراهيم الثانى وكان عدده ١٠٠٠٠٠ عدا ١٠٠٠ فيل وقد قتل ابراهيم آخر ملوك أسرة «لودى» فى معركة بانيبات هذه.

وأصبح بابار بعد هذا الانتصار المبين سيد دلهى. فاحتل المدينة ثم سارع الى أجرا حيث نادى بنفسه امبراطورا على هندستان. وبعد أعوام ثلاثة دعاه ربه فلبى الدعوة وكانت كلماته على سرير الموت أنه يوصى بدفن رفاته فى كابول.

ويقول المؤرخون المعاصرون أن بابار كان رحيم القلب مثقفا ونعم الرفيق وزعيما جريئا لا يهاب الموت. وقد اغرم بفن الكتابة والشعر والموسيقى وكان أتباعه مثله من حيث طيبة القلب وكانوا ماهرين فى اطلاق المدافع. وكانوا يصحبون نساءهم فى غزواتهم سافرات وبملابس تجعلهن خليقات بأزواجهن المحاربين

هومايان ١٥٣٠ — ١٥٥٦

لما توفى بابار خلفه على العرش أكبر أولاده وهو شاب فى التاسعة عشر من العمر. وقد خلف له أبوه « امبراطورية مترامية الأطراف غير متماسكة تمتد من بادا كشان وكاندرج إلى ماوراء هندوكوش وتشمل كافة بلاد الأفغان ثم البنجاب وهندستان وراجبوتانا وبيهار »

ومنذ تبوؤ محمد هومايان ناصر الدين على العرش وهو محاط بدسائس أخويه « هندال » و « كاميران » مع انه كان لسوء حظه شديد التعلق بهما. هذا عدا عدوا آخر أصعب منهما مراسا وأشد بأسا الا وهو شيرشاه الافغانى الذى عاش عيشة المخاطرين.

فلقد كان يعرف فى بدء الامر باسم فريد بن حسين أحد رجال قبيلة « روح » الافغانية التى تقطن المنطقة الجبلية المتاخمة لفارس . والفضل فى اللقب المشهور الذى أصبح يعرف به يرجع الى سلطان بيهار . فقد حدث وهو فى الصيد أنه قتل فى حضرة السلطان نمرا هائلا بضربة واحدة بالسيف . ومكافأة له على هذه الشجاعة والفروسية منحه السلطان لقب شير خان أو زعيم النمور . ثم توفى السلطان عقب هذا بقليل فأصبح شير خان بناء على رجاء السلطانة الارمل وصيا على ولى العهد الفتى . ولما لم تعمر السلطانة نفسها طويلا اثقلت السلطة كلها الى أيدى هذا الافغانى القدير الواسع الحيلة الكثير المطامع . ولم يكن ممن يغفلون عن انتهاز الفرص . فحشد فى البنغال جيشا عرمرما وزحف به على همايان ومن ثم نشبت معارك طويلة الامد بين هذين « النمرين » وانتهى القتال بفرار امبراطور المغول حرصا على حياته . وبينما كان يجتاز صحراء السند رزق بولده « اكبر » المشهور فى يوم ١٥ اكتوبر سنة ١٥٤٢ فى « عمار كوت » وهى قلعة صغيرة قائمة فى الصحراء .

واتجه همايون بادئ الامر الى « طاهماسب » شاه فارس يطلب حمايته ولبث فى بلاطه نحو أربعة أعوام . ثم انتقل بعد ذلك الى كابول حيث قضى التسع سنوات التالية . وقد حصر جهوده فى الاشراف على مملكة ابيه القديمة وجعل يتربص الفرص .

شير شاه (١٥٣٩ ـ ١٥٤٥)

وبينما كان همايان يقضى أيامه فى المنفى أخذ كوكب شير شاه يتألق حتى أصبح امبراطور هندستان . وقد اتخذ له ديوانا فى دلهى فى القلعة التى

تعرف فى الوقت الحاضر بقلعة بورانا .

وكان مولعا بالعمل لا يمل منه وكان نابغة فى أعمال التنظيمات لا يترك تفاصيل الامور . وقد أعاد إلى الحكومة نظامها . ولعل أشهر أعماله نظام ايرادات الأطيان الذى ادخله أكبر فيما بعد بنجاح عظيم . ثم انتقل من هذا الى رسم سياسة التسامح الدينى .

أما ماذا عسى كان يكون مصير عبقرية شيرشاه فتلك مسألة محل اخذ ورد . ولكن ذلك الملك الذى لم تر الهند من يفوقه فى المقدرة والكفاءة قتل بعد ست سنوات من قبضه على صولجان الملك الذى أداره بما يكفل فائدة الجميع . وكان مصرعه قضاء وقدرا بانفجار مخزن بارود أثناء حصار كالنجار .

عودة همايان الى العرش

وفى سنة ١٥٥٤ سافرت الرسل من دلهى قاصدة كابول داعية همايان الى العودة لتوطيد النظام فلم يتلكأ فى تلبية الطلب . ثم ذهب وبصحبته قائده المحنك الجنرال بيرام خان . فاكتسحا كل ما كان أمامهما من العقبات ودخلا دلهى دخول الظافرين فى خريف سنة ١٥٥٥ . ولم يعش طويلا ليتمتع بعودته الى العرش . كلا بل توفى فى أوائل العام التالى بسبب زلة قدم على أثر خروجه من مكتبة القلعة فى دلهى فسقط على الدرج الرخامى ثم توفى متأثرا من جروحه .

ويظهر أن همايان كان ذا شخصية جذابة من البداية الى النهاية . واذا كانت الاقدار قد عاكسته فذلك بسبب فضائله لا بسبب اخطائه . وقد

أصاب فيريشتا عند ما وصف همايان بقوله « لو أنه كان شرا مما كان عليه لصار أكبر شأنا وأعظم سلطانا » .

(أكبر ١٥٥٦—١٦٠٥)

كان أكبر أول الامبراطرة المغول الاربعة العظام والبنهم عريكة . وبنشأته قوى شأن الامبراطورية وازدادت أطرافها تماسكا واستمرت هكذا طيلة عهود الامبراطرة الثلاثة الذين خلفوه على العرش الى أن تمزقت أوصالها وتناثرت قطعا قطعا .

وكان أكبر يافعا لايزيد عمره عن الثلاثة عشر سنة عند ما أصبح امبراطور هندستان. فلما لبى همايان دعوة ربه كان أكبر متغيبا فى البانجاب حيث كان فى المخيم مع بيرام خان بالقرب من أمرتسار . ولكن سد عليه طريق عودته الى دلهى هيمو الجنرال الهندى الذى ارتقى من تاجر حبوب الى أن أصبح قائد جيش عادل شاه صورى المغتصب الافغانى الذى كان تدخله فى ابعاد ورثة شيرشاه عن الملك وما نشأ عن ذلك من المنازعات بمثابة فرصة سانحة لهمايان ليستعيد فيها عرشه . فتقابل جيش أكبر مع جيش هيمو فى جهة بانيبات . وكان جيشه أقل عددا ولكن أعظم شأنا وأشد خطرا بسبب حسن نظامه . وكان يقود هذا الجيش بيرام خان صهر همايان والوصى على الامبراطور اليافع . ثم دارت الدائرة على الافغان ووقع زعيمهم هيمو اسيرا وانتهي امره بالاعدام .

وكان من نتيجة هذا الفوز الباهر أن تمت لأكبر السلطة على دلهى وأجرا بلا منازع . وقد لبث خمس سنوات كاملة تحت وصاية بيرام خان.

فلما انشبت المنية أظفارها فى ذلك القائد العظيم نفض اكبر عن كاهله غبار الوصاية وأصبح يضطلع شخصيا بكافة شؤون الدولة . واذ كان حاضر الذهن خفيف الحركة فلم يكن يتهيب شيئا مهما كان كبيرا كما انه كان كثير العناية بكل امر مهما كان تافه الشأن واذ كان من اشجع القواد وأوفرهم حظا فقد تمكن من توسيع ملكه كثيرا ووجه عنايته الى توطيد دعائم فتوحاته . وكان شديد العطف والرحمة وكان مولعا بقراءة التاريخ وتقصى غوامضه. وقد أخذ خطة سلفه العظيم شيرشاه نبراسا له فى سياسته . فاتم نظام ايرادات الاراضى الذى وضعه ذلك الامبراطور العظيم وشرع يحتذى حذوه فى التسامح فى الشؤون الدينية وبدأ يلغى تدريجا عادة حرق الارمل بعد وفاة بعلها وكذلك أعفى من لايدينون بالدين الاسلامى من أداء الجزية. ثم عدل عن وضع كلمة الشهادتين على العملة المتداولة لازالة نفور الهندوس منها واختار وزراءه بلا تمييز بين الأديان والعقائد . وقد بذل منتهى ما فى وسعه لاحلال الوئام والمصالحة بين الاحزاب المتنافرة فى الدولة . واذ كان يعرف أن سوء التفاهم فى شؤون الدين مدعاة للتشاحن والبغضاء فقد نظم اجتماعات أسبوعية تعقد مساء كل يوم جمعة فى العبادة خانة فى جهة فاتح بور سكرى . وكان يحضر هذه الاجتماعات بنفسه ليسمع مناقشات المبشرين من جزويت وجين وبراهمة وشيعة وسنيين وبارسى وبوذيين ودراويش وسادهو ويوجى الخ ومقارعتهم بعضهم بعضا بالحجة الدامغة . وفى النهاية استخلص اكبر لنفسه دينا خاصا هو زبدة ما فى الاديان الاخرى . وقد سمى هذا الدين بالتوحيد الالهى : على أنه لم يعتنق هذا الدين الا القليلون بل أنه أصبح بعد وفاته نسيا منسيا .

وكان أكبر من عظماء المعماريين وظهيرا ندى الكف لطبقة الفنانين . ولم يشارك المسلمين تعصبهم الموروث عن وصايا موسى بالابتعاد عن التصوير من الحياة . بل بالعكس أنشأ متحفا للصور وعهد إلى عدد من الفنانين بالعمل على تجميل حوافى المخطوطات الفارسية وزخرفتها .

وتشاء المقادير أن تغشى سماء هذا العهد السعيد فى أواخر أيامه سحب الثورة وان يكون بطلها ابنه سالم . ولشدة ما كان حزن أكبر على من ذهب من خيرة أصدقائه طعمة لهذه الثورة .

ولكن حبه للتسامح قد تغلب فى النهايه . فقد عفا عن ولده واستدعاه الى جانبه وهو على سرير الموت وهناك ألبسه عمامته الامبراطورية وقلده السيف الذى استرد به هومايان امبرطورية هندستان .

جهانجير شاه (١٦٠٥ — ١٦٢٧)

كان نورالدين محمد جهانجير (أى القابض على العالم) فى السابعة والثلاثين عند ما اعتلى العرش مكان أبيه أكبر . وكان مولده من احدى أميرات راجبوتانا وأول ثمرة للزواج المختلط بين المغول والهندوبين وهو الزواج الذى أصبح قاعدة لمن جاء فيما بعد من الملوك . وكان يعرف وهو ولى العهد بالسلطان سليم . وكان أميرا حاد الطبع متعصبا لرأيه جنوحا الى الثورة والخروج على التقاليد . وقد دفعه الحسد الى أن يغتال المؤرخ الكبير أبا الفضل وكان من صفوة أصدقاء أبيه . على أنه جنح فيما بعد الى الاعتدال فى الخلق بتقدم السن من جهة وبسبب وفاة زوجته الاولى وهى احدى أميرات راجبوتانا الى أن اعتلى العرش فاصبح خلقه ادعى الى الايناس والارتياح

وصار أمره أمر حاكم مولع بمسار طاولة القمار واحتساء بنت الحان وتدخين الافيون دون أن يلق باله إلى شؤون الملك الضخم الذى دعى للاشراف على ادارته .

ولم يحاول تجديد شيء أثناء حكمة . فحدود الامبراطوريه ظلت على حالها كما تركها أكبر الاهم الا اذا استثنينا قندهار التى اصبحت تحت سلطة شاه فارس . أما مقاطعات « ديكان » فقد نفضت بعض تراب النير الذى يطوق عنقها ثم أن قبائل مارائا بدأوا يحمل الناس على اللغط باسمهم.

والمرجح أن حياة الأفراط التى كان يعيشها جهانجير ربما كانت تؤدى إلى تقصير أجله لولا ما كان لزوجته الحسناء نورجهان المشهورة من النفوذ الواسع . فان هـذه الأميرة الفارسية المثقفة الواسعة الحيلة كانت أرمل إحد قواده . وكانت فى سن الرابعة والثلاثين عند ما اقترن بها الأمبراطور . وسرعان ما أصبح لها نفوذ قوى . وبعد أن أعلن جهانجير أن الأمبراطورة قادرة على الاضطلاع باعباء الملك أخذ ينسحب تدريجا من الحياة العامة . فهى هى التى كانت تتبوأ مجلسها فى « جهاروخا » أو فى الشرفة لامبراطورية لمباحثة أكابر الدولة . وهى هى التى نقش اسمها على قطع النقود الذهبية كما ظهر على أهم وثائق الدولة . ولقد شاد مؤرخو الهند فى ذلك العهد بجمالها وسارت الركبان بفرط ذكائها ولباقتها العجيبة . ولقد نشروا الاقاصيص عن سخائها وتحدثوا بتقديمها الصداق لخمسمائة من البنات اليتيمات من جيبها الخاص . وكان طبيعياً أن تغدق الاحسان على أولى قرباها و تشملهم جميعاً بكافة مظاهر العطف . فقد عينت أباها اعتماد الدولة وزيراً وخصصت له

مرتباً يوازى ٥٠٠ر٠٠٠ جنيه فى العام ثم عملت على اقتران بنت أخيها ممتاز محل الشهيرة بالسلطان خورام الذى أصبح يلقب فيما بعد بشاه جهان وربطت بنتها من زوجها الأول باصغر أولاد جهانجير — السلطان شهريار — وقد كان حسن الطلعة ولكن عاثر الجد .

وبرغم جمالها الفاتن ودرايتها بعواقب الامور فان نورجهان عجزت عن تصريف شؤون تلك الامبراطورية المترامية الأطراف . فضربت الرشوة أطنابها وأصبح يتعذر تنفيذ شيء إلا بتقديم الرشوة وأنتشر اللصوص فى كافة أنحاء البلاد بل وفى شوارع المدن . ثم إزدادت الطين بلة بتوالى الثورات التى كان يذكى نارها أولاد جهانجير . ثم عادت السكينة مؤقتاً بوفاة جهانجير . وقد لحق بربه فى سن الثامنة والخمسين إثناء عودته من كشمير. فدفن فى الضريح الفخم المشيد فى لاهور وبالقرب منه «الروضة» المتواضعة الحجم التى دفنت فيها رفات قرينته نورجهان .

شاه جهان (١٦٢٨ — ١٦٥٨)

عندما نودى بالسلطان خورام أمبراطورا على الهند اتخذ لنفسه لقب شاه جهان شهاب الدين (أى سيد العالم) وكان أول ما وجه إليه عنايته أن أزال مزاحميه من الطريق . فلما أن تم له ذلك راح يصلح الفساد الذي تغلغل فى أحشاء الأدارة فى عهد الامبراطور السابق . وقد ترتب على هيامه بقرينته الفارسية الحسناء بنت أخى نورجهان زوجة أبيه انه أصبح متحيزا بعض التحيز لرعاياه المسلمين. ومع ما عرف به من اضطهاد المسيحيين فليس يوجد مايدل على أنه أظهر نحو رعاياه الهندوس الا منتهى التسامح وسعة الصدر.

ولقد سارت المركبات بما كان فى بلاطه من مظاهر الفخامة والثروة إلى أن وصلت أنباؤه إلى أقصى أركان أوربا فالهبت خيال الناس بما تصوروه من مظاهر الثروة التى لاحدود لها والأبهة المقطوعة النظير .

كانت ولادة هذا الامبراطور الذى يعتبر فذا بين ملوك العالم فى السادس من شهر يناير سنة ١٥٩٣ ميلادية . وقد خلف فى سن السادسة والثلاثين أباه جهانجير على العرش فى سنة ١٦٢٨ . وكان وهو فى سن الطفولة أحب الاطفال الى جده اكبر . ولذلك ناداه الى جانبه وهو فى ساعات النزع الأخير وسماه السلطان خورام مع أنه لم يكن قد تجاوز سن الرابعة عشر .

وكان عهد جهانجير — كما قدمنا — طافحا بالثورات التى كان ابنه الأكبر الأمير خوسرو أول من بذر غرسها . ثم حذا الأشقاء الآخرون حذو أخيهم الأكبر . وقد ضربت الفوضى أطنابها فى كافة أنحاء الامبراطورية بسبب تكاسل الامبراطور جهانجير وادمانه على الخمر وتركه حبل الأمور على الغارب . ولولا براعة قرينته الحسناء نورجهان وحسن تدبيرها لتفرقت هذه الامبراطورية الضخمة أيدى سبا . وقد ساعدها حسن حظها بوجود نصحاء معقولين إلى جانبها مثل «محبة خان» القائد الأفغانى المشهور وأحد سكان كابول ورئيس الوزارة شقيقها اسعاف خان . ولكن بالرغم من هذا كله فان سوس الفساد أخذ ينخر فى عظام الدولة فانتشرت الدسائس وتفشت الرشوة وسوء الادارة وكان كبار الموظفين لا يخجلون من تهافتهم المزرى على تناول الرشوة من نورجهان نفسها فما دونها . وكان من المستحيل اتمام شىء أو ابرام أمر إلا بتقديم أغلى الهدايا للامبراطورة وشقيقها .

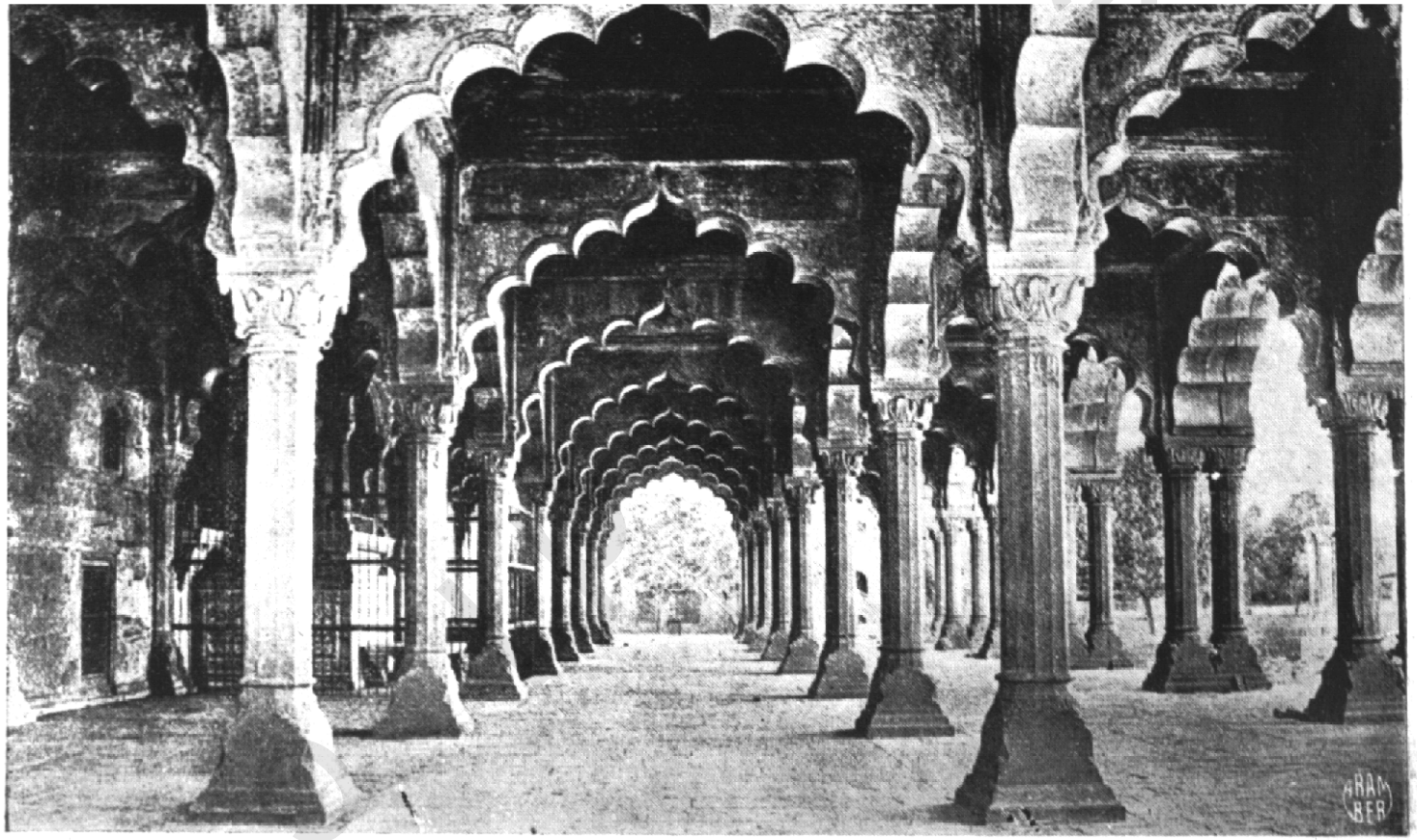

الديوان العام — قلعة دلهى

وكانت اقاليم بحالها تمنح لمن يقدم أكبر عطاء . أما الجيش فقد أهمل شأنه إلى حد أنه كان يسهل جداً غزو الهند فيما لو خطر ذلك لأحد الملوك فى الخارج .

وليس شك فى أن شاه جهان كان أقدر أولاد جهانجير ولكنه كان واقعا تحت تأثير النساء . وأنك لتلمح فى حياته الخصوصية وفى أخلاقه وفى تدبيره لشئون الملك أثار هيامه بزوجته « علية بيجام » أو كما تعرف باسمها المشهور « ممتاز محل » وهى نفس السيدة التى ووريت رفاتها فى تاج محل بمدينة أجرا . ومع أن هذه السيدة كانت أحب النساء اليه فانها لم تكن أولى زوجاته بل كان قد اقترن قبلها بأخرى وهو فى سن الحادية والعشرين . ولقد كان هذا الاقتران بمثابة المحرك الفعال فى حياته . فمنذ زواجه بها الى أن لحقت بربها بعد ذلك بثمانية عشر عاما ، كان شاه جهان على عكس ما تقضى به التقاليد الأسلامية ـ مكتفيا بزوجة واحدة وهى ممتاز محل هذه إبنة « اسعاف خان » رئيس وزراء أبيه .

وطالما كانت ممتاز محل هذه على قيد الحياة لم يكن حد لسلطانها عليه . فلقد كانت مستشاره وشريكة أسراره وهى مصدر الوحى فى سياسته وبخاصة عدائه للأوربيين . وقد كانت رفيقته فى كافة أسفاره لاتفارقه لحظة عين . وقد رافقته حسب العادة فى غزوته ضد « جهان لودى » . وفى جهة « برهان بور » جاءها المخاض فوضعت ابنهما الرابع عشر . ثم اعترتها الحمى فى ذلك المكان وفارقت هذا العالم فى خيمتها فى يوم ١٧ يونيه سنة ١٦٣١ وسنها لايزيد عن التسعة والثلاثين ربيعاً وأربعة أشهر .

ولقد كانت هذه الوفاة بمثابة صدمة لجهان شاه لوقوعها بعد اعتلائه العرش بسنوات قليلة . فلم يسع هذا الامبراطور الذى قرح الحزن فؤاده إلا أن يأمر بنقل الرفات الغالية إلى أجرا وهناك نفذ وعده السابق فأنشأ « تاج محل » أو تاج القصور تخليداً لذكراها .

وكانت الامبراطورة « ممتاز محل » قد ماتت عن ثلاث بنات وأربعة أولاد . وكانت أكبر بناتها « جهانارا بيجام » فى سن السابعة عشر عند وفاة أمها . وكانت على جانب عظيم من الجمال رقيقة الشعور وقد أخذت من التعليم بأكبر نصيب . فالتفت اليها أبوها يلتمس السلوى وهنا بدأ يخضع رويدا لسلطانها عليه إلى أن أصبحت صاحبة الكلمة المطاعة فى كافة أعماله . ولهذا يصح أن يقال أن جهان كان تحت تأثير النساء باستمرار فأولا تأثير زوجته ثم تأثير ابنته .

وبالرغم من نفوره من غير المسلمين ومطاردته « لهوجلى » فان شاه جهان لم يكن متعصبا دينيا بالشكل الذى عرف عن ابنه وخليفته « أورانجزب » . فان القواد الهنود كانوا يشغلون أثناء حكمه مناصب سامية فى الجيش الامبراطورى . ثم ان الجزويت كانوا يتمتعون بأكبر نفوذ فى بلاط أكبر أولاده « دارا » وأحبهم اليه . ثم إن الارساليات الكاثوليكية كان يسمح لها بالبقاء فى العاصمة . ومع أن شاه جهان كان أحب أحفاد « أكبر » إلى جده فانه لم يكن أحب المتهافتين على العرش فى نظر الجمهور . وقد وصفه الكتاب المعاصرون بيرود الطبع وبالصلف واتهموه بالتجرد مما تنطوى عليه الأخلاق الراضية من السحر والجاذبية .

وفى سن الخامسة والعشرين أرسله أبوه الى جهات « ديكان » لتوطيد

الأمن والسلام فى ربوعها بعد أن انقسمت شيعا وأحزابا بسبب تطاحن الاسر الاسلامية من سلالة الحكام الذين جاؤوا لادارة شؤون الأنحاء المختلفة التى استولى عليها أمبراطور دلهى. فصار كل منهم ـ كلما لاحت له الفرصة لخلع النير الأمبراطورى ـ ينادى بنفسه ملكا فى جهته. وقد تمكن جهان من إخضاع « احمد نجار » مؤقتا بفضل مساعدة « مالك عنبر » رئيس الوزارة وصاحب الكلمة المسموعة فى أنحاء المملكة الصغرى. فبادر جهانجير بمكافأة ولده بلقب شاه جهان ومنحه رتبة « شيهايان » و ٣٠٠٠٠ حصان. وهو شرف لا يمنح إلا لأمراء البيت المالك. وفى سن الاحدى والثلاثين أصبح جهان مفضوبا عليه. فكانت النتيجة أن أعلن أخوه الأكبر « بارويز » وليا للعهد. واذ ذاك رفع شاه جهان راية العصيان وزحف من « ماندو » فاستقبله أخوه بارويز وأرغمه على التقهقر شرقا حيث التجأ إلى البنغال. وبعد ثلاث سنوات شرع جهان يشن الغارة على أبيه فزحف قاصدا ديكان وهناك انضم اليه عدوه السابق وحليفه الآن مالك عنبر رئيس وزراء احمد نجار

وتولى شاه جان بنفسه قيادة حركة الهجوم على « برهان بار » ولكن دارت عليه الدائرة مرة أخرى بفضل الامدادات التى وصلت بقيادة أخيه بارويز ومعه الجنرال المغولى الشهير « محبة خان ». فلما أن أحس جهان بخيبة الأمل بعد هذا الفشل الثانى كتب إلى أبيه يعرب عن خضوعه ويطلب عفوه. فسامحه ذلك الامبراطور المتساهل ولكن نفاه إلى جهة « نازك » بالقرب من بومباى حيث ظل بعيدا عن البلاط.

ولكن لم يطل به المقام هناك. ففى أقل من عامين اثنين وقعت عدة

حوادث ذات بال غيرت وجه المستقبل أمامه . وأول هذه الحوادث الخطيرة الثورة التى رفع رايتها محبة خان . وثانيها وفاة أخيه بارويز ولى العهد وقد تلا هذا وفاة جهانجير نفسه .

وما كاد الامبراطور يودع هذا العالم الفانى حتى سعت الأميراطورة « نورجهان » إلى اقتناص العرش والاحتفاظ به ليتبوأه « شهريار » وهو الأمير الذى زوجته من ابنتها الوحيدة من زوجها الأول . وكان هذا الأمير مشهورا بجمال خلقته . ومن سوء حظه كان ابن العريكة أكثر مما ينبغى وقد أكسبه حبه الكسل وضعف ارادته لقب الأمير « العاطل » . ونزولا على ارادة حماته الطموحة نورجهان نادى شهريار بنفسه امبراطورا فى لاهور وهى التى لجأ اليها بعد أن جرحه القدر فى دلاله وجماله بتلاشى شعر فروة الرأس والحواجب على أثر مرض أصيب به .

ولكن خطط الأميراطورة حبطت بسبب أخيها اسعاف خان الذى أحس أن الامبراطورة طال حكمها أكثر مما ينبغى . ثم أن ولاءه لزوج ابنته شاه جهان جعله يشد أزره بدلا من شد أزر أخيه الأصغر شهريار .

وهذا ما جعل اسعاف خان يبعث رسوله على جناح السرعة الى جهة ديكان . وفى الوقت نفسه قام بعمل احتياطى بأن نادى بالأمير « بولاقى » حفيد جهانجير من الامير « خوسرو » امبراطورا ولقبه « دوراباكش » أوعطية الآله .

وبعد ان تسلم الخاتم والرسالة اللذين بعث بهما اليه اسعاف خان أعلن جهان الحداد لامد قصير . وبعد أداء هذا الواجب نحو أبيه الراحل شد جهان رحاله قاصدا أجرا حيث اعتلى العرش رسميا فى يوم ٦ فبراير سنة ١٦٢٨ . وقبيل

هذا احتاط اسعاف خان للامر فقبض على شهريار فى لاهور وفقأ عينيه بالحديد المحمى فى النار . وأخيرا أصدر جهان أمره باطاحة رأس هذا الأمير « العاطل » باعتباره مغتصبا للملك . أما مصير دورا باكش على وجه التحقيق فليس معلوما بالضبط . فهناك رواية بأنه فر إلى فارس . ولكن الأمر الثابت هو أنه فقئت عيناه قبل فراره كعمل احتياطى لأن القانون يقضى بأن لايتولى عرش المغول أمير أعمى البصر .

والآن وقد أعدم آخر أخ له على قيد الحياة وأعمى ابن أخيه وقضى بخنق أولاد عمه سلطان « دانيال » الثلاثة فقد وجد جهان نفسه صاحب العرش بلا مزاحم .

ومع أن القضاء على أقاربه جملة واحدة لا يرجح كفة الميزان لمصلحة جهان إلا أنه لا يمكن اتهامه بتعمد ارتكاب القسوة بلا مناسبة . فقد كان بوجه عام حاكما عادلا يسهر على مصالح رعاياه . وبمجرد اوتقائه العرش كانت باكورة أعماله إصدار الأمر باطلاق سراح كافة المعتقلين السياسيين فى سجن الدولة فى « جواليور » . ولما فرغ من هذا شرع يصلح مافسد من شؤون الدولة فى السنوات الأخيرة من حكم أبيه أى عند ما ترك ذلك الملك المتراخى الشبه معتوه شؤون الامبراطورية لتدبيرها نورجهان وأسرتها .

وفى طليعة ما أدخله الأمبراطور الجديد من الاصلاحات ايجاد قوة البوليس للسهر على الأمن فى كافة أنحاء البلاد . وقد عمل على تحسين الشؤون الزراعية كما أنه كان يصغى إلى كل شكوى تصل إلى ساحة عدالته . وقد أشاد المؤرخون الهنود بنظام بلاده وحسن ترتيبه لشؤونه المالية

وقرروا بهذه المناسبة أنه يصح أن يكون فى طليعة الحكام المديدين الذين تولوا شؤون الهند . ولا يذكر التاريخ أن ملكا قبله أو بعده كان له بلاط يدانى بلاطه فى أبهته وعظمته . فلقد كان اسرافه على مقياس معدوم النظير مع أنه كان شحيحا فى معاملاته الشخصية .

وقد أشاد «مانيسى» بذكر جهان كحاكم إذ قال : « إن دعارة شاه جان لم تؤثر فى عنايته بحكم بلاده على الوجه الأكمل . وكان يسير على مبدأ أبيه بأن العدل الحقيق لابد من تنفيذه بمجازاة المحسن ومعاقبة المسىء . وكانت عينه تراقب موظفيه فينزل أشد العقاب بمن يقصر فى أداء واجبه . وهذا هو السبب الذى حمله على أن يستبقى فى بلاطه موظفا يحمل عددا من السلال مملوءة بالافاعى السامة . فاذا ما قصر أحد الموظفين فى أداء العدل بالقسطاس المستقيم أمر بأن تنساب عليه الافاعى فتلسعه إلى أن يفارق الحياة أمامه . كما أن غيرهم ممن يستحقون الموت كانوا يلقون أمام الافيال المعتوهة فتمزقهم اربا اربا » .

وقد روى مانيسى واقعة شهدها بعينيه . وقد كان المتهم فيها من جماعة « كونزال » واسمه محمد سعيد . وكانت قد ثبتت عليه تهمة الرشوة فحكم جهان بأن تلسعه فى اليد أفعى من الأفاعى الهائلة المعروفة « بالكوبرا كابيلو » ولم يغادر الامبراطور مكانه مدة ساعة اى الى أن لفظ المتهم المسكين النفس الاخير .

وقد استطرد مانيسى فذكر نوعا غريبا من العقاب كان يجازى به جهان من يفر من قواده العسكريين من ميادين القتال . ذلك انه لم يكن

يكتفى بايقاع العقاب عليهم وحدهم بل كان يضع ابن عرس فى سراويل نسائهم وبناتهم لاخافتهن وإلحاق العار بهن .

وكان أول حزن أدخل الهم على قلب جهان والزمه الاكتئاب طول حياته وفاة زوجته المحبوبة . أما أولاده الاربعة عشر فلم يبق منهم سوى سبعة على قيد الحياة منهم أربعة أبناء وهم « دارا » و « شوجا » و « اورانجزب » « ومراد بكش » . وقد ولى جهان ابنه السلطان شوجا ليحكم الاقاليم الشرقية ومراد ليحكم جوجارات . أما اورانجزب فقد أرسله إلى ديكان .

والى جانب ما ابداه شاه جهان من هذه المقدرة الأدارية فان حكمه أصبحت له سمعة طبقت الآفاق بسبب ما اشتهر به بلاطه من مظاهر البذخ والأبهة ونظرا لعبقرية جهان المقطوعة النظير كبناء . وقد يخطر إلى ذهنك أن تقدم السن جعل جهان يخفف من حبه للفخفخة ومظاهر العظمة والأبهة . كلا بل كان الأمر على عكس ذلك فان شغفه بتلك المظاهر كان يزداد بتقدم السن . خذ مثلا على ذلك أنه لم يكتف بالأضافات المرمرية البديعة التى أدخلها على قصر المغول فى أجرا وقد كان إلى ماقبل هذه الاضافات آية فى الأبداع وجمال الفن بل أنه راح يبنى قلعة جديدة فى دلهى ويؤخذ من روايات المعاصرين من السائحين وغيرهم أن هذه القلعة فاقت بمراحل كل شىء من نوعها سوا. أفى الهند او فى غيرها من البلدان الأخرى .

ثم لعلك تذكر قصة تخت الطاؤوس الذى مر بك حديثه والذى قدره « تافرنيه » الجوهرى الفرنسي بستة ملايين من الجنيهات .

وبين الأعمال الأصلاحية التى قام بها جهان فأن حفر « قناة رافى » يأتى فى طليعتها .

وبمناسبة ذكرى عيد ميلاد جهان فى يوم ٦ يناير فقد أقام مأدبة شائقة حوت كافة مظاهر الأبهة والعظمة وبعدها بدأ عمل اليوم الحقيقى . فلقد لجأ الامبراطور إلى مخدع خاص مؤثث بأبدع وأفخر الأثاث وبهذا المخدع ميزان هائل الحجم مصنوع من الذهب الوهاج ومطعم بمختلف الأحجار الكريمة . وقد تدلى الميزان من سلسلة ذهبية ضخمة معلقة بالسقف . وقد كان الأمبراطور نفسه ملتفا بملابس خاصة مزركشة بأثمن الجواهر وأبدعها . فدخل فى الميزان وجلس على إحدى كفتيه الهائلتين وقضى بأن يوزن أربع دفعات . ففى الدفعة الأولى وضعت فى الكفة الثانية المقابلة للكفة التى جلس فيها جلالته أكياس مملوءة بالروبيات حتى اذا تعادلت الكفتان سحبت هذه الاكياس وجىء بدلها بما يعادل وزن جلالته من السبائك الذهبية والاحجار الكريمة . ثم فى الدفعة الثالثة بما يعادل وزنه من المنسوجات المزركشة الفاخرة والعقاقير الباهظة الثمن والطيوب النادرة الوجود . وفى الدفعة الرابعة بمختلف المواد الغذائية والحلوى . وقد وزعت هذه الأشياء كلها بين فقراء الشعب الذين رفعوا عقائرهم بحق داعين الله ان يبارك فى عيد الميلاد هذا وان يبقى مولاهم الى أمثال أمثاله .

اما نبلاء الدولة فكانوا على عكس فقراء الشعب . فبعد أن وزعت هذه الهدايا سمح لهؤلاء النبلاء بالمثول بين يدى الامبراطور وتقديم ماجادت به نفوسهم من الهدايا بمناسبة هذا العيد . وكانت درجة اخلاصهم وولائهم لصاحب العرش تقاس بمقدار ما يقدمونه من الهدايا . ولهذا كان كثير منها فادح الثمن بل إن بعضها كان عبئا ثقيلا أبهظ موارد مقدميها . وفى مقابل هذه

الهدايا وزع عليهم الامبراطور حفنة من الفواكه الذهبية والفضية وقد كانت خفيفة الوزن بحيث أن الالف منها لا يزيد ثمنها عن ٥٠ روبية ! فهذا الفرق بين قيمة ما أخذ وما أعطي كان جزءا من نظام دخل الدولة فى عهد جهان شاه .

وكان من عادة جهان أنه إذا وجد خزائنه خاوية على عروشها بسبب مشروعاته الهائلة فى البناء أو بسبب اسرافه المقطوع النظير أن يولى وجهه شطر ممالك الديكان التى كان ثراؤها مثالا تكاد تصدقه العقول . وقد كانت هذه الممالك فى عهد أسلافه من امبراطرة المغول المرتع السهل الذى يلجأ اليه صاحب العرش فيلتقط من الذهب والفضة ماشاء . وقد أصبح غنى سلطنة جولكوندا وحدها مضرب الأمثال منذ عهد بعيد . وقد أتى « تيفينو » على وصف مافى هذه البلاد من الكنوز المكدسة وبخاصة مافى القصر الذى أكد أن مماشيه كانت من الذهب الخالص . ثم أشار الى الحاكم فقال ان الامير كان يلبس فوق رأسه حلية مرصعة من الجواهر يبلغ طولها نحو قدم ولا تقدر بثمن . وهى عبارة عن وردة من أحجار الماس الكبيرة الحجم يتراوح قطرها بين ثلاث وأربع بوصات . وباعلى الورده تاج صغير يتفرع منه غصن على شكل النخل . أما قطر الجزع فلا يقل عن بوصة والطول ست بوصات . وهو مركب من عدة أوراق تتدلى من نهاية كل منها لؤلؤة طويلة بديعة وهى على شكل الكمثرى . وفى أسفل الوردة شريطان من الذهب مرصعان بحجارة الماس الكبيرة يحف بها اطار بديع من اليواقيت وتتدلى من كافة النواحى لآلىء كبيرة الحجم . وهذا الوضع يدل على منتهى سلامة

الذوق . وهذان الشريطان يوضعان حول الرأس ويربطان بمشبك ماس .

وكانت غارة جهان شاه الاولى على ملك الديكان موفقة كل التوفيق . فرصا على انقاذ بقايا شعوبهم من الهلاك التام أرغم السلاطين على أن يجأروا بطلب الصلح بالشروط التى اشترطها الامبراطور . نعم قد سمح لهم جهان بالاستمرار فى الحكم ولكنه حدد سلطتهم بحيث لا تعدو سلطة حكام خاضعين للامبراطور الذى نودى به سيدا على جهات الديكان .

وفى سنة ١٦٥٦ أقنع الامير اورانجزب أباه الامبراطور جهان بأن يشن الغارة مرة أخرى على سلطنة جولكوندا ثم عين اورانجزب ولده محمد لقيادة الحملة التى انتهت باقتراانه بابنة السلطان .

ولسبب مجهول أصبحت أجرا فى بدء حكم جهان مكروهة فى نظره. ومن ثم نقل عاصمته إلى دلهى فظلت مركز بلاطه الفاخر الى سنة ١٦٥٧ وهى السنة التى أصيب فيها بمرض خطر ومؤلم جدا .وقبل ذلك بقليل نادى « بدارا » وهو أعز أبنائه وأحبهم إليه وليا للعهد .

وما كاد المرض يلزم جهان الفراش حتى أصبح دارا يشغل مركز الوصى وكان أخوه مراد وقتئذ فى جوجارت فبادر إلى تحدى شقيقه الأكبر ونادى بنفسه أمبراطورا وأمر بأن تضرب العملة باسمه . ثم ان الأخ الثالث شوجا حذا حذو مراد فى ناحية البنغال وفعلا بدأ يزحف على أجرا .

أما الأخ الرابع أورانجزب فلم يلجأ إلى العداء العانى بل ظل قانعا بتلقى التقارير من أخته روشانارا ـ وكانت أشد إخوانه اخلاصا له وهى التى ساعدته فى مشروعاته الجهنمية ـ هى وغيرها من الأعوان السريين الملحقين

بالبلاط وجعل يرقب سير الأحوال من مكانه فى الديكان .

ومع أن أورانجزب كان بلا جدال أشد أولاد جهان الأربعة جشعا وأوسعهم مطامع إلا أنه تمكن من إخفاء نواياه فى اعتلاء العرش تحت ستار الورع والقنوت بل إنه بالغ فى إظهار تدينه إلى حد تقليد الدراويش فى تقشفهم وملابسهم .

ولما رأى دارا أن أخويه مرادوشوجا قد أعلنا الحرب عليه فقد سارع بنقل أبيه المريض إلى أجرا .

وإلى هناك حول شوجا اتجاهه ولكن اعترض زحفه جيش هندى بقيادة «جاى سنغ» مهاراجا جهة عنبر . فدارت الدائرة على شوجا واضطر إلى الفرار إلى بورما حيث اختفى اسمه من صفحات التاريخ .

ولما أبصر أورانجزب أن القوات الأمبراطورية التى يحشدها دارا سوف تتفوق بلا نزاع على أى قوة معادية قد تتحداه بمفردها لانتزاع العرش منه فإنه لجأ إلى الحيلة ونصب الشراك . فبادر من فوره بارسال كتاب إلى أخيه مراد يخبره باستعداده لمساعدته . وقد أعان هذا الدرويش الكاذب انه يود من صميم فؤاده أن يرى أخاه مراد يتبوأ العرش حتى اذا ما تحققت هذه الرغبة فانه (أى أورانجزب) لايتمنى إلا أن يسمح له بالزهد فى زخرف هذه الدنيا الفانية وأن يتفرغ للعبادة والذكر !

وقد انطلت الحيلة تماما على مراد ووقع فى الفخ الذى نصبه له أخوه فبادر إلى ضم جيشه إلى جيش أخيه أورانجزب وزحفا سويا على أجرا حيث تغلبا على القوات الامبراطورية . فسلمت أجرا للفاتحين حتى إذا دخلوها بادرا

بوضع أبيهما جهان شاه فى السجن فى سنة ١٦٥٨ واضطر دارا إلى الفرار بجلده . وقد تمكن مدة طويلة من تضليل متعقبيه إلى أن أوقعه سوء الحظ فى أيديهم فأصدر أخوه أورانجزب أمره بإحضاره إلى دلهى فى الاصفاد وقد ساروا به فى حالة مزرية فى شوارع مدينة شاه جهان آباد . ثم أعدموه فى السجن فى سنه ١٦٥٨ .

وما كاد يتم التخلص من هذا المزاحم الخطير حتى أمسك أورانجزب بخناق مراد وزج به فى سجن الدولة . وفى سنة ١٦٦٢ قتل ذلك المخدوع البائس فى السجن

فلم يبق إذن من أولاد جهان الاربعة إلا أورانجزب فنصب نفسه سجانا لابيه . وقد ظل ذلك الامبراطور المخلوع — وهو معاصر تشارلس الاول ملك الانجليز — ثمانى سنوات قاسى فيها الامرّين فى سجن أجرا . وكانت ابنته الحسناء جاهنارا ببجام تشاطره سجنه وآلامه . وفى سنة ١٦٦٦ لفظ النفس الاخير وكان ذلك فى برج الياسمين ذلك السلاملك المرمرى الفاخر المطعم بمختلف الاحجار الكريمة والذى كان يحمل ما يحمل من أطيب الذكريات . ثم أمر أورانجزب بأن توضع رفات ذلك الامبراطور الذى أنهكه الحزن فى التاج محل إلى جانب زوجة صباه والتى كانت محبوبته يوما ما .

اورانجزب ١٦٥٨ — ١٧٠٧

ليس فى وسع المؤرخ أن يكون فكرة صادقة عن هذا الامير الذى استولى فى يوم ٢ أغسطس سنة ١٦٥٨ على أعنة الحكم وسمى نفسه الامبراطور محيى الدين اورانجزب علام جير (أى فخر العرش وحاكم العالم) . فإذا ما قيس

الأمر بالنتائج لتبين أن آخر امبراطرة المغول الأربعة كان خفيف الوزن أما من جهة العدالة فان أورانجزب لم يكن يعرف معنى التحيز. وعليه فان أورانجزب وحده هو الذى يعرف البواعث له على عدم التحيز . ومتى كان الأمر كذلك فإن هذا الامبراطور الذى يمجده المسلمون كقديس والذى يكفى ذكر اسمه لأن يشيع الرعب فى قلوب الهنود ، كان هذا الامبراطور يكون ذكره اسمى فى نظر التاريخ لو أنه دعى لاستعراض أعماله أمام محكمين من رجال التاريخ الحديث.

ومن يدرى متى تكشف كافة ما تحتويه الصدور من الاسرار ان أورانجزب لم يكن أسوأ من اخواته الثلاثة ؛ فكل منهم كان يطمع إلى العرش بدون أى التفات الى ما يبذل فى هذا السبيل من الوسائل المؤدية للغاية . فاذا كان فى مسلك أورانجزب ما يعترض عليه فليس ذلك إلا بسبب نفاقه وريائه .

فقد كان يبدى وهو فى ميعة الشباب كثيرا من التورع والزهد فى مظاهر الدنيا وزخرف الحياة . ومع أنه قد لبس مسوح الدراويش وأعلن أنه لا يبغى سوى العبادة والتقشف فانه كان ينصب الشراك ويعد العدة خفية لاقتناص العرش نزولا على شهوة الأنانية . اما أنه كان يطمح اليه لينفذ تعاليم الإسلام على الوجه الاكمل فتلك مسألة جدلية . ولكنه على كل حال كان مخلصا لمظاهره . ذلك انه ظل يحرم نفسه من لذائذ الحياة ونعيمها حتى بعد أن نجحت تدابيره وفاز بالجلوس على العرش . فقد كان لا يتزود إلا بالاعشاب ولم يعرف عنه أنه ذاق الخمر مطلقا . وكان قليل الزاد قليل الرقاد . وكان لا ينام إلا على الارض يغطيه جلد نمر . وكان عدوا لدودا للهو وللفنون الجميلة.

فكان لا يشجع الموسيقيين ولا الرسامين. ولما تقدمت به السنون ازداد شحه.

وكان مسلما من أشد المحافظين على التقاليد. بل انه عمل بوصية النبي عليه الصلاة والسلام بأنه ينبغي على كل مسلم أن يحترف صناعة. ولذا كان أورانجزب يصنع الشباشب والقلنسوات المزكرشة حيث كان يحصل من ثمنها على ما يسد رمقه. وكان من عادته اذا فرغ من شؤون الملك أن يقضي وقت الفراغ في العبادة والوضوء ودراسة القرآن. فلا عجب اذا كان المسلمون لا يزالون يتكلمون عنه باعتباره قديسا وخاصة أولئك المسلمين الذين خلطوا بين التنطع في الدين والديانة.

وبالرغم من أنه كان متزوجا من أميرتين هنديتين فانه كان متعصبا أو غل في اضطهاد دين الأغلبية الكبرى من رعاياه. ففي «موطرا» و «بنارس» وغيرهما أمر بهدم كثير من المعابد وإقامة مساجد في مكانها. ثم قرر إعادة فرض الجزية على من لا يعتنقون الدين الاسلامي وشغل الوظائف العامة بالمسلمين مفضلا اياهم على الهندوس.

وكان من الناحية الأخرى من أكبر وأسخى مشجعي التعليم بل كان نفسه مولعا بالعلوم. وكان واسع الاطلاع في الأدب هذا فضلا عن مقدرته على التكلم بالفارسية والعربية ولغة اسلافه المغول. ولكنه برغم هذا كله كان متعصبا قليل التفكير. وقد أدى تنفيره لرعاياه الهندوس الى ايجاد التشاحن والتنابذ في تلك الامبراطورية المتحدة التي صقلها «أكبر» وحد صفوفها بما اتبعه من سياسة حرة سخية متنورة وما اليها من عواطف ورقيقة تسع كافة أنواع الناس.

ولقد اثبت أورانجزب فى مذكراته الصفات التى وصفه بها أبو مجهان اذ قال : « ان أورانجزب متفوق فى العمل وفى الرأى وهو يصلح تماما للاضطلاع باعباء الشؤون العامة . ولكنه مملوء بالارتياب الماكر ولذا لا يحتمل أن يعثر على من يستطيع الوثوق به » .

وكان أورانجزب فى بداية حكمه الذى قدر ان تكون له تلك النتائج الخطيرة — فى الوقت الذى أعيد فيه تشارلس الثانى ملك الانجليز الى العرش — وهو الذى عمل لتدعيم مركز شركة الهند الشرقية الشريفة أكثر من كل اسلافه . فالشركة مدينة لتشارلس الثانى فى حصولها على جزيرة بومباى المهمة . فبعد أن رسخت أقدامها فى تلك الجزيرة ذات الموقع الحربى الخطير ولثقتها بان حكومة المغول ليس لها أسطول نظامى فانها اجترأت على اعلان الحرب على أورانجزب فى سنة ١٦٨٧ . وسرعان ما أصبحت المستعمرات الانجليزية فى الهند فى حالة ضنك شديد دفع الشركة الى أن تعلن للامبراطور اعتذارها المزرى بالكرامة . فاراد هذا أن يزيد الطين بلة وإن يضاعف ذلهم فارغمهم على دفع غرامة فادحة وطرد الجنرال تشيلد مندوبهم فى بومباى . وإذا استثنينا السفن التابعة للجاليات البورتغالية والهولندية والانجليزية لرأينا أنه لم تكن فى سواحل الهند قوة بحرية الا القوة التابعة «للسيدى» وهى جالية حبشية مستقلة كانت تؤجر أسطولها لأورانجزب من آن لآخر لاستعماله فى الشاطىء الغربى لشبه الجزيرة الهندية .

وقد جاء حكم أورانجزب مصداقا للقول بان طول الحكم ليس معناه قوة الحكم وتوطيد دعائمه . وقد ترك لنا الدكتور «فرانسوا بيرنيه» الطبيب

الفرنسى الملحق بالبلاط صورة ماثلة عن سير الأمور فى عهد أورانجزب اذ قال :« كان هذا الحاكم المغولى العتيد غريبا فى هندستان. ولذا لم يكن عجيبا أن يجد نفسه فى بلاد معادية لا يوجد فيها مغولى واحد بل مسلم واحد ازاء كل مائة هندوسى . . . والبلاط الآن ليس مركبا ـ كما كان فى أول الأمر ـ من المغول الحقيقيين بل من خليط من اليزبج والفرس والعرب والاتراك أو من سلالتهم . . . . ولا ينبغى أن يتبادر إلى الذهن بان الاشراف فى بلاط المغول من سلالة أسر عريقة كما هو شأن اشرافنا فى فرنسا بل جلهم جماعة من المخاطرين من أبناء الأمم الاخرى الذين حرض كل منهم الآخر واطمعه فى الانخراط فى سلك البلاط وهم فى الغالب من سلالات حقيرة . بل لقد كان بعضهم أرقاء فعلا . فالحكم المغولى يرفع أمثال هؤلاء الى أعلى الدرجات وأسماها أو يخفضهم الى الحضيض كما تشاء أهواؤه . . . وقد حل بالبلاد الخراب من جراء ضرورة دفع النفقات الباهظة اللازمة للاحتفاظ بابهة هذا البلاط الذى يوجد به عدد كبير من الموظفين ودفع مرتبات جيش هائل يراد به اخضاع الشعب وكتم أنفاسه . وليس فى الاستطاعة اعطاء فكرة صحيحة عن مبلغ مايقاسيه هذا الشعب من فادح الأهوال » .

ولما حلت السنة الاخيرة من حكمه الذى لبث خمسين عاما كان أورانجزب منهمكا فى حرب لا طائل لها أشعل نارها فى جهات الديكان . وقد كتب إلى أحد أبنائه قبل وفاته فقال . « . ان الفترة التى قضيتها فى كرسى الحكم لم تترك وراءها الا غصة . انى لم أكن لا حارس ولا حامى الامبراطورية بل قضيت وقتى الثمين عبثا . » وإلى ولد آخر كتب يقول : انى أغادر هذا

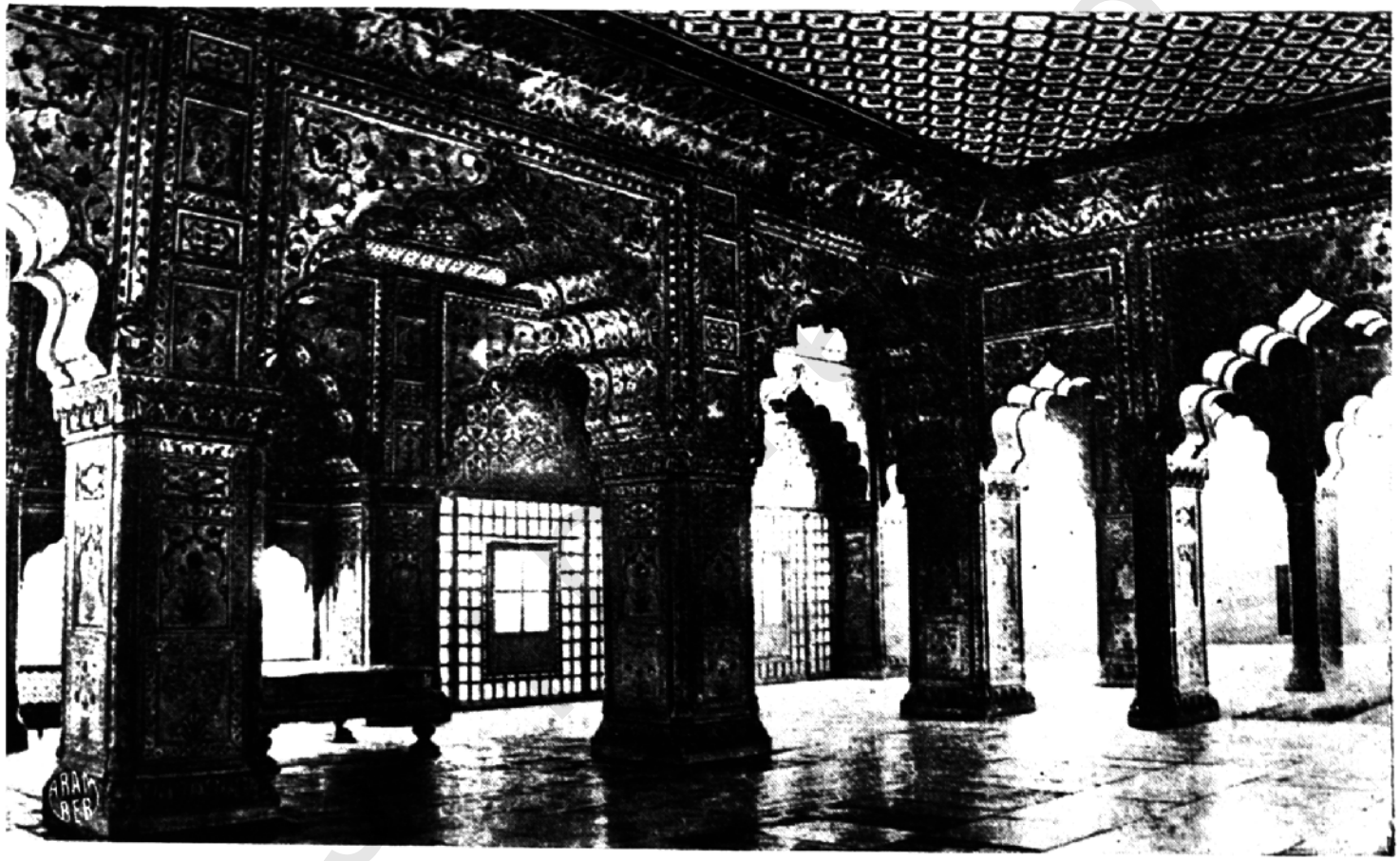

الديوان الخاص — قلعة دلهى

العالم واحمل معى ثمار خطاياى . فاينما وليت وجهى لا أرى الا الله . . . لقد ارتكبت أوزارا لا حصر لها ولست أدرى ماذا عسى أن يكون عذابي على تلك الذنوب ».

وأخيرا فاضت روحه فى يوم الجمعة ٢١ مارس سنة ١٧٠٧ وهو فى سن السابعة والتسعين . وكانت آخر كلماته « ما أسعدنى إذ أموت فى يوم الجمعة . وانه لسعيد حقا كل من يموت فى هذا اليوم » .

وبوفاة أورانجزب آخر عظماء المغول أخذت الامبراطورية فى الانهيار السريع لان من خلفه من الحكام كانوا اما ضعفاء أو أشرارا فاسدين وفى كلتا الحالتين كانت النتيجة واحدة. فقد ضربت الفوضى أطنابها وأصبحت البلاد من أقصاها إلى أقصاها هدفا لمطامع المخاطرين المسلحين . وكم من مرة هوجمت دلهى وانتهبت وأصبحت على حافة الخراب . وفى الوقت نفسه بدأ كوكب الحكم الهندوسى يسطع من جديد فى أشخاص ماراثا . وكان يلوح أن تفوق « ماهابهاراثا » سوف تتوطد دعائمه قريبا ولكن النتيجة الحاسمة ظهرت فى معركة بانيابات الشهيرة التى سطع فيها نجم الجيوش الإسلامية ودحرت الجيوش الهندية وأنزلت بها خسائر فادحة.

نيو دلهى

لعل أهم ما يلفت النظر فى دلهى القرن العشرين كما وضع رسمها السير أدوين ليوتينز الطريق الرئيسية تحف بها ساحات خضراء واسعة على الجانبين وصفوف الأشجار والصهاريج المنخفضة المملوءة بالماء وتقع فى طرف المدينة

البعيد قلعة هومايان القديمة وهى بمثابة همزة وصل بين نيودلهى وبين الماضى التاريخى .

وإلى الغرب وعلى بعد ثلاثة أميال يرتفع بناء السكرتيرية الشاهق وتمتد بين برجيه وأجنحته الهائلة طريق شاسعة توصل إلى مسكن نائب الملك وقد شيد على أرض مرتفعة . وإلى شمال بناء السكرتيرية مباشرة توجد دار المجلس العظيمة أو عمارة البرلمان التى فتحها «لورد أروين» فى ١٨ يناير سنة ١٩٢٨ . ورسم المدينة مأخوذ عن بناء «الكولوسيم» فى روما . ويوجد فى الداخل مكان رحب لمجلس الأمراء ومجلس الدولة والجمعية التشريعية . والمجلس الأول من أبدع صالات الهند فى الوقت الحاضر بما يحتوى عليه من أنواع الخشب المحفور عدا الزخرفة بالأحجار الملونة . ويتسع مجلس الأمراء لستة وثمانين عضو بينما يسع مجلس الدولة ٩٢ والجمعية التشريعية ١٦٢ .

وتمتد من المدخل الرئيسى طريق متسعة تصل إلى المسجد الجامع وهكذا ترتبط نيودلهى بالماضى برابطة أقوى وهذا الارتباط بمثابة تحية ورمز احترام تقدمهما نيودلهى الفتية إلى أسلافها العديدات .

وليس من شك فى أن عاصمة الهند الجديدة مدينة جميلة ولكن تنقصها فى أعين الجيل الحاضر الروح . فالذكريات المرتبطة بمدن دلهى القديمة التى عاشت وتحملت من الارزاء والتقلبات ما تحملت إلى ان تلاشت كل هذه الذكريات تكسب المدينة سحرا لا يمكن للعاصمة الجديدة أن تمحوه . ولنسلم جدلا أن الشوارع فى الماضى لم تكن بهذا الاتساع ولا الحدائق تروى بهذه الأساليب العلمية ولا كانت مرتبة ومنسقة ولا المنازل صحية كما هو شأنها الآن — نقول ليكن كل هذا فيتبقى أنها لا تجتذب انظارنا كما تفعل

الآثار القديمة. إذ قل لى بربك أى بناء حديث مثلا يمكن أن يثير الاشجان كما يثيرها منظر « منار قطب » ذلك البرج القديم الذى شيده قطب الدين فى سنة ١٢٠٠ ميلادية ؟

فان هذا الحاكم الذى أسس ما يسمونه اسرة « ملوك العبيد » قد خلد ذكرى انتصاره على « بريتفى راى » آخر ملك هندوسى فى دلهى بانشاء عاصمته الجديدة على اطلال مدينة سلفه . وما كاد يتم هذا التغيير حتى حلت المساجد محل معابد « فيشنو » . ونزولا على أمر الفاتح هدمت الاصنام القديمة وابعدت إلى خارج البلاد وحظرت عبادتها وعوقب من يعبدها بالاعدام . وفى مكان النواقيس والمصابيح والطيوب والزهور الذكية صار المؤذن يدعو المؤمنين إلى الصلاة بقوله لا إله إلا الله محمد رسول الله فى مساجد تذكرنا بساطتها ببساطة « الطهريين » ولم يكن هذا كل ماهنالك فان حساما مهما كان قاطعا ما كان يسعه وحده أن يرغم الهنود على بكرة أبيهم باتباع التوحيد وتفضيله على دينهم القديم الذى ورثوه عن أسلافهم منذ أقدم عصور التاريخ . وعلى انه نشأت بوجود الفاتحين لغة مختلطة تسمى لغة الأوردو أو الهندستانى كما قامت فى آخر الأمر حكومة مركزية قدر لها أن تحكم مؤقتا الشطر الاكبر من بحيث الجزيرة الهندية .

وفى سنة ١٦٢٨ اعتلى شاه جهان العرش كما أسلفنا . وقد شاء فى السنوات العشر الأولى من حكمه أن يعيد دلهى إلى سابق عهدها كعاصمة هندستان . وقبل أن يبت فى المكان الذى ينشىء فيه مدينته الجديدة ذهب لزيارة الأراضى المجاورة عدة مرات ليستعرض أمام عينيه الناقدة بقايا تلك

العواصم القديمة التى قامت فى عهد « اندرابراستا » ثم دلهى فى عهد أمراء « باندافا » الخمسة ودلهى الهندوسية التى كان يسيطر عليها « برتفى راى » وهى التى كان لا يزال يشرف عليها منار قطب ثم دلهى « طوغلاق آباد » و « جهان بانا » و « سيرى » و « فيروز آباد » .

وأخيرا وبعد استشارة رهط المنجمين وافق جهان على أن تقوم المدينة الجديدة على ضفة نهر جومنا الغربية على بعد خمسة أميال فى شمال العاصمة والقامة القديمة حيث قضى «هومايان» أبو جده الأشهر الأخيرة من حكمه العاصف .

فأشارت النجوم والكواكب إلى يوم الجمعة التاسع من شهر محرم سنة ١٠٤٨ هجرية (الموافق سنة ١٦٣٨ ميلادية) باعتباره اليوم المناسب للشروع فى البناء . وفى ذلك اليوم وضع الحجر الأساسى للقلعة . وبعد تسع سنوات تم بناء المدينة . ولما كان الأمبراطور متغيبا وقتئذ فى كابول فقد أرسلت اليه الأنباء السارة بانتهاء البناء فبادر بالاسراع اليها ودخلها فى موكب رائع . ولاظهار ارتياحه لما تم فقد سماها « شاه جهان آباد » .

وأحيطت المدينة بناء على تعليماته بسور شاهق من الحجر الأحمر يبلغ محيطه خمسة أميال ونصف تتخلله عشر بوابات وهى بوابة « كلكتا » إلى الشمال الشرقى بقرب القصر وتؤدى إلى محطة السكة الحديدية الحالية وبوابة « مورى » إلى الشمال وبوابة « كابول » إلى الغرب فى مقابل سوق « سادار » وهى طريق الخروج من سوق شاندنى وبوابة « فراش خانة » إلى الجنوب الغربى وبوابة « أدجمير » الى الجنوب الغربى أيضا وبوابة «التركمان» إلى الجنوب وبوابة «دلهى» إلى الجنوب أيضا وبوابة «راج» إلى الشرق وتشرف على النهر.

ولقد تركزت علامات المجد وآيات الفن فى القلعة . وهى مركبة من سور حجرى محيطه ميل ونصف ويدخلها الانسان ببوابتين هائلتين رائعتين وهما بوابة « لاهور » وبوابة « دلهى » .

وقد لبثت دلهى عاصمة للهند منذ حكم شاه جهان الى وقت سقوط اسرة المغول فى سنة ١٨٥٧ ثم اغتصبت كلكتا مركزها مدة نصف قرن إلى أن حان موعد تتويج جلالة الملك والأمبراطور جورج الخامس فى سنة ١٩١١ فعاد إلى دلهى مجدها القديم . وعلى أثر النطق السامى بأن دلهى صارت من جديد عاصمة الهند صدر مرسوم بانشاء مدينة جديدة تتلاءم مع المقتضيات العصرية الحديثة .

عدد سكان دلهى

وقد دل احصاء سنة ١٩١١ على أن عدد أهالى دلهى ٨٣٧ ر٢٣٢ نسمة . وكان يقطن نصف هؤلاء السكان داخل سور المدينة بينما كان النصف الآخر موزعا بين المحطة المدنية فى الشمال وبين الضواحى فى الغرب والجنوب وهى ضواحى « سابزى مندى » ، و « سوق سادار » ، و « بهار جانج »

المناخ

وبينما تتمتع معظم بلاد العالم بتوالى الفصول الأربعة فان التاريخ الهندى لا يختص دلهى إلا بثلاثة فصول فقط وهى مقسمة إلى فصل الجفاف ثم فصل الامطار ثم فصل البرودة .

فالأول يبدأ فى ٢٠ فبراير ومن خواصه هبوب رياح حارة مصحوبة بارتفاع فى درجة الحرارة . والفصل الثانى يبدأ فى ٢٠ يونية وتبدأ رياح

المونسون وأمطارها من ذلك التاريخ . اما الفصل الأخير فيبدأ في ٢٠ اكتوبر عندما تهبط حرارة الجو وتهب رياح شمالية شرقية سوداء ينخفض معها « الترمومتر » الى درجة ٤٧ فاهرنهيت وأحيانا الى درجة التجمد .

الفنون والصنائع

اشتهرت دلهى منذ أقدم عصور التاريخ بفنون صياغها . فهم ماهرون بصفة خاصة فى حفر التحف وليس بجاريهم أحد فى صنع الحلى المركبة من الشيم مثل العلب التى تعلق بالقلادة أو الدلاية أو دبابيس الصدر المموهة بالذهب والمطعمة بالأحجار الثمينة على أشكال الطيور أو الزهور .

والمدهش حقا هو ان شعبا مقتصدا فى ذوقه كالشعب الهندى وشحيحا فى عاداته يكون كثير الشغف بالجواهر والمظاهر التى تنطوى على الاسراف .

وقد برع صياغ دلهى فى التفنن فى وضع « تركيبات » جميلة للصور المصغرة المعروفة فى كافة أنحاء العالم باسم صور دلهى الملونة . وهذه الصور على الطراز الفارسى وقد جاءت بلا ريب إلى الهند من فارس . وهذه الصور تمثل امبراطرة المغول وبخاصة أكبر وجهانجير وشاه جهان ثم أميرات القصر الامبراطورى وبين الأخيرات توجد الامبراطورة نور جهان قرينة جهانجير الممتازة وابنة أخيها ممتاز محل وهى السيدة المدفونة فى تاج محل فى اجرا .

وهذه الصور مرسومة على العاج بشكل دقيق مدهش . فاذا ماحولت الى مجوهرات رصعت فى علبة تعلق بالقلادة أو الى دبابيس للصدر أو الى سوار للعضد . وليس يوجد فى كافة أنحاء الهند لا الآن ولا من قبل مايفوق أعمال النقش فى دلهى .

وهناك شيء آخر اختصت به العاصمة الا وهو الحفر فى الخشب أو فى العاج. هذا بينما أن ذكر شغل التطريز الوارد من دلهى يغنى عن الوصف.

ولا تسل عن شغل الأبرة المدهش على القطيفة أو الاطلس أو الجلد أو حول الشيلان المشهورة الواردة من كشمير.

أما أعمال التطريز بالذهب أو بالفضة التي اشتهرت بها دلهى فهى ليست من طراز الهند بل من طراز فارس. وهناك صناعة منتشرة لتطريز الثياب الفاخرة الخاصة بالأعياد للرجال والنساء.

وصناعة طلى الخزف من الصناعات المشهورة فى دلهى. وليس منشأها فى الهند لأن تاريخها لا يعود إلى أبعد من سنة ١٢١٢ ميلادية عند ما فتح جنكيز خان الصين فأدى هذا الى دخول فن طلى الاوانى إلى الهند ومنها انتقل الى أوربا.

ويوجد بالطبع فى كل قرية من قرى الهند «الفخرانى» الخاص بها. أما الطلاء الذى يستعمله الفخرانى فيطبق بواسطة الحجر.

ويرجع السبب فى تهافت الهنود على الفخار فى منازلهم الى تفورهم من استعمال الآنية الواحدة أكثر من مرة ولذا يعتبر الفخرانى من المعاهد الوطنية وله حيثية اجتماعية معترف بها ويعود تاريخه الى أيام « مانو ».

أما القرميد المطلى القديم فلا يوجد إلا فى المبانى الاسلامية. وكان شكله فى بدء استعماله أزرقا كلون حجر « التركواز ». أما تعدد ألوان القرميد وهو ما عم استعماله فيما بعد فانه نشأ فى عهد امبراطرة المغول أى من سنة ١٥٥٦ الى سنة ١٧٥٠

الفنون والصنائع فى عهد المغول

يبدأ عهد المغول تاريخيا من سنة ١٥٢٥ عند ما نادى « بيار » بنفسه إمبراطورا على هندستان فى قلعة أجرا لغاية سنة ١٨٥٧ عندما خلع فى دلهى آخر ملك من هذه السلالة . أما من ناحية الفن المعمارى فان هـذه المدة تنقص عن هذا بكثير ويمكن أن يقال أنها بدأت بأكبر (١٥٥٦ — ١٦٠٥) وانتهت بوفاة ابن حفيده اورانجزب (١٩٥٦ — ١٧٠٧) .

ولم تـكن هناك إمبراطورية مغوليـة قبـل ظهور أكبر ثالث امبراطرة المغول فى هندستان. إلا أن سلفيه المباشرين هومايان وبيار لم يكن لهما من شغل شاغل سوى بذل كل ما فى استطاعتهما من الجهود لتكوين هذه الامبراطورية التى أصبحت بفضل حكمته وسياسته الرشيدة فى مصاف الدول الكبرى.

فأكبر إذن هو أول المغول العظام واورانجزب آخرهم . فاذا ما تكلم الانسان عن فن المعمار وأشار الى عهد المغول فأغلب الظن أن تكون الاشارة إلى بناء شيده أحد أولئك الملوك العظام وهم أكبر وجهانجير وجهان وأورنجزاب.

وتنقسم مدرسـة الفن المعمارى فى عهد المغول الى طبقتين . فبعض الثقاة يفضل أن يطلق على الطبقة الأولى اسم «الطراز الهندوسى الاسلامى» المختلط الشائع فى الهند العليا . وفى هذه الطبقة توجد المبانى التى شيدها اكبر وجهانجير بين سنتى ١٥٥٦ و ١٦٣٠ ومعظم هذه المبانى من الحجر الأحمر ، وتمتاز بما تحتويه من ضروب الحفر البديع الفائق الجمال حيث تمتزج الاشكال

الهندسية بالأشكال والزهور مما يحتاج الى مقدار هائل من مهارة الصناعة اليدوية المصحوبة بالدقة الفنية . هذا الى المداخل والمخارج المموهة بالذهب وبالألوان الزاهية . ثم أن شكل القباب وما يتوج السقوف والبوابات من الأكشاك الصغيرة التى لا حصر لها — كل أولئك هو من مميزات الطبقة المتقدمة .

أما الطبقة المتأخرة فتختلف عن سابقتها اختلافا محسوسا . فهى تشمل الواجهات المرمرية التى شيدها شاه جهان فيما بين ١٦٤٠ و ١٦٥٨ . وكانت الأساليب الفارسية هى السائدة فى هذا العهد وهى أساليب أدخلها إلى الهند صناع الموزيك . وبينما قنع والدجهان وجده ببناء قصورهما من الحجر الأحمر فان جهان لم يقنع إلا بالمرمر الناصع البياض المطعم بالأحجار الكريمة .

ويأتى فى مبانى المغول المهمة ضريح همايان فى دلهى . ولعل همايان نفسه هو الذى بدأ بتشييد الضريح أو على الأقل كان هو الذى اختار موقعه وخطط الحديقة على فكرة أن تضم ضريحه فيما بعد . لأن ابنه اكبر هو الذى أتم بناء الضريح كما ان اكبر هو الذى بدأ بناء ضريح نفسه فى حديقة « بهيشتباد » فى مدينة « سيكاندارا » بالقرب من أجرا وترك لابنه جهانجير مهمة تكملة الضريح . ولعل أجمل أمثلة فن المعمار فى عهد « أكبر » ضريح جهانجير فى قلعة أجرا والقصور والواجهات الدينية فى جهة « فتح بور سكرى » .

وعلى العكس من تعليم النبى عليه الصلاة والسلام التى توصى بعدم ارتفاع الضريح عن سطح الأرض أكثر من قدم واحد ومنع بناء « مقام » فوق الضريح فقد كانت عادة كل ملك تتارى أو مغولى كلما تقدمت به

السنون أن يشيد لنفسه ضريحاً ومقاماً هائلا وان يحيطه بحديقة غناء فى داخل أسوار مرتفعة تخترقها بوابات هائلة . وإلى جانب الضريح أقيم مسجد للصلاة على روح ساكن الضريح . فلهذه العادة تشعر الأبدية بدينها بما يزين العالم اليوم من أفخم وأروع الأبنية العظيمة وبخاصة تاج محل الذى شيده جهان فوق رفات زوجته المحبوبة فى أجرا .

ويختلف جهانجير عن أبيه وعن ابنه فى هذا النحو . وهو أنه لم يكن من عظماء البنائين بل أن أهم ما أتمه من الأبنية التى لم تعبث بها يد الزمان ضريح أبيه أكبر وضريح حميه اعتماد الدولة . وقد بدىء بانشاء الضريح الثانى فى سنة ١٦١٥ ولم يتم العمل فيه إلا فى سنة ١٦٢٥ . ويعتبر هـذا الضريح سابقة جرى عليها جهان فيما أدخله من طراز البناء فيما بعد من حيث أنه مطعم بالأحجار الكريمة ويحتوى على مرمر موزيك متعدد الالوان .

بين دلهى وأجرا

يستطيع الانسان بعد كل ما أجملناه له من تاريخ الهند فى عهد أمبراطورة المغول وما بلغته من الشأو البعيد فى الحضارة فى أيام أولئك الملوك العظام كما تدل على ذلك آثارهم الفخمة التى قل أن يماثلها شىء فى العالم — أقول يستطيع الانسان بعد كل هذا أن يقدر الأثر الذى تركته فى نفوسنا هذه الزيارة لدلهي . وقد عقدنا النية بعد أن أشبعنا نفوسنا بمشاهدة هذه الآثار التى هى بمثابة آية ناطقة على عظمة تلك الأيام الخالية أن نغادر دلهى فى اليوم التالى وهو اليوم العاشر من شهر سبتمبر قاصدين أجرا .

١٠ سبتمبر

ففى منتصف الساعة التاسعة من صباح اليوم العاشر خرجنا بعد طعام الأفطار قاصدين المحطة . ولفتت انظارنا فى محطة دلهى ابتسامات الموظفين وكثرة غدوهم ورواحهم ومرورهم بالانسان ومبادرته بالسلام بغير مناسبة ولم تكن كل هذه الابتسامات والحركات خالصة لوجه الله بل كانت لوجه البقشيش فأدركنا المغزى وعرفنا السبب فبطل العجب . وفى الهند يكثر السلام على الانسان وهو سلام مصحوب بابتسامة لها معناها الذى لايخفى على اللبيب.

ولما أذنت الساعة التاسعة تحرك بنا القطار فلاحظنا أن الأراضى مابين دلهى وأجرا حجرية قليلة الزراعة كما لاحظنا فى جهات متعددة حقول القطن . وقد قيل لنا أن الأمطار كانت قليلة فى ذلك العام مما أدى إلى عطش الأرض .

فى أجرا

وعند الظهر تماماً وصلنا إلى أجرا . فأبصرنا فى محطتها ثلاثة من الخدم ومركبتين قديمتين تجرهما الخيل أرسلهما لنا صاحب الفندق الذى انتوينا النزول فيه . فاحتججت وطلبت سيارة ولكن الدليل بين لى أن السيارات قليلة فى أجرا وهذا ما يجعل سائقيها يتقاضون أجوراً باهظة فلا يسع طالب السيارة إلا أن يدفع الأجر الباهظ أو يعدل عن ركوبها .

والفندق هنا أقل استعداداً من فندق دلهى وهو كثير الشبه بفندق بنارس أى أنه من فنادق الدرجة الثالثة وإنما يختلف عنه بوجود الكهرباء فيه وتجهيز الحجر كافة بالمراوح الكهربائية وهو منشأ

منذ ٦٠ عاماً . ومع أن حجره صغيرة فكلها مزودة بمواسير الماء .

وفى منتصف الساعة الثانية تناولنا طعام الغداء واسترحنا قليلا لأن الحرارة كانت شديدة بحيث لايمكن مغادرة الفندق قبل الساعة الخامسة .

ولقد سأل مختار افندى الدليل عن السر فى تقديس الهنود للبقر وتفضيله للجاموس مع ما اشتهر به النوع الاخير من كثرة اللبن وجودته وجودة المسلى المستخرج منه . فأجابه الدليل أن الهنود يعتقدون أن الروح متى فارقت الجسم وصعدت إلى دار النعيم التقت بنهر عظيم أمامه ثور ضخم فمن تعلق بذنب هذا الثور فاز باجتياز هـذا النهر وأصبح من الناجين وضمن الوصول إلى دار النعيم والخلود فيها . أما الجاموس فمن عادته المكث فى المياه لذا يعتقد الهنود أن التعلق بذنبه قد يترتب عليه البقاء فى المـاء وإذن يصبح الانسان من الهالكين !!

وعند الساعة الخامسة سارت بنا المركبة لرؤية مايستحق الزيارة فوجدنا المدينة مهجورة وطرقها غير معبدة ولذا كان ركوب العربة غير مريح . ولقد صممت بعد ما رأيته من قذارة المدينة وتراكم الأوساخ فى طرقها العامة أن لاأطيل المكث فيها وخاصة فأنه لاتوجد أماكن يقصدها الانسان للتنزه سيراً على الأقدام .

وقد سلكنا الطريق المؤدية إلى « عليكرة » أى مقر الجامعة الاسلامية الكبرى . وزرنا فى طريقنا ضريح « اعتماد الدولة » جد « ممتاز محل » الامبراطورة الشهيرة . ويعد مدخل الضريح آية فى الجمال والابداع وهو من الحجر الأحمر المطعم بالمرمر . ولكن نفسى بدأت برغم هذا تمل من

كثرة رؤية الحجر الأحمر وبدأت تفضل الأبنية المصنوعة من المرمر الأبيض .

ولاحظت هنا كما لاحظت فى دلهى أن كافة الآثار معتنى بها وفى غاية النظافة ولا عجب فهى تحت إشراف الحكومة ويقف على كل باب منها عدد من قدماء المحاربين الهنود .

ضريح اعتماد الدولة

كبير وزراء جهانجير ووالد نورجهان قرينة جهانجير وصاحبة الشوكة والسلطان على نحو ما مر بك . والضريح قائم على ضفة نهر جومنا اليسرى وقد شيدته الأميرة نورجهان لأبيها وأمها . وهو من المرمر الأبيض المطعم بالاحجار النفيسة الملونة . والمشربيات والشرفات كلها من المرمر الابيض ومصنوعة صناعة دقيقة بحيث تشبه « الدنتلا » . أما الاسقف فهى ملونة بالالوان الهندية . وعندى أن السقوف العربية تفوقها بكثير من حيث البهجة والحسن .

ويختلف ضريح اعتماد الدولة عن الاضرحة ذات القباب المألوفة فى عهد المغول من عدة نواح . وهناك أسباب عديدة تكسب الضريح أهمية ولعل أحدها يرجع الى أنه ضريح اعتماد الدولة جد ممتاز محل الامبراطورة المشهورة

ولاعتماد الدولة تاريخ ظريف رأينا أن نجمله هنا للتسلية والعبرة . فقد خرج وهو فى شرخ الشباب من فارس هائما على وجهه تصحبه قرينته وأطفاله الصغار . وقد يمم وجهه شطر الهند يبتغى فيها المكسب والمعاش .

وكان له قريب فى بلاط الامبراطور المغولى فملل نفسه بالامل بأن تخدمه الروابط العائلية وتمهد له طريق المجد . وبينما كان يجتاز صحراء السند ومغاورها نفدت منه المؤونة وأصبح هو وأسرته على حافة الهلاك . وفيما هو يقاسى الأمرين لايعرف أين تقذف به الأقدار فى تلك الصحارى الجرداء إذا بأمرأته قد جاءها المخاض ثم وضعت له بنتاً. ولما كان شبح الجوع قد ظهر للأسرة فقد عقد الأبوين البائسين العزم على ترك هذه المولودة الجديدة وحيدة فى البرية . وفعلا نفذا عزمهما بأن وضعاها تحت شجرة وتركاها لرحمة الأقدار . وكلما بعدت الشقة بين الأم وطفلتها الصغيرة كلما تضاعفت غصصها وتحركت فيها غريزة الأمومة . فلما أعياها الأمر وأصبحت لاتطيق صبراً على فراق فلذة كبدها التفتت إلى بعلها تستعطفه فى العودة إلى التقاطها مهما كانت العواقب . ففعل . ولشد ما كان فزعه عند ما لمح أفعى هائلة تقترب من الشجرة فقفز إلى الطفلة والتقطها قبل أن تصل إليها الافعى وردها إلى ذراعى أمها . وما كاد يفرغ من عمله هذا حتى مرت بهم قافلة اخذتهم معها وهكذا انتهت متاعبهم واحزانهم .

وما كاد اعتماد الدولة يهبط بلاط أكبر حتى تجلت مواهبه وعبقريته وسرعان ما أغدق عليه الامبراطور النعم والرتب الرفيعة . وبعد أن كان اسمه مجرد «ميرزا غياث الدين» أصبح يلقب «باعتماد الدولة» وهو اللقب الذى أصبح علماً عليه . أما الطفلة التى ولدت فى الصحراء فقد ترعرعت ونمت وأصبحت على جانب عظيم من الجمال ورجحان العقل . وشاء أبواها أن يسمياها باسم موسيقى فاختارا لها اسم « مهر النساء » . وأبت الأقدار أو

الصدف الا أن يراها الأمير سليم ولى العهد ـ جهانجير فيما بعد ـ فعلق قلبه بها واحبها حباً شديداً ولكن أكبر — لسبب ما — لم يوافق على زواجها بالامير بل زوجها إلى «شرف خان» أحد قواده المشهورين وأرسلها إلى البنغال .

غرام الأمراء

ولكن لا الزمن ولا طول الغيبة اطفآ حرارة غرام الأمير . فما كاد أبوه اكبر يسلم الروح ويعتلى العرش مكانه باسم جهانجير حتى أرسل من فوره إلى القائد فى البنغال يأمره أن يطلق زوجته فرفض شرف خان . وكان هذا الرفض بمثابة الأذن بإهراق دمه .

فى العام الثانى من حكم جهانجير ارتفعت الشكوى ـ سواء أكانت بحق أم بغير حق ـ من سلوك شرف خان بصفته حاكم «بردوان» ! وفى الحال صدر أمر الامبراطور بتعيين الشيخ «خوبو» أخيه فى الرضاع نائبا للملك فى البنغال وزوده بالتعليمات اللازمة بمعاقبة المذنب ، فصدع نائب الملك بالأمر . فطلب أن يحضر اليه شرف خان . ونشب بينهما نزاع اسفر عن طعن شرف خان للشيخ خوبو طعنة أردته قتيلا . وماهى إلا لحظة حتى خر شرف خان قتيلا بطعنات خناجر عدة . وفى الحال صدر الامر بنقل الارمل وطفلتها الى قصر الامبراطور حيث أعد لها جناح بالقرب من الامبراطورة الأرمل السلطانة « رقية بيجام » إحدى أميرات اسرة تيمورلنك .

وإطاعة لميول الامبراطور الغريبة أنزلت هذه المرأة التى ألهبت وهى عذراء فؤاده وعصف حبها بقلبه فى أحقر مكان فى قسم الحريم . وكان حسبها

الكفاف أو دون مايقوم بأودها هى وطفلتها وبعض أتباعها . بل لقد لهجت الألسن بأن « مهر النساء » لجأت إلى شغل الأبرة الدقيق للأميرات انسد عوزها .

وصبرت ابنة اعتماد الدولة المهذبة البارعة فى الجمال سنوات أربع على هذا الضنك إلى أن دعيت ذات يوم للاشتراك فى حفلة عيد النيروز . وهنا استرعت نظر الامبراطور . فما كادت عينه تقع عليها حتى استيقظ هيامه القديم بها وكانت مهر النساء وقتئذ فى سن الرابعة والثلاثين . ومن ثم قرر الاقتران بها فأقيم بهذه المناسبة مهرجان رائع وأصبحت تسمى « نورمحل » وظلت الامبراطورة أقرب نسائه إلى قلبه الى أن لحق الامبراطور بربه فى يوم ٢٨ اكتوبر سنة ١٦٢٧ . ومنذ ذلك اليوم زهدت فى حياة الزخرف والأبهة وآثرت حياة العزلة وقنعت بلبس الازار الأبيض الذى تلبسه الأرمل المسلمة إلى أن لحقت بقرينها بعد ١٩ سنة .

ولقد حدثتك بقصة نورجهان أو « نورمحل » هذه وما كان لها من الصولة والسلطان عند ماترك لها زوجها جهانجير إدارة شؤون امبراطوريته المترامية الاطراف وعكف على القمار واكتراع بنت الحان كما حدثتك أيضا بحكاية وضع أبيها اعتماد الدولة وإسعاف خان فى أكبر مناصب الدولة وتزويجها بنت أخيها ممتاز محل للأمير خورام الذى أصبح فيما بعد الامبراطور شاه جهان الخ الخ مما لا نرى فائدة فى تكراره .

ثم غادرنا ضريح اعتماد الدولة وذهبنا لزيارة ضريح « شيني — كا — روز » وهو بقربه ويقع وسط حديقة شاسعة جميلة على ضفة نهر جومنا والمظنون

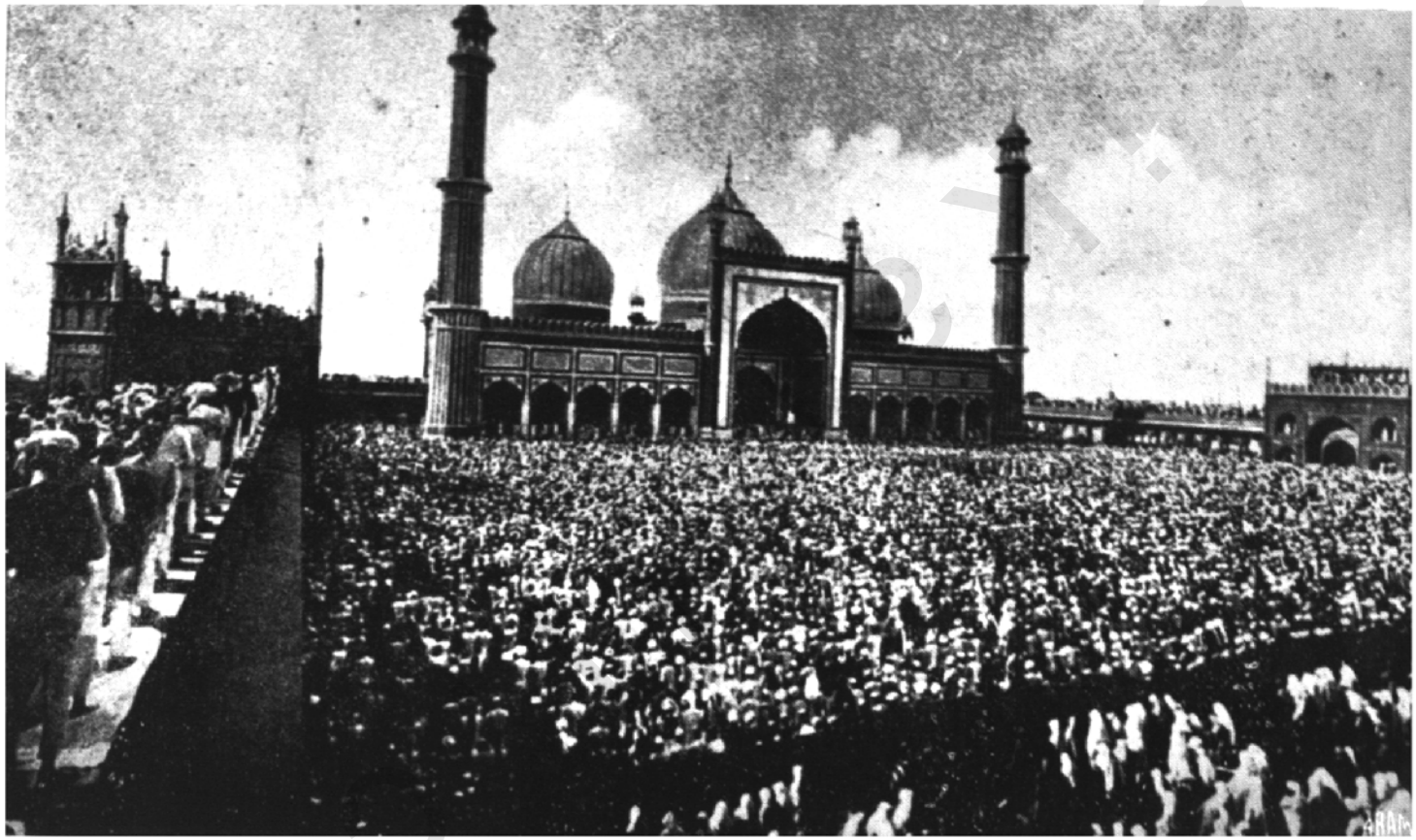

المصلون فى المسجد الجامع — دلهى

أن هذا الضريح يحتوى رفات «أفضل خان» الشاعر الفارسى مع أنه يضم فى الواقع رفات « شكر الله خان » رئيس وزراء شاه جهان .

ومن غريب أمر أولئك الرجال أنهم كانوا يتفننون فى اختيار أجمل المواقع لاضرحتهم كأنما كانوا يريدون أن تبقى رفاتهم فيما يشبه جنة الخلد .

ثم اجتزنا كوبرى السكة الحديدية الكبير وله أبواب حديدية تحول دون المرور وقت اللزوم .

أما كلية عليكرة فليست اكثر من مدرسة كبيرة بها ألوف من الطلبة وليس فيها ما يستحق الذكر .

وفى عودتنا إلى الفندق مررنا بطريق السوق فاذا بها بؤرة قاذورات تنبعث منها روائح كريهة . ومن هناك سرنا فى الطريق المؤدية إلى مسجد أجرا الاكبر وهو وإن كان من المبانى الضخمة إلا أنه دون مسجد دلهى بهاء وروعة .

وانى لعلى يقين بأن ما رأيته من المبانى الفخمة لو أنها كانت مبنية من الحجر المرمر أو أى حجر أبيض آخر لازداد منظرها روعة وجمالا . ولكن من يدرينا أن القادر جل وعلا وهو الذى ربط المسببات بأسبابها قضى بأن يكثر الحجر الأحمر فى هذه البلاد التى لسكانها بشرة حمراء وذلك محافظة على التناسق ؟ أو من يدرينا لعل اختيار هذا اللون الدموى الأحمر هو لتذكير الناس بكثرة ما سفك من الدماء فى بلاد الهند ؟ وأخيرا طفنا حول سور قلعة أجرا ويحيط به خندق .

ومما استوقف نظرى بصفة خاصة ويجدر أن أشير اليه هنا نظرا لما له من الأهمية فى نظر غواة الحمام فى مصر هو انه يوجد فى أجرا ميدان معروف بغشاه غواة الحمام ومعهم أقفاصهم التى تحتوى الحمام . ثم يطلقونه فى الميدان على مرأى من المتفرجين والغواة . فاذا ما حلقت أسراب الحمام فى الجو اختلطت بعضها ببعض بحيث لا يعرف صاحبها . وبعد برهة يلوح صاحب الحمام لحمامه بقطعة من القماش فيهبط إلى الأرض مستصحبا معه الحمام الغريب ومن ثم يشرع صاحب القفص فى إمساك هذا الحمام الغريب . وهـذا لعمرك عمل ينطوى على المهارة وأدل على القوة والبراعة وادعى الى الاعجاب مما يفعله غواة الحمام فى مصر عند مايعود الحمام الى دار صاحبه مستصحبا معه الحمام الغريب .

ولى كلة تفسيرية خاصة بالمساجد فى المدن الهندية الكبرى فشأنها على عكس مافى مصر . فالمدينة لا يوجد فيها إلا مسجد واحد أو إثنان على الاكثر إذا اقتضى الحال . ومن هنا ترى المساجد هائلة الحجم . وقد فاتنى أن أذكر انه كان يصلى الجمعة فى مسجد دلهى ما ينيف عن ١٨٠٠٠ مصلى فإذا ما مر الانسان أمام باب المسجد رأى هذا السيل العرم من المصلين قد ملأ صحن المسجد حتى فاض بهم على سعته فراح فريق منهم يصلى على الدرج بل وفى الساحة الواقعة أمام باب المسجد .

وبديهى أن اجتماع خلائق كثيرة فى المساجد كما ذكرنا يكسب الصلاة روعة وهيبة لا تتوفر إذا اجتمع فى المساجد مئات الناس فحسب . ولعل هذا هو السر فى تماسك المسلمين فى الهند تماسكا يكاد يبلغ درجة التعصب . لا بل لم نتمالك نحن المسلمين عند مرورنا أمام المسجد وقت الصلاة أن نحس نفوسنا روعة هذه الصلاة وهيبتها .

وفى منتصف الساعه السابعة مساء نزلت من الفندق واجتزت الشارع قاصدا الدكان المقابل للفندق فرأيته يحتوى على الكثير من الأقمشة المزركشة بالذهب وبعض مصنوعات الرخام ولكنى لم أشتر منها شيئا .

ثم قضينا ليلة ليلاء من شدة الحرارة مما جعلنى أصمم على تقصير إقامتى فى أجرا والتعجيل بالذهاب إلى بومباى قبل الميعاد المقرر فى برنامج رحلتى .

١١ سبتمبر

وفى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى خرجنا قاصدين زيارة قلعة أجرا وهى محاطة بسورين للدفاع عن الخندق الذى تقدم ذكره . ويعتبر باب القلعة آية فى الجمال الفنى . فوقفت عنده السيارة وذهبنا مشيا على الأقدام فدفعنا أجرا زهيدا وحصلنا على تذاكر المرور فاجتزنا بابين ثم ممرا كبيرا حتى وصلنا إلى القصر الذى كان ملكا « لأكبر » . وأول مايرى الانسان قصرا صغيرا كان « أكبر » قد شيده لزوجته الهندية . ولا يستغرب الانسان هذا فان أكبر كان جم التسامح واسع الصدر . ولهذا كانت له برغم عقيدته الإسلامية زوجات نصرانيات وهندوسيات ولكل منهن قصر خاص بها وبقرب كل من هذه القصور معبد خاص بدينها . فللمسلمة مسجدها وللمسيحية الكنيسة وللهندوسية معبدها .

ورأينا القصر المبنى على الطراز الهندى وبجواره المعبد الخاص به . ويمتد فى القصر درج يوصل إلى نهر جومنا . وبذا تستطيع الأميرة ومن معها الاستحمام فى النهر واداء فروض عبادتها .

ومع أننا كنا نطوف بالقلعة سراعا بحيث لا نشبع أنظارنا مما فيها من بدائع الفن فقد سلخنا من الوقت نحو الساعتين ومن هذا يمكنك أن تقدر عظم القصر من حيث الاتساع .

قلعة أجرا

أول ما سميت به هذه القلعة سميت قلعة « أكبرآباد » نسبة إلى منشئها أكبر . وقد بدأ العمل فيها فى سنة ١٥٦٥ ميلادية . وكان عاهل المغول قد فرغ يومئذ من توطيد دعائم سلطته فى هندستان. فلم يك ثمت ما يخشاه من خطر الاعتداء من الخارج . لهذا بنيت القلعة الحمراء الكبرى بالقرب من نهر جومنا باعتبارها قصرا محصنا أو بناء لوحظت فيه مقتضيات الحرب أكثر مما روعيت فيه مسار السلم .

وقد استغرقت عملية البناء ثمانية أعوام سويا . وكان يعمل فيها زهاء ألف بناء بلا انقطاع تحت أشراف قاسم خان قومندان السفن . وحسبك دليلا على متانة العمل أن القلعة ما يزال بناؤها فى حالة جيدة .

والقلعة فى شكلها الحاضر تمثل ما بذل من الجهود المشتركة فى مدى ثلاثة أجيال متعاقبة . فقد وضع رسمها وشيدها أكبر ثم زاد عليها جهانجير بينما يعود الفضل لشاه جهان فى إضافة الصروح المصنوعة من المرمر الأبيض التى وإن كانت لا تتناسق مع ما يلوح على بقية المبانى من العبوسة إلا أنها مقبولة مع الشكر بسبب ما فيها من الجمال النادر الوجود .

ويتركب القصر كما خططه أكبر من ثلاثة أبلطة ولكل بلاط منها أعمدته الفخمة وردهاته وأبراجه الصغيرة الملونة بأبدع الألوان هذا إلى أعمال الحفر والنقش بالذهب والزخرفة فى بعض أماكن خاصة باطارات مصنوعة من الذهب الخالص .

ويحاط أول بلاط أوفناء بعدد من الأروقة المسقوفة وكان مقر الحرس الأمبراطورى أما الثانى فكان لوزراء الدولة ولكل منهم مكتبه الخاص لتصريف الشؤون العامة . أما الفناء الثالث فكان حرما مقدسا للقصر ولهذا أحيط بسياج من الحيطان السامقة وكان يحتوى على الجناح الخاص بالامبراطور . وحيطانه تتدلى منها الستائر الحريرية الفاخرة والأبسطة الفارسية ومختلف أعمال الزركشة وبالجملة كل ما يمكن أن يأتى به ثراء الهند وغناؤها مما هو جميل ونادر الوجود .

وفى الخلف كانت حديقة الأمبراطور وهى بمثابة فردوس من فراديس الأرض بسبب ما كان فيها من أزهى الألوان وأفتنها . ثم النافورات وأقنية المياه التى كانت ترطب الجو المشبع بعبيق العطور . هذا غير الطيور التى كانت تشدو وتصدح من اعلى قمم الأشجار ثم الفراش الذى كان ينتقل من زهرة إلى أخرى فى جو تنبعث منه الرائحة الذكية والطرب .

وكان يوجد بين القاعة والنهر ميدان كانت تدرب فيه الأفيال وتقام فيه حفلات مصارعات الحيوانات المفترسة وكان يشرف عليها الأمبراطور ورجال حاشيته . وكان هذا النوع من اللهو من أحب التسليات إلى قلوب ملوك المغول.

ويفصل القصر عن المدينة ميدان مترامى الأطراف وفيه كانت تعسكر فرق كبيرة من الجند باستمرار وكان بريق دروعها ولمعان سلاحها يضيف إلى ما كان يحيط بالأمبراطور من مظاهر العظمة والجلال .

وقد زار « ماندلسو » قلعة أجرا فى سنة ١٦٣٨ فوصفها بأنها من أبدع

مارآه فى حياته . وقال انها فى داخل سور يحيط به خندق تقوم عليه كبارى خشبية أمام أبواب القلعة . ويوجد فى نهاية الفناء الداخلى سلاملك محمول على أعمدة من الفضة الخالصة . وإلى الخلف من السلاملك توجد حجرة الحضرة الامبراطورية حيث يقوم حول العرش صف صغير من الأعمدة الذهبية على شكل عرش الطاؤوس المشهور . وفى أعلى الحجرة مباشرة خزانة من المرمر فى الحائط كان يشرفها الأمبراطور العظيم يوميا فى وقت معين لسماع الشكاوى وإقامة العدالة . ولم يكن يسمح لغير أمراء البيت الملك باجتياز الدرابزين الذهبى .

وذكر ماندلسو أيضا ثمانية أقبية هائلة مملوءة بالتحف من ذهب وفضة وأحجار كريمة ثم أشار إلى وجود برج له سقوف من الذهب .

وقد أدخل شاه جهان عدة تغييرات فى داخل القصر الى أن كانت النتيجة ما يشاهد الآن . وقد أدخلت أيضا تغييرات ذات شأن بعد ذلك وخاصة على أثر استيلاء الانجليز على الهند .

الأسوار الخارجية

كتب أبو الفضل يصف قلعة أكبر فقال انها تحتوى على المنافذ الأربعة « التى تتفتح منها أبواب الرزق والغنى على جوانب العالم الأربعة » . وتشتمل الحصون على سور خارجى وآخر داخلى . ويحيط بالسور الخارجى وطوله ميل ونصف ميل ، خندق عمقه ٣٥ قدما وعرضه ٣٠ قدما ويقال أنه من عمل اورانجزب . ويرتفع الحاجز فوقه بنحو ٤٠ قدما ويشتمل على ١٥ برج . وهناك عدة كبارى موصلة الى البوابة الرئيسية وهى بوابة دلهى الواقعة فى

القسم الشمالى من السور الغربى. والى البوابة الجنوبية فى شرقى السور الجنوبى. ويستطيع المرء أن يرى رأس حصان محفورة فى الحجر الأحمر بارزة فوق الأرض غربى البوابة الجنوبية المذكورة.

وكان نهر جومنا قبل توزيع مياهه بواسطة نظام الترع الحاضر يغسل السور الشرقى فى فصل المونسون وكان يوجد فى هذا الجانب ممر مسقوف يوصل الباب السرى فى برج الياسمين ببوابة المياه فى السور الخارجى. وهناك كانت توجد أماكن السباحة الخاصة بسيدات الحريم. وقد أزيلت هذه الأماكن فى سنة ١٨٣٧ عند ما أنشىء الرصيف. ويروى أن أكبر عند تشييد هذه القلعة راعى العادة التى كانت متبعة فى الهند منذ فجر التاريخ بدفن بعض المجرمين وغيرهم من الضحايا البشرية تحت أساس البناء على سبيل استرضاء الآلهة. وقد نشأت هذه العادة عن الرغبة فى استرضاء آلهة الأرض هذا الى أنهم كانوا يعتقدون أن أرواح أولئك البائسين الذين دفنوا أحياء سوف تقوم بحراسة المبانى التى شيدت فوقهم وتطرد عنها الشياطين وتقيها شر العين!!

السور الداخلى

هذا السور كالسور الخارجى مملوء بالثقوب الصغيرة المعدة لأفواه البنادق وبه عدة بوابات كبيرة ومرتفعات ما عدا فى المناطق التى تشرف منها السراى وما شاكلها من المبانى على النهر. وقد كان نهر جومنا فى عهد امبراطرة المغول طريقا مزدحما للملاحة ويحتوى على كثير من «الدهبيات» الملكية الزاهية الألوان والمزخرفة بالذهب هذا عدا «دهبيات» الأمراء

والنبلاء والمعديات ومختلف أنواع السفن الخشبية التى تحمل محاصيل البلاد وتجارتها من مكان الى آخر وكان أكبر شديد الاهتمام باسطوله . ومن هنا ترى وصف ذلك فى كتاب « عين أكبرى » : فقد جاء فيه : « كان لكل قسم من أنحاء الامبراطورية سفنه العديدة . وقد كان لجلالته قوارب للنزهة وتحتوى على الحجر اللازمة . وكانت رأس القارب تمثل نوعا من الحيوان بينما كانت بعض السفن الأخرى تحمل أسواقا عائمة وحدائق زهور . أما البعض الآخر فكان يستخدم فى نقل الفيلة من مكان الى آخر بينما كان بعض القوارب الأخرى يستعمل فى شؤون الحصار . . . وكان هناك رجل نشيط حازم للأشراف على الحالة فى الأنهار . فهو الذى كان يفصل فى كل ما يتعلق بالمعديات وينظم الحمولة ويزود المسافرين بالسفن . وكانت العادة أن من لا يستطيع دفع أجر التعدية أن ينقل مجانا ولكن لم يكن يسمح لأحد باجتياز النهر عائما » .

والحاجز الداخلى للقلعة أعلى من الحاجز الخارجى بنحو ٤٠ قدما وبه ١٦ برجا . وكانت توجد فى الزمن الماضى منصة بارزة من ناحية السور الجنوبية بين البرج البنغالى والبرج الواقع الى الغرب منه . وكانت هذه المنصة مخصصة لتنفيذ أحكام الاعدام . والحصون برغم ارتفاع أسوارها قد فقدت كثيراً من قيمتها بسبب انبساط الجهة القائمة فيها وبسبب ازدحام المنازل بالقرب منها .

المدخل الرئيسى

تقع قلعة أكبر جنوبى محطة قلعة أجرا مباشرة ومدخلها الرئيسى هو

المدخل الشمالى المعروف ببوابة دلهى ويصل إليها الانسان بواسطة الكوبرى. ويحرس هذا المدخل برج بارز تمتد منه طريق عميقة معبدة بين سورين عاليين لغاية بوابة الفيل المشهورة وانما سميت بذلك الاسم لوجود الفيلين الكبيرين المصنوعين من الحجر وكانا فى الماضى يوجدان هما وراكباهما على المنصتين اللتين الى يمين ويسار القبوة. وهما تذكار لاستيلاء أكبر على « شتور » فى عام ١٥٦٨ وعليهما تمثالان بالحجم الطبيعى لذينك الفارسين المغوارين من راجبوتانا وهما « جاى مال » و « فتحور ».

وفى بوابة الفيل كانت توجد شرفة الموسيقى . فمنها كانت تنبعث التوقيعات الموسيقية المؤذنة بوصول أو انصراف الامبراطور كما أنها كانت تعزف فى خلال الحفلات الرسمية. وكان بالبوابة أيضا دار للحرس وأمكنة للضباط المعسكرين.

مسجد المعطى أو مسجد اللؤلؤ

أما طريق المغول القديمة فكانت تؤدى إلى الديوان العام مباشرة وقد أدخلت فيما بعد تغييرات أخلت كثيرا بالرسم الأصلى هذا . فالطريق تمتد الآن من بوابة الفيل نحو ١٠٠٠ قدم إلى الشمال الشرقى بين نواح مقبضة للنفس إلى أن تصل إلى مسجد المعطى أو مسجد اللؤلؤ وهو بناء مرتفع من المرمر الأبيض يراه الانسان من بعيد . ومتى ذكرنا أن المحراب مافت للنظر عجبنا أنه نجا من العطب أثناء ما تعرضت له القلعة من الاعتداءات العديدة . وهذا المسجد من صنع شاه جهان ومثله كمثل الزيادات الأخرى التى أضيفت . وقد بلغت نفقاته ٣٠٠ ر ٠٠٠ روبية واستغرق بناؤه سبع

سنوات . وقد أزيلت مبان عديدة فى هذه الجهة لإفساح المكان لبناء المسجد .

وهناك اجتزنا بوابة ضخمة وصعدنا الدرج المؤدى الى الحوش حيث رأينا ساعة شمسية وإلى جانبها الصهريج الرئيسى لمياه الوضوء . وفى الحق أن الانسان ليدهشه بياض المبانى بعد احمرارها فى الخارج . وترتفع فوق المسجد ثلاث قباب بيضاء هى بهجة للعيان . ويبلغ طول المسجد ١٤٢ قدما وعرضه ٥٦ قدما . وهناك سبع قباب فوق ثلاثة صفوف من الاعمدة الهائلة المربعة الشكل ويوجد الى جانبها حواجز من المرمر المحفور حفرا جميلا ويراد بهذه الحواجز حجب قسم الحريم عن الانظار .

أما أرضية المسجد البيضاء فهى مطعمة بخطوط رفيعة من المرمر الأزرق الزاهى اللون والأصفر الباهت الجميل . وهذه الخطوط تقسم الفراغ إلى ٧٥٠ مكان لمثل هذا العدد من المصلين . أما الأماكن التسعون الباقية فكانت مخصصة للاميرات ولمن عداهن من سيدات البلاط . والى يمين المحراب الرئيسى يوجد المنبر . ويقال أن لؤلؤة هائلة الحجم وشديدة اللمعان كانت تتدلى من السقف بسلسلة ذهبية بديعة وقد كتب بالخط الفارسى على طول الواجهة بأن شاه جهان بدأ بناءه فى سنة ١٦٤٨ وانتهى منه فى سنة ١٦٥٥ . وكانت الحروف من الحجر الأسود (الاردواز) لأن المرمر سريع الكسر إذا استعمل فى الكتابة .

ومن سقف المسجد يطل الانسان على منظر بديع للنهر ولتاج محل وهو واقع فى الجهة الشرقية . وفى الضفة الثانية يوجد ضريح اعتماد الدولة

الفخم صهر جهانجير . وفى الشمال الغربى كان يرقد أكبر فى حديقة بهيشتباد فى سيكاندرا . وتحت الأفق فى الناحية الجنوبية الغربية توجد مدينة فتح بور سكرى وكانت يوماً ما مدينة النصر .

وقد حول مسجد اللؤلؤ هذا أثناء الفتنة الهندية فى سنة ١٨٥٧ الى مستشفى لمعالجة الأوربيين .

دار شيني داروازا

وهذه قسم من الجناح الخاص بأكبر . فقد كان من عادته هنا أن يطل على الافق الشرقى ليشهد طلوع الشمس ومايصحب طلوعها من مظاهر الجلال والجمال. حتى إذا اشرقت الشمس فوق الافق انحنى هذا الامبراطور العظيم تحية لها . فاذا ما فرغ من ذلك التفت إلى الحوش الواقع تحت القصر وقد احتشد فيه الناس لأداة الصلاة للشمس . وقد وصف « فنش » هذا المنظر عند زيارته للبلاط فى عهد جهانجير فقال « هنا يخر الحاضرون ساجدين على وجوههم ويقبلون الأرض. وتحت هذا المكان مباشرة توجد « صقالة» يقف فوقها النبلاء والأعيان» . ثم استرسل فنش فقال « إن جهانجير كان يعود إلى هنا فى الظهر لمشاهدة المصارعة بين الحيوانات المفترسة المدربة على هذا العمل وبخاصة الأفيال والنمور والسباع والجاموس . وكانت هذه التسلية تسمى « طاماشاه » وكانت الغزلان تطلق فى ساحة المكان لتفترسها الفهود وكان هذا البرنامج يغير مرة كل أسبوع بسفك دم بشرى فقد كان من عادة الامبراطور أن يحاكم المسجونين فى أيام الثلاثاء وأن يشهد إعدامهم فى الحال . ومن الانصاف أن يقرر الانسان أنه لم يكن يسمح

بقتل إنسان أو حيوان فى يوم الجمعة الذى كان من عادة الامبراطور أن يقضيه داخل الحريم » .

ويظهر أن هذه المصارعات كانت قليلة فى عهد أكبر وكان يشترك فيها من الحيوانات والطيور الغزلان والجاموس والثيران والكباش والنعاج والديوك . وكانت هناك مراهنات بين المتفرجين .

سوق المنار

وبعد أن يغادر الانسان مسجد المعطى تتفرع إلى اليمين من الطريق الرئيسية طريق صغيرة تؤدى إلى سوق المنار وهى مصنوعة من الحجر الاحمر ويرجع تاريخها إلى عهد أكبر وهى محاطة بمختلف الدكاكين المفتوحة للتجارة . وهنا كنت ترى التجار جالسين أمام دكاكينهم راكعين على الطريقة الفارسية أو « مربعين » يدخنون النرجيلة يرمقون السائح بنظراتهم يتحلى فيها معنى الاغراء بمشاهدة معروضاتهم وسلعهم ليشتريها بالثمن الذى يحلولهم لا بالثمن الذى يراه السائح ملائما .

الديوان العام

يوجد « ممشى يهوان » فى وسط ضلع الحوش الأيمن وهو من الحجر الاحمر وطوله ٢٠١ قدماً من الشمال إلى الجنوب ويبرز من الحائط بنحو ٦٧ قدماً إلى الغرب . وهذا السلاملك الكبير مفتوح من الامام وفى الجوانب ويرتفع عن الارض بنحو أربعة أقدام ويوجد أمامه درج . أما طوله وعرضه من الداخل فهو ١٩٢ قدماً و٦٢ قدماً . وتحمل السقف عدة أعمدة شرقية بديعة مغطاة بالمصيص وموشاة بالذهب وقد عقدت فوقها

قبوات مصنوعة بدقة . وفى كل من الزوايا الأربع توجد أربعة أعمدة ويمتد صفان من الاعمدة عددها ١٤ فى كل من الجوانب الاربعة المفتوحة .

وتوجد خلف الصالة حائط تحتوى فى وسطها الشرفة الامبراطورية وهى مرتفعة عن الأرض ببضعة أقدام وحولها « درابزين » محفور وثلاث قبوات من المرمر مطعمة بزهور الموزيك المرصعة بما يشبه الاحجار الكريمة . وتعزى هذه التحسينات إلى جهان .

وفى أرضية المكان توجد منصة من المرمر قائمة على أربع سيقان ، وكان يحيط بها فى الماضى درابزين من الفضة .

الشرفة الامبراطورية

كان الامبراطور يظهر فى هذه الشرفة يومياً لسماع شكاوى الرعية والبت فيما يحسن شؤونهم ، ولم يك يسمح لغير كبار النبلاء باجتياز الدرابزين الفضى القائم حول المنصة التى يقفون عليها لتقديم الالتماسات « للباديشاه » أى ملك الملوك . ويمكن للانسان أن يتخيل لنفسه كم كان صاحب الحاجة فى تلك الايام الخالية التى عمت فيها الرشوة يبعثر الاموال والرشاوى يميناً وشمالا قبل أن تصل شكواه أو حاجته إلى المسامع السامية . وخدمة العدالة والقضاء على اطماع رجال الحاشية قضى جهانجير بمد سلسلة من القامة إلى الأرض ويتصل طرفها بعدة أجراس ذهبية بقرب « كرسى العدالة » الذى يجلس عليه الامبراطور . وقد رمى جهانجير بهذه الوسيلة إلى أن يقف بنفسه على شكوى كل ذى حاجة دون أن يضطر إلى تقديم الرشوة لأحد من كبار رجال الحاشية .

وقد ذكر المؤرخ « فنش » ما كان يفعله جهانجير وقتذاك فقال : « كان الامبراطور يقضى يومياً ساعات عديدة فى كرسى العدالة يسمع شكاوى الناس ويابى حاجاتهم حتى إذا انتهى من هـذه المهمة انصرف إلى مكان العبادة » .

وإلى الامام كان يوجد الحوش وهو على أرض مرتفعة قليلا . وفيه كانت تستعرض الجنود والافيال الملـكية والخيل والابل والثيران والبغال فى أيام معينة .

وإلى يمين ويسار الخلوة التى تحتوى على العرش كانت توجد منافذ وبها حواجز من المرمر الأبيض تحتوى على ثقوب صغيرة ومشغولة كالدنتلا . وكانت تغطى هذه الثقوب فى الزمن الماضى قطع الزجاج الزاهى اللون المصنوع فى دلهي . وبهذه الوسيلة كان فى وسع سيدات الحريم أن يرين ما يجرى أمامهن دون أن يراهن أحد .

ويدخل الملك إلى الشرفة الامبراطورية من الخلف حيث تتصل بممشى بهوان أو قصر السمك ومبانى زنانا .

وجرت العادة عند ما يدرك الأمبراطور الملل من سماع الشكاوى أن تستعرض أمامه الخيول والأفيال من الاصطبلات الأمبراطورية فيتسلى بمرآها . فلما احتل الانجليز القلعة فى فجر القرن التاسع عشر أقاموا حيطانا فى جوانب الديوان العام وأمامه واستعملوا المـكان كمخزن للأسلحة إلى سنة ١٨٧٠ عند ما نقلت محتويات المـكان إلى الله آباد .

مسجد ناجينا

ويطل على الزاوية الجنوبية الغربية فى سوق المنار الداخلية . وهو مسجد صغير جميل الشكل مصنوع من المرمر الابيض . وكان خاصاً لسيدات الحريم فقط . ويقال ان أورانجزب هو الذى بناه حوالى سنة ١٦٥٨.

وتوجد حجرة صغيرة فى شمالى المسجد بغرب يقال ان أورانجزب ـ هذا الابن العاق ـ اعتقل فيها أباه جهان إلى أن لحق بربه . وهناك إشارة إلى نافذة صغيرة عليها ستار كان ذلك الأمبراطور العظيم يطل منها كل يوم لأخذ سلام قوة الحرس المرابطة فى الفناء الواقع تحت القصر . والمظنون أن مسجد ناجينا كان يتصل بمسجد اللؤلؤ بطريق مسقوف تمر فوق بوابة سوق منار الداخلية .

عرش المرمر العظيم

يوجد فى وسط شرفة العرش عرشان أحدهما أمام الآخر . فالأول وهو إلى الغرب من المرمر الابيض ويشتمل على لوحة قائمة الزوايا محمولة على أربع سيقان . والمظنون أن هذا العرش كان يوماً ما لمحكمة العدل . وكان فى الماضى محاطاً بحاجز واطىء . ويقال ان شاه جهان كان يحب الجلوس فى ذلك العرش عند ما تتوق نفسه إلى التسلى « بالصنارة » يعبث بها فى صهريج الماء القريب منه .

العرش الأسود العظيم

أما العرش الثانى فهو العرش الاسود وهو منحوت من كتلة واحدة من «الأردواز» ويبلغ طوله عشرة أقدام وسبع بوصات وعرضه تسعة أقدام وعشر بوصات بينما يبلغ سمكه ست بوصات وله أربع قوائم على شكل مثمن وترفعه عن سطح الارض بستة عشرة بوصة . وهناك كتابة حول حافة العرش فيها أن الامير سليم (وقد أصبح فيما بعد الأمبراطور جهانجير) هو شاه سليم وتاريخ هذه الكتابة سنة ١٦٠٢ . وكان ولى عهد أمبراطور المغول وقتئذ قد رفع راية العصيان ضد أبيه . فقد تحدى أكبر بالمناداة بنفسه أمبراطورا فى الله آباد حيث كان له بلاط ولكن لم يلبث أن أتى إلى أجرا فيما بعد لاستسماح أبيه فعفا عنه . وأغلب الظن أنه جاء بهذا العرش من الله آباد بمناسبة وفاة أكبر فى سنة ١٦٠٥ إذ هناك كتابة بأنه اعتلى العرش فى ذلك العام تحت اسم نور الدين محمد جهانجير .

وقد تشققت اللوحة فى الوسط وهى ملونة باللون الاحمر الذاكن فى مكانين. ويقال أن التشقق حدث عند ما حاول «راجا جواهير سنغ» أن يتبوأ العرش الأسود على أثر وفاة أبيه «سوراج مال» فى دلهى فى سنة ١٧٦٣ . وكان جواهير سنغ مقيما فى قلعة أجرا وقتذاك . وقد دنس اللوحة بيده فتشققت وجرحته ! وكان هذا فألا يدعو إلى التشاؤم فقد قتل فى عام سنة ١٧٦٦ بالقرب من مكان الحادث !!

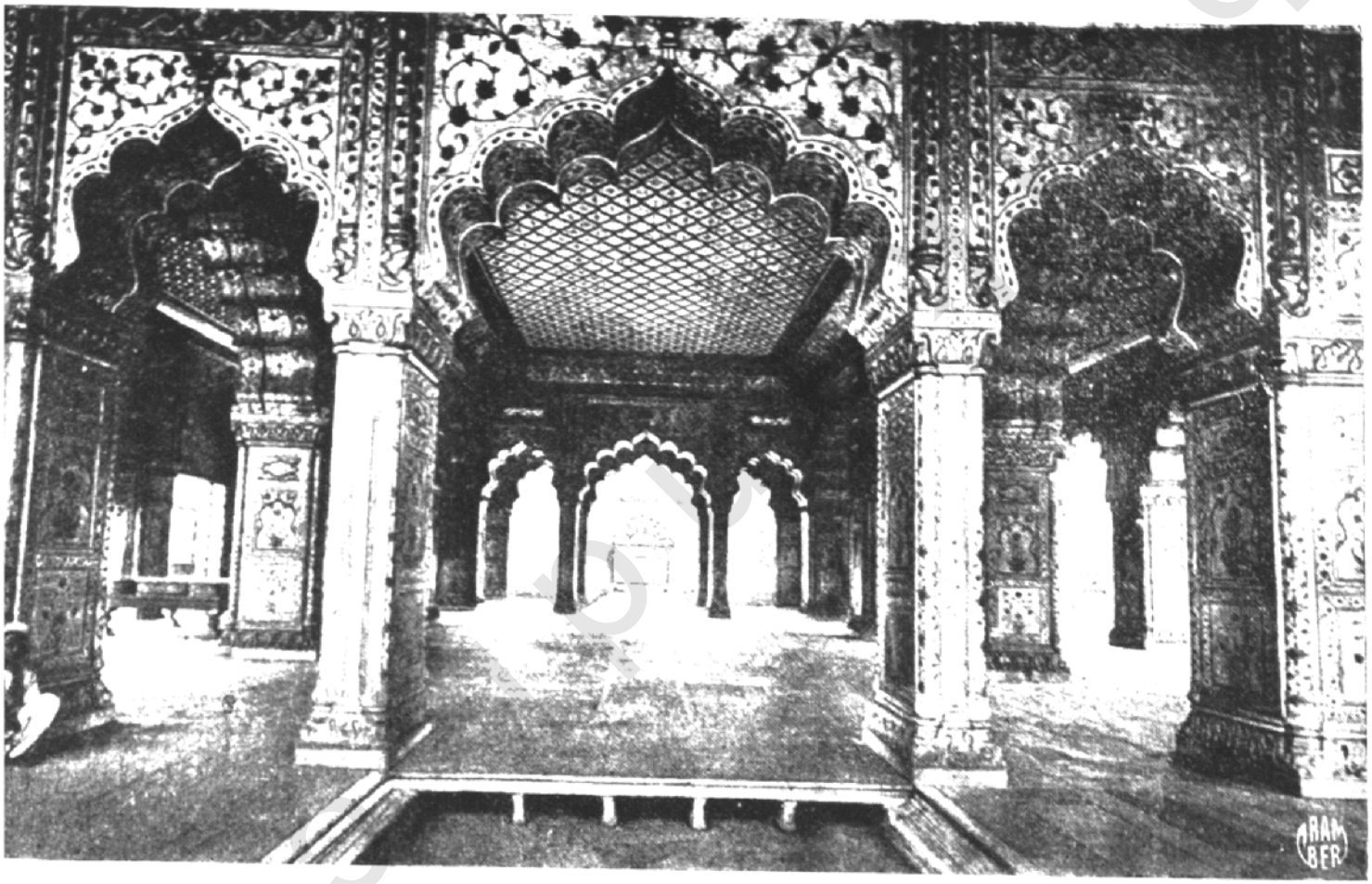

الديوان الخاص من الداخل — قلعة دلهى

الحمام الشاهانى

يوجد حمام الملك فى الجهة الشمالية لشرفة العرش . وكان بلاط الحمام قديما مفروشا بالمرمر والموزيك بينما كانت الحيطان المكسوة بالمصيص تتألق بالنقوش الملونة الفاخرة المرصعة باللون الذهبي . وكانت هناك مواسير نحاسية كجزء من الجهاز الدقيق لجلب المياه بكثرة الى حجر الحمام . وكان الزجاج الملون الزاهى يملأ الثقوب التى فى النافذة المصنوعة من المرمر الأبيض والمطلة على النهر . والى جنوبى الحمام كان السلاملك المرمرى الذى أزاله لورد بنتنيك ويرى شكله فى الصور القديمة .

الديوان الخاص

هذا اسم السلاملك الجميل المصنوع من المرمر الأبيض فى الجهات الجنوبية لشرفة العرش ويشمل صالة المقابلات الخاصة . وهناك كتابة تسجل تاريخ البناء . والكتابة على الطراز الفارسى وقد انشىء الديوان الخاص فى سنة ١٦٣٧ فى السنة الخامسة عشر من حكم جهان . وهناك إشارة إلى سلسلة العدالة وكانت تتصل بجرس موضوع فى الديوان الخاص وأغلب الظن انها كانت ممتدة الى الديوان العام . فاذا ماجذب السلسلة صاحب حاجة أجاب الأمبراطور بادخاله إلى حضرته لسماع شكواه . وهذه السلسلة هى من ابتكارات جهانجير .

أما قاعة المقابلات فيبلغ طولها من الخارج ٧٣ قدما وعرضها ٣٣ قدما وطول الداخل ٤٠ قدما وعرضها ٢٦ قدما . وهناك قبوات على أعمدة لها ١٢

واجهة وهى منحوتة بشكل جميل ومطعمة بزهور مختلفة الألوان وبما يشبه الأحجار الكريمة كالعقيق واللازورد وحجر الشيم الخ .

ومما يلفت النظر فى الحجرة الداخلية الحواجز المرمر للنوافذ ويتدلى من السقف المسطح مصابيح من الذهب والفضة .

فى هذا الديوان الخاص كان البلاط يجتمع كل مساء وهى الاجتماعات التى كان الأمبراطور يعيرها أهمية كبيرة بحيث كان التخلف عنها يعتبر فى نظر جلالته بمثابة استهتار يستحق العقاب الشديد . وقد وصف « بيرنيه » كيف كان الأمبراطور يجلس فى تلك الاجتماعات وحوله النبلاء وكيف كان الضباط يرفعون إليه تقاريرهم للفصل فى أهم شؤون الدولة .

برج الياسمين

ومن الديوان الخاص يجتاز الانسان بابا يؤدى إلى قصر الياسمين . وإنما سمى بهذا الاسم لأن الزهور المخيمة عليه هى بشكل موزيك دقيق ومع أن الناس يزعمون أن جهان هو بانى هذا القصر فأغلب الظن انه من صنع جهانجير أو على الأصح قرينته الأمبراطورة نور جهان . فهى التى وضعت تصميم هذا البناء أثناء إقامتها ثلاث سنوات فى أجرا على أثر زواجها بجهانجير فى سنة ١٦١١ .

وفى عهد جهان جاء الامبراطور للاقامة فيه مع قرينته الجميلة ممتاز محل . وهو يشتمل على فناء واسع يقابله مدخل إلى الجنوب تحف به حجرتان . ويحيطان الصالة آثار تلوين بديع وتمويه بالذهب . والحوش مفروش

بمثمنات مرمر ويقال ان الأمبراطور كان يلعب هنا مع سيدات الحريم لعبة النرد ولكن لا بالحجارة بل بالراقصات وهن بأخر الحلل وأجملها. فقد كانت الواحدة منهن تنتقل من مثمن إلى آخر بشكل رشيق جذاب إطاعة لأوامر الأمبراطور أو السيدات على التوالي. ثم « الفراندا » البديعة المصنوعة من المرمر وقد هدمها الوردها استنجز وأرسل أجزاءها إلى انكلترا. أما حواجز النوافذ فقد أتلفتها قنابل المدافع ثم أعيد اصلاحها فيما بعد.

ويوجد برج الياسمين المشهور فوق السطح وهو عبارة عن سلاملك على شكل مثمن وفوقه طابق آخر تعلوه قبة مذهبة وقد قضت فيه ممتاز محل العام الأخير من حياتها. وفي هذا البرج البديع قضى الأمبراطور شاه جهان أيام اعتقاله إلى أن لفظ النفس الأخير في ديسمبر سنة ١٦٦٦. وفيه أيضا لازمت « جهانارا بيجام » أباها جهان وسهرت على راحته إلى اللحظة الأخيرة التي صعدت فيها روحه إلى خالقها وهو متجه بنظره في ناحية تاج محل حيث شاء القدر أن يلحق سريعاً بزوجته التي شيد لها أفخم ضريح عرفه العالم.

المحل الخاص

هناك شرفة مرتفعة من المرمر تشرف على الجهة الشرقية من « عنقود باج » أي المكان المعد لتنمية كرمة العنب. وهنا توجد المباني الثلاث المصنوعة من المرمر والتي يتركب منها المحل الخاص (أو مكان الراحة). ففي هذا الجناح الذي يعتبر أبهج أجنحة القلعة بأسرها توجد سيدات الحريم. وهناك ما يدل على وجود مبان في هذا المكان من قبل أقامها أكبر ثم هدمها جهان فيما بعد ليفسح الطريق لمباني المرمر التي أقامها.

ويشرف البناء الرئيسى على حوش يبلغ طوله ١١٢ قدما وعرضه ١٦ قدما . وهنا نجد حواجز مرمر بها عدة ثقوب على ارتفاع ثمانية أقدام وتفصل هذا الحوش عن الحوشين الأخرين عن اليمين وعن اليسار وطول كل منها ٨٨ قدماً وعرضها ٦٢ قدما . أما صالة المكان فكانت بمثابة قاعة استقبال وكان يلجأ اليها جهان كل يوم للاجتماع بأميرات الحريم ورئيسات السيدات. ويرى الانسان الشيء الكثير من بديع الحفر فى الأعمدة والقبوات ولقد جددت بعض السقوف حديثاً . ويقال انه كانت هناك مخابئ واطئة فى الحيطان وفيها مجموعة صور ذات أطار لكافة امبراطرة المغول من تيمور لنك فمن دونه .

ويقال ان البناء الشمالى كان مقر روشانارا بيجام ابنة جهان الثانية وأحب أخوات أورانجزب اليه . وهو مركب من صالة رئيسية وسط حجرتين أصغر منهما حجما .

وتوجد فى الحيطان قبوات صغيرة ولهذه القبوات حكاية طريفة . فان الامبراطور كان يلقى بين آن وآخر درة بطريق التصنع فمن يسعدها الحظ بالعثور عليها يكون لها الحق فى مجالسة الامبراطور طوال ذلك اليوم .

أما البناء الجنوبى ذو السقف الذهبي فقد كانت تقيم فيه الأميرة جهانارا أو كما كان يسميها الناس بيجام صاحب . وفى الحق ان هذا البناء من أجمل ما رأت عينى حتى أنه ليذكر الانسان بما سمعه عن القصور الباذخة الواردة فى كتاب ألف ليلة وليلة .

وتوجد بارقرب من هذه المبانى ساحة واسعة واطئة يشرف منها الانسان على مصارعة الأسود والافيال .

التيه خانة

لقد أغلقت الآن كافة المنافذ المؤدية الى تيه الدرج والممرات والحجر الواقعة تحت سطح الارض والتى كان يلجأ اليها رجال البلاط فراراً من الحرارة . ولا يزال يوجد درج يؤدى من جنوبى المحل الخاص الى بعض الحجر تحت سطح الأرض وأولها على مايقال حجرة الحارسات النوبيات وهناك حديث عن حجرة سوداء تمتد فى سوقها كتلة من الخشب بها اخرق ثقب فوق كوة سوداء . وهنا كانت تعدم سيدات الحريم العنيدات ثم تطرح جثثهن فى القصبة المؤدية الى نهر جومنا حيث يكتسحها الماء . ولكن هذا كله حديث خرافة بلا جدال والمسألة لا تخرج عن وسيلة مبتكرة لاستخراج الماء من بئر عميقة .

وعلى أن هناك أدلة على ما كان ينزل بسيدات الحريم المذنبات من شديد العقاب مثال ذلك ما أحاق بالسيدة الحسناء « انار كالى » (زهر الرمان) . فقد فاجأها بعلها الأمبراطور أكبر تتبادل فى المرآة نظرات غرامية مع ابنه وولى عهده الأمير سلم (جهانجير شاه فيما بعد) . ففى الحال أمر الامبراطور بأن تدفن زوجته ومحبوبته هذه بالحياة فى النقطة التى يغطيها الضريح المرمر العظيم الذى أقيم لذكراها فى لاهور . وقد شيده لها عشيقها جهانجير بعد ارتقائه العرش .

وقد ورد فى « عين الاكبرى » بيان بالقواعد التى كانت متبعة فى القسم الخاص بالحريم . وهذا القسم عبارة عن حاجز مترامى الأطراف يحتوى على حجرة لكل سيدة ويبلغ عددهن زهاء ٥٠٠٠ والسيدات مقسمات إلى أسراب ولكل منهن عمل خاص تؤديه . وتشرف على كل سرب مديرة

تسمى « داروجا » وتنتخب من هؤلاء امرأة للأشراف على الجميع وذلك حرصا على أن يسود النظام فى الحريم بنفس الدقة المتبعة فى كافة مصالح الدولة . ويوجد « المشرف » عند البوابة الكبرى ليسجل حسابات الحريم .

وتقوم النساء بالحراسة داخل الحريم ويختار الامبراطور أخلصهن اليه للوقوف ببابه . والى خارج البوابة مباشره يوجد الخصيان ويأتى بعدهم وعلى مسافة معينة جماعة من راجبوتانا . وإلى جانب هذه الاحتياطات يعتمد الامبراطور على يقظته الشخصية .

وقد حدثنا «مانيسى» بان جهان كان يقوم على حراسته سرب من نساء التتار الشرسات الطباع وكانت لهن دراية باستعمال القسى والسهام وعلى استعداد مستمر لمقابلة الموت فى سبيل الدفاع عنه .

ثم وصلنا بعد ذلك إلى صالة فى القصر لها عدة نوافذ ومنها يطل الانسان على منظر جميل لتاج محل يقال أن جهان شاه كان فى أواخر أيامه يطل منها على ذلك الضريح المشهور فيتذكر زوجته المحبوبة المدفونة فيه .

قصر المرايا

يصل الانسان إلى «شيش محل» أو قصر المرايا بالممر المؤدى من الزاوية الشمالية الشرقية لعنقود باج ومكانه تحت الديوان الخاص وشكله على الطراز المغربى . والحيطان والسقوف كلها من قطع المرايا وقد ركبت بشكل رائع بالمصيص المذهب أو الملون . وكان بلاط المكان بادىء بدء مفروشا بالمرمر . وقد استعمل هذا الجناح كحمام ومكان لزينة الحريم . ولما كان الدور

الارضى مظلما قليلا أضطر الدليل الذى يرافقنا إلى اشعال المصابيح الهندية فانعكس الضوء على الاف المرايا فكان المنظر آية فى الابداع .

عمار سنغ داروازا

ينحدر الطريق من البوابة الجنوبية التابعة للديوان العام إلى أن يصل إلى عمار سنغ داروازا . وهذه البوابة العظيمة يرجع تاريخها إلى عهد أكبر وقد كتب عليها « الله أكبر وأعلى » .

المسجد الجامع

فى خارج القلعة مباشرة بالقرب من بوابة دلهى يوجد المسجد الجامع أو الأعظم وقد شيدته جهانارا بيجام أحب بنات جهان اليه وشريكته فى الاعتقال . وقدلاحظنا هنا خادما مسنا أخبرنا أنه لبث فى خدمة المسجد زهاء نصف قرن حتى أن السنجاب هنا أصبح أليفا إلى حد أن الحارس يناديه ثم يطعمه بيده ثم ينصرف .

ولا بد من القول هنا بأن ماراًيته من آيات الصناعة كان مقطوع النظير وأن كان لورد بنتنيك حاكم الهند العام قدنزع الكثير مما كان على الحيطان من النقوش البديعة وأرسله إلى المتحف البريطانى فى لندن فان الباقى منه كان على أعظم جانب من الروعة . وليس يفوتنى أن أذكر هنا أن الحكومة الهندية تعنى أشد عناية باصلاح ما فسد وتعويض ما تلف .

ومن ينظر إلى عظمة هذه القلعة وما فيها من القصور الشامخة والدور الشاسعة لابد أن يستنتج أنه كان يسكنها من ٦٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ شخص على الاقل .

زيارة فتح بور سكرى

عند الساعة الرابعة بعد الظهر قصدنا مدينة «فتح بور» أو مدينة النصر وهى تبعد عن أجرا بنحو ٢٣ ميلا بالسكة الحديدية. والطريق الموصلة اليها جميلة جدا تظللها الأشجار الباسقة على الجانبين. وقد مررنا فى الطريق بقريتى «مدحا كور» «وكيراولى» كما شاهدنا الكثير من الطواويس وأنواعا مختلفة من العصافير (الدودلا) على الأشجار. هذا عدا رجالا معهم قردة ونسانيس وغيرهم معهم دبب.

فلما وصلنا الى فتح بور اجتزنا بأباضخما لا يكاد يعبره الانسان حتى يرى إلى يمينه مكان الاستراحة وهو فى منتهى النظافة. وقد علمت أن كثيرين من السائحين يقصدون إلى هنا فيتناولون الشاى. أما محبو الصيد والقنص من الضباط فيقضون الليل هنا حيث يستطيعون الصيد فى الضواحى.

قديس فتح بور

كانت فى الزمن الماضى فى هذه البقعة قرية تسمى سكرى قدر لها أن تكون عاصمة امبراطورية عظيمة لفترة وجيزة من الزمن. ولم تكن القرية ذات شأن إلى أن نزل فيها أحد القديسين المسلمين واسمه الشيخ «سالم شستى» حيث اتخذ له كهفا يقيم فيه. وهذا الشيخ هو من أسرة مشهورة بالصلاح وعمل الخير وكان من سلالة القديس المشهور الشيخ «فريد الشكر جنج» وقد سمى نفسه «شيشى» نسبة إلى أبيه الروحى. وكان قديسا ومن سكان مدينة «شست» من أعمال فارس. وما لبثت أن ذاعت أنباء كراماته وما عليه من الصلاح والتقوى إلى أن وصلت إلى أجرا وبلغت مسامع الأمبراطور -

وكان أكبر وقتئذ عديم الولد لأن أطفاله كانوا يموتون فى المهد . فبينما هو عائد من إحدى غزواته عرج على سكرى هذه لتحية القديس والتبرك به عسى أن يرزق بولد يخلفه على العرش .

وهنا تختلف الروايات عما دار بين هذا الناسك وبين الأمبراطور . فبعضها يقول ان القديس رفض مقابلة الأمبراطور مرتين ورده خائبا . وفى المرة الثالثة حضر ابن الشيخ سالم وهو طفل لم يتجاوز عمره الخمس السنوات وصاح بأبيه «لماذا يا أبت تخرج قاهر العالم من حضرتك وهو فى حالة يأس»؟! فأجاب الوالد «لانه غير مقدر له بغلام إلا اذا تقدم له انسان بحياة طفل» . وهنا صاح الابن « إذن فلأقدم له حياتى !» ثم شهق شهقة فاضت فيها روحه .

والمظنون أن منشأ هذه الخرافة هو محاولة تعليل ما كان يساور أكبر من التهيب نحو القديس سالم .

أما الحقيقة التى لا مراء فيها فهى أن الشيخ كلف الامبراطور بأن يرسل زوجته الهندية « مريم الزمان » للسكنى فى سكرى . فلبى أكبر الامر وأرسل قرينته لتقيم مع أسرة الشيخ . فلم يمر العام حتى ولد لأكبر مولود سمى فى مبدأ الأمر سالم تيمنا باسم الشيخ ثم صار جهانجير عند ارتقاء العرش .

واعترافا بهذا الجميل السماوى عول أكبر على أن يبنى مدينة فى سكرى . وأن يجعل عاصمة فى هذا المكان الذى استجيبت فيه دعواته .

وكان طبيعيا أن يصبح سالم شيخى صاحب الكلمة النافذة فى البلاط ومن ثم أصبح لاعضاء أسرته الحظوة عند أكبر وعند ذريته . مثال ذلك

أن « بيازيد » حفيد الشيخ الذى أرضعت أمه ولى العهد يوم ولادته عين فى منصب مرتبه ثلاثة آلاف روبية عند ارتقاء جهانجير العرش . وقد أصبح يسمى « ميرعزام خان » . وقد دفن فى فتح بورسكرى .

المدينة المهجورة

قبل نهاية حكم أكبر قضت اعتبارات سياسية عديدة بمغادرة فتح بورسكرى واعادة البلاط الى أجرا . فترتب على رحيل البلاط أن اصبحت المدينة مهجورة ومأوى الحيوانات المفترسه والمخاطرين من مختلف الأجناس الذين اتخذوا القصور المهجورة مكانا لسكناهم . ومنذ ذلك الحين أهمل شأن فتح بور لغاية خريف سنة ١٧١٩ عند ماعاودها شيء من مجدها الغابر لفترة وجيزة . ففى يوم ١٤ سبتمبر من تلك السنة جلس محمدشاه على عرش الطاؤوس . ولكن البلاط لم يدم طويلا هناك . ومن ثم عادت المدينة مرة أخرى الى حياة السكون لايكدر صفوه الا شدو الطاؤوس فى النهار أو نعيب البوم فى الليل .

ويبلغ محيط هذه المدينة المهجورة ستة أميال ويحيط بها سور من نواحيها الثلاث ويتخللها سبع بوابات ضخمة . أما الناحية الرابعة فكانت مفتوحة لاتحميها الا بحيرة اصطناعية من عمل أكبر ولقد جففت هذه البحيرة فى السنوات الاخيرة لانها كانت سببا فى انتشار الأمراض فى ذلك الاقليم .

دار الضربخانه

يمتد الطريق الى أن يصل قمة التل حيث توجد « الضربخانة » وهى بناء ضخم قائم الزوايا وقد ضربت فيه النقود الذهبية والفضة لأول مرة فى سنة ١٥٧٧ .

وكان رئيس موظفى الضربخانة يسمى « داروجا » . أما مساعدوه فكان بينهم الصيرفى ومقدم العمال والكاتب والمكلف بشراء السبائك وأمين الخزانة والوزان والمكلف باذابة المعدن وصانع الألواح والمكلف بقطعها والشخص الذى يثقب النقود .

المحل الخاص

والى خلف الفناء الشاسع الذى يوجد فيه الديوان العام يرى فناء كبير ثان يبلغ طوله ٣٢٦ قدما وعرضه ٢١٠ قدما . وفى غربه مجموعة مبانى مهمة تعرف باسم « المحل الخاص » وهو فى اعتقاد بعضهم أول ما بنى أكبر من المجموعة الملكية . ويبلغ طول المحل الخاص ٥٥٩ قدما وعرضه ٢٧٢ . وهو منقسم إلى ثلاثة أقسام يشمل أولها حجرا كبرا الخاصة التى تسمى « خواباج » أو قصر الأحلام . وأمام هذا القصر يوجد صهريج للمياه يبلغ ٩٥ ونصف قدما مربعا وكان يملأ قديما بالمياه المستخرجة من الأجهزة الدقيقة بالقرب من بوابة الفيل . وفى وسط الصهريج منصة مربعة تتفرع منها أربعة جسور . فأولها إلى الشمال الشرقى ويؤدى الى بيت السلطانة التركية والثانى إلى الشمال الغربي ويؤدى إلى مدرسة البنات والثالث ويؤدى إلى قصر الأحلام وهذه الثلاثة جسور مرتبطة أحدها بالآخر بواسطة صف أعمدة يفصلها جميعا من « ديوان با كيزى » وهو ثانى المبانى الرئيسية التى يتركب منها المحل الخاص . أما القسم الثالث فيشمل الديوان الخاص أو على الأشهر قسم « عبادة خانة » « وعنخ ميشولى » « ومقعد المنجم » .

الديوان الخاص

ويعتبر أغرب بناء فى المجموعة الملكية فى فتح بورسكرى . وليس فى المجموعة المذكورة بناءان على طراز واحد . وهو من الحجر الأحمر وترتيب داخل الديوان فذ لا نظير له . وقد بناه أكبر فى سنة ١٥٧٥ وهو المعروف « بعبادة خانة » وفيه كان يجتمع ممثلو الأديان المختلفة فى مساء أيام الجمع للبحث والمناظرة . وقد استخلص الامبراطور لنفسه عقيدة خاصة جمعت خلاصة الأديان التى كان البحث يجرى فيها أمامه وقد سمى عقيدته تلك بعقيدة التوحيد .

ويخيل الى الأنسان من الخارج أن الديوان الخاص مركب من طبقتين مع أنه يتركب فى الداخل من حجرة واحدة عالية وفى وسطها عامود ضخم على شكل مثمن .

والمقول أن عرش أكبر كان فى وسط ذلك المكان المنعزل . وفى نهاية كل من الدهاليز الأربعة كان يجلس وزير من وزراء الدولة الكبار . وكان الامبراطور يسأل بنفسه كلا من أصحاب الحاجات عن حاجته وهم وقوف حتى إذا اقتضى الأمر التفت الامبراطور الى أحد هؤلاء الوزراء لاستطلاع رأيه . أما الذين يشتركون فى المناقشات التى تجرى فى اجتماعات أيام الجمع فيخصص لهم مكان فى الردهة المستديرة . وتوجد فى الحيطان فوقها دواليب لحفظ الوثائق وما اليها من الأشياء الثمينة وهى مجهزة من الداخل بلوحة حجرية ومن الخارج بباب حجرى عليه قفل ضخم . ويقال أن الخوف من القتل هو الذى حدا بالامبراطور أكبر أن يشيد المكان على هذا النحو . ويوجد فوق السقف

المسطح أربعة أكشاك وهناك درجان يوصلان إلى السطح منقوران فى جوف الحائط.

ديوان باكيزى

هذا الديوان مفروش بالأسفلت ويوجد إلى شماله الديوان الخاص وبه مربعات سوداء وبيضاء للعبة «باكيزى» حيث يجلس الامبراطور فوق مقعد مرتفع فى الوسط تحت سجف من الحرير المزركش الفاخر. ثم تقوم بتمثيل حجارة اللعب فتيات من الرقيق الأبيض فى ثياب زاهية الألوان فينتقلن من مربع إلى آخر حسب الطلب.

مقعد المنجم

فى الناحية الشمالية الغربيه من ديوان باكيزى يوجد «شاترى» صغير أى منصة مربعة الشكل مغطاة ويبلغ كل ضلع منها تسعة أقدام وتسع بوصات وتمتاز هـذه المنصة بالدعائم الدقيقة الصنع التى تحمل السقف المسطح بينما يلوح أن الأرضية المرتفعة كانت محاطة بسياج حجرى. وهذا الطراز هو الطراز المعمارى الذى كان مألوفا فى عهد «جينا» فى القرن الحادى عشر. وهذا المقعد ويسمى مقعد المنجم كان خاصا «بيوجى» وكان أكبر كغيره من العظماء يشخص ببصره الى ما وراء الطبيعة. ولذلك كنت تراه كثير البذل لجماعـة العرافين ويقال أن رغبته فى اختراق حجب الماضى والمستقبل كانت تدفعه الى قضاء ساعات متواصلة بعد الغسق فى محادثات سرية عميقة مع هذا العراف البراهمى فى مقعد المنجم.

وقد حدثنا أبو الفضل كيف أن الامبراطور كان يقرب إليـه رجال

هذه الطبقة دون طبقات الهندوس الاخرى . وكان لا يضن عليهم بالمقابلات الخصوصية ليلا فيسألهم عن عقيدتهم الدينية وعن مهمتهم وقدرتهم المزعومة على إخفاء الروح من الجسم هذا الى الأسئلة الخاصة بعلم تحويل المعادن الى الذهب وقراءة ملامح الوجه وغيرها من الفنون الخفية . وكان من عادة أكبر أن يرأس كل سنة فى ليلة معينة تسمى ليلة «سيفرات» اجتماعا يضم كافة ما فى الدولة من المنجمين .

عنخ ميشالى أو بيت لعبة الاستخفاء

وعلى بعد خطوات من الديوان الخاص بغرب يوجد منزل ذو ثلاث حجر مشيد على جملة أقبية وهو مشهور لأن سيدات البلاط وأطفالهن كن يلجأن اليه ليلعبن اللعبة المسماة « لعبة الاستخفاء » وهى تسلية كثيراً ما كان أكبر يشترك معهن فيها .

خوابجارغ أو قصر الأحلام

تشتمل واجهة المحل الخاص الجنوبية على سلسلة من المبانى تعلوها «خوابجارغ» أى قصر الأحلام وهى حجرة النوم الخاصة بأكبر . وهناك عدة ممرات تصل هذه الحجرة بقصر السلطانة التركية و« بيت مريم » و بقصر « جوده باي ».

وهناك باب مسدود فى الحائط الغربى وكان فى الماضى يؤدى إلى الجوش الموجود أمام دار المحفوظات . فمن هـذا الباب كان رجال البلاط يمرون إلى دهليز عليه ستار الى أن يصلوا الى حجرة النوم الخاصة بالامبراطور فى الجهة العليا .

وكانت هذه الحجرة محاطة بشرفة عرضها تسعة أقدام ونصف . وليس شك فى أن مخدع النوم هذا يشهد لأكبر بحسن ذوقه فى اختيار الألوان والنقوش الجميلة والخط الفارسى البديع المكتوب بماء الذهب وتحيط به أشكال زاهية زرقاء لها حواف ذهبية .

بيت السلطانة التركية

بقرب مدرسة البنات فى الناحية الشمالية الشرقية . وهو عبارة عن حجرة واحدة تحيط بها شرفة . ومع أن البناء صغير فهو بلا مراء أجمل ما فى فتح بور سكرى . وهو من الحجر الأحمر الخالص وكل بوصة من حيطانه سواء من الداخل أو من الخارج محفورة حفرا جميلا هذا إلى أن الواجهات لا نظير لها فى كافة أنحاء الهند من حيث الدقة والعناية بالتفصيلات . والسقف منحوت على شكل القرميد الايطالى القديم وتوجد فى الداخل عدة نقوش تمثل مناظر الغابة والزهور والطيور .

وهناك درج يمتد من الشرفة الشرقية إلى حمام تركى فى الناحية الجنوبية للديوان العام .

الحمام التركى

وهو الحمام الخاص بزوجة أكبر التركية وتفصله عن بيتها حديقة صغيرة ممتدة لغاية حائط الديوان الخاص . وكان هناك درج فى الجهة الجنوبية يؤدى الى سقف الديوان العام وكان مغطى بالستائر المنقوشه لتمكين البيجام وما يلحق بها من السيدات ان يتخطرن من هنا وهناك كما يردن دون ان يراهن أحد .

وتتجلى البساطة فى حائط الحمام من الخارج . أما من الداخل فالمكان

متعة للنظر وفيه نقوش بديعة . وهناك صهريج من الحجر وتحته عدة حمامات وهى خاصة بالامبراطور . أما الماء فيؤتى به من بئر هائلة محفورة فى الحجر الصلد وتحيط بها غرف وردهات ذات قباب .

بيت مريم

وكان يسمى بادىء ذى بدء بمقام «سوناهرا» أو البيت الذهبي نظرا للنقوش الذهبية الكثيرة التى كانت تغطى الحيطان من الداخل والخارج . ولكن هذا البناء أصبح يسمى الآن « بيت مريم الزمنى » وهى الزوجة الثالثة لأكبر وأم جها نجير شاه .

والبيت قائم على منصة مرتفعة وطولها حوالى ٦٠ قدما وعرضه نحو ٤٨ ½ قدما . وتحيط به شرفة من جوانبه الثلاثة ويتركب الطابق الارضى من أربع حجر أحدها مستطيلة وتمتد من الشمال الى الجنوب . أما الحجر الأخرى فوقعها من الحجرة المستطيلة على شكل زاوية قائمة من ناحيتها الجنوبية . وتوجد ثلاث حجر فى الدور الأول . وهناك درج يؤدى الى السقف المسطح .

وتجد الكثير من أعمال الحفر فى هذا المكان كغيره من المبانى التى انشأها اكبر والمناظر فى الداخل تمثل الحياة الهندية كل ذلك مراعاة لشعور الامبراطورة .

هوى محل

يوجد باب يوصل حجرة الطعام الخاصة بالامبراطور الى هوى محل « أو قصر الهواء » وهو عبارة عن حجرة هائلة تحيط بها حواجز حجرية بها ثقوب صغيرة . وكان الامبراطور يحب الالتجاء اليها عند اشتداد الحر لانها

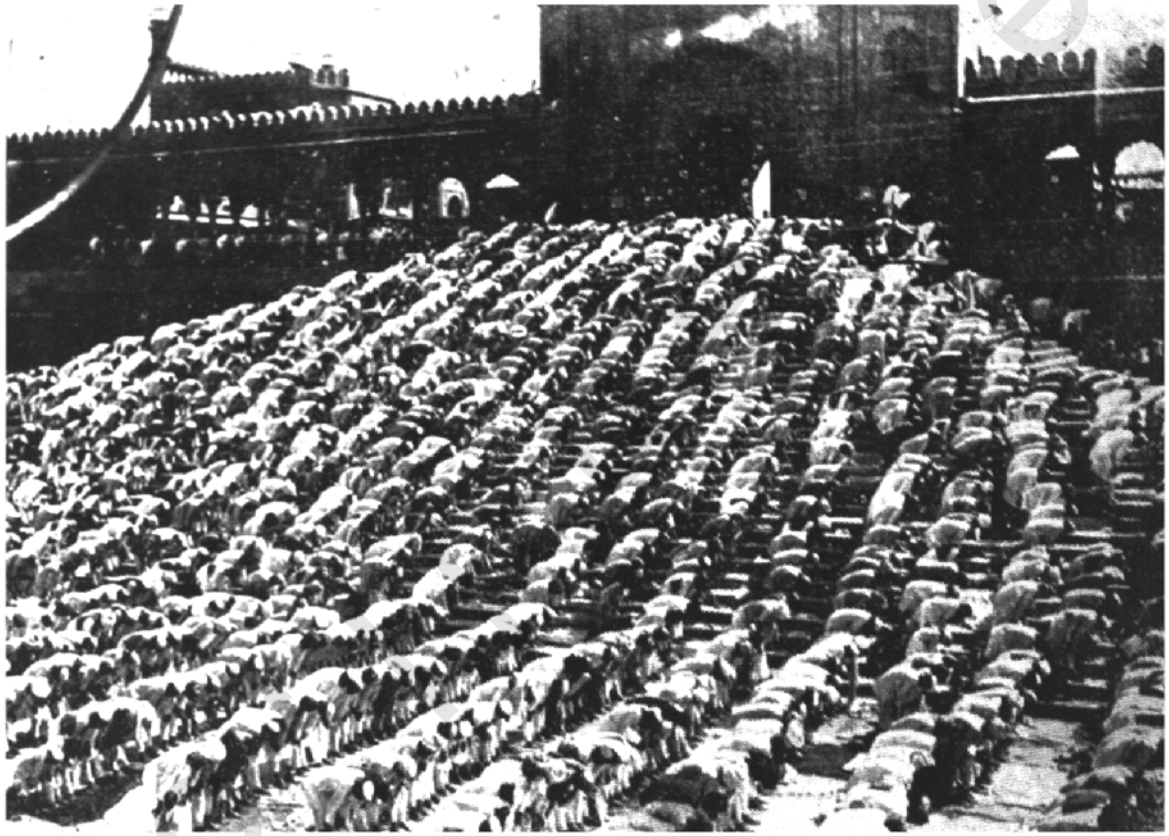

المصلون على درج مسجد دلهى

تطل على منظر جميل . ويوجد غرب هذه الحجرة درج يوصل الى قناة المياه الممتدة الى بوابة الفيل

حمامات زينانا

وتوجد أمام حائط السراى الجنوبية المباشرة وكان الوصول اليها بواسطة ممرين ضيقين أحدهما الى الشرق والثانى الى غرب البناء الرئيسى الجنوبى . وهى واقعة بين حوشين وتحيط بهما عدة ممرات . ومنطقة الحمامات يبلغ طولها ١٢١ قدما وعرضها ٣٥ قدما . ولكل حمام قبة . ومثلها كمثل الحمامات التركية تسخن بالهواء الساخن .

وكانت هذه الحمامات تحت حراسة شديدة . فقد كانت تشرف عليها فى الداخل حارسات وصفهن أبو الفضل « بالنشاط والوقار » . أما فى الخارج فكان القائم بالحراسة عدد كبير من الخصيان الامناء . وعلى بعد بضع خطوات منهم كان جماعة من راجبوتانا الموثوق بهم وأخيرا كان يوجد العسس والبوابون القائمون بحراسة البوابات .

وكان يوجد فى الماضى ممر مسقوف — وقد هدم الان — يصل القصر بحجرة النوم الخاصة بالامبراطور .

هيران منار

وهو برج غريب يقال إنه أكبر أنشأه فوق رفات فيله المحبوب على شاطىء البحيرة العظيمة الاصطناعية . وهذا البرج هو صورة للمنار الشهير القائم بقرب ضريح سيدنا الحسين فى كربلاء . والحيطان الخارجية مغطاة بحجارة

تقليد لأنياب الفيلة وتوجد بها ثقوب لا تحصى على شكل كواكب لادخال النور إلى الدرج الحلزونى العميق فى داخل المنار . وهو على شكل مثمن عند القاعدة ثم يستدير كلما ارتفع عن الأرض ثم يدق تدريجا إلى أن ينتهى بقبة . وقد كان هناك ممر مسقوف يصل هيران منار بالسراى وفى هذا الممر كانت السيدات تذهب إلى المنار ويصعدن الدرج إلى قمة البرج ومن هناك يشهدن الألعاب المائية على البحيرة أو مناورات الجيش الامبراطورى فى السهل القريب . ويقال ان الأمبراطور أكبر كان مولعا بمشاهدة مصارعات الحيوانات المتوحشة وصيد الغزلان من هذا البرج .

البحيرة

وطولها سبعة ميل وعرضها ميلان . وقد أنشأها أكبر لتكون وسيلة من وسائل الدفاع عن المدينة من جهة الغرب . وكان الماء يصلها من نهر بانجنجا وتغذى مياهها المنطقة المجاورة بأسرها .

المسجد الجامع

فاذا ما عاد السائح أدراجه ألفى نفسه فى الفناء الكبير القائم فيه المسجد الجامع الذى شيد فى سنة ١٥٧١ على طراز الحرم المكى المشهور وهو أكبر وأفخم بناء فى فتح بور سكرى . ويقول بعض الثقاة أنه من أحسن ما يوجد من طرازه فى الهند . على أن مئات المصلين لا يقصدونه من أجل جمال بنائه بل لقربه من ضريح الشيخ سالم شستى وهو من الأماكن التى يحج اليها كثير من مسلمى الهند .

ويبلغ عرض المسجد ٤٣٨ قدما من الشمال إلى الجنوب وطوله ٥٤٢

قدما من الشرق إلى الغرب والحوش مكشوف وتحيط به من جوانبه الثلاثة عدة أروقة وحولها عدة بوابات إلى الشرق والجنوب .

أما الديوان أو الضريح فيمتد على طول الجانب الغربى للحوش وفوقه ثلاث قباب وفى داخله حجرة مربعة بين صالتين تقوم فيهما الأعمدة وبالحائط الغربى عدة محاريب منقوشة بمختلف النقوش الملونة .

ولقد حاول أكبر مرة فى خريف حياته أن يلبس مسوح الواعظين فصعد يوما إلى المنبر وأراد أن يخطب جمهور المصلين ولكن ما أسرع ماتغلبت عليه رهبة الموقف وهوا لحاكم القاهر والقائد الذى لم يعرف الخوف سبيلا إلى قلبه والقاضى النزيه الذى فزع الحاضرون إلى عدله فى المجلس العام ، ثم تغلبت عليه رهبة الموقف وانقلب ضعيفا كالمرأة فى حضرة العلى الجبار . فبعد أن فاه ببضع عبارات مضطربة اضطر إلى مغادرة المنبر وكاف أمام البلاط بارتقائه واتمام الخطبة .

ضريح الشيخ سالم الشيستى

ويعظمه المسلمون و يحجون لمزاره باعتباره ضريح أحد القديسين وهو أنموذج جميل من نماذج الفن المعمارى فى بداية العهد المغولى . ويقوم هذا الضريح فى حوش المسجد الجامع وقد شيد فى سنة ١٥٨١ وهو بناء مربع من المرمر الأبيض الخالص وطول كل جانب من جوانبه الأربعة ٤٨ قدما تقريبا . وهناك دهليز بأعمدة فى الجانب الجنوبى ويقال أن لامثيل له فى الهند بأسرها لأنه انموذج بديع للحفر فى المرمر الأبيض . والأعمدة عجيبة

حقا لأنها صورة إسلامية لأعمدة «درافيديان» التى كانت موجودة فى أحد معابد مدراس فى القرن العاشر .

ويؤدى الدهليز الى شرفة من المرمر تحيط بها حواجز منقوشة وبها ثقوب صغيرة ويدخل الضوء الى الحجرة الوسطى بواسطة حواجز بها ثقوب دقيقة وهذه الحواجز تملأ فتحات النوافذ الثلاث . ويشغل الضريح وسط الارضية المرمر وفوقه سجف من قشر السلحفاه وقد جاءت صناعته آية فى الجمال والابداع ومطعمة أحسن تطعيم بالصدف . ولا يدهشك حسن الصنعة وحسبك ان السجف والدرابزين والنوافذ من صنع أكبر وأدق صناع الهنود .

وفى الحق أن هذا الضريح هو من أجمل وأبدع ما أخرجته الصناعة الاسلامية فى الهند كما أن المسجد هو بلا ريب من أكبر وأفخم مساجد الهند .

ولا حرج علىّ أن أقول إننى فتنت بجمال هذا الضريح حتى انى لم أتمالك من العودة إلى مشاهدته عدة مرات فكنت كلما ابتعدت عنه قليلا أو انشغلت برؤية مناظر أخرى عدت من جديد لتزويد عينى من جماله .

وإلى هذا الضريح يحج الكثيرون من مسلمى الهند للزيارة وقلما يوجد من يذهب إلى أجرا دون أن يزور هذه الجهة التى لا يوجد لها نظير فى كافة أنحاء العالم . وليس للنساء الزائرات أن يتجاوزن الشرفة . وعلى الانسان أن يخلع حذاءه إذا أراد الدخول لزيارة الضريح .

بولاند داروازا

تشرف على الجانب الجنوبى لحوش المسجد الكبير « بولاند داروازا » أو البوابة الهائلة وهى أعلى بوابة فى الهند بلا استثناء فارتفاعها عن سطح الأرض يبلغ ٧٨ مترا وقد شيدها أكبر فى سنة ١٦٠١ لتخليد ذكرى انتصاره على جنوبى الهند. وقد كتب على أحد جوانبها العبارة المشهورة التى أضافها أكبر بعد أن تغلب على خاندس وهى « أن جلالة الملك الذى يعتبر بلاطه جنة وهو ظل الله فى الأرض جلال الدين محمد الامبراطور قد فتح الديكان وداندز التى كانت فى الماضى بأيدى خاندس فى سنة ١٠١٠ هـ » وفى جانب آخر كتبت سورة يس كاملة بالخط الثلث البديع.

باديشاه داروازا

تسمى البوابة التى فى الجانب الشرقى لفناء المسجد بباديشاه داروازا أو بوابة الامبراطور لأن جلالته كان يجتازها يوميا فى طريقه للصلاة فى المسجد الجامع.

العودة من فتح بور

وفى العودة مررنا بأحد الهنود يسحب دبا فاوقفنا السيارة وطلبنا منه أن يرينا بعض ألعابه. وقد دهشنا إذ رأينا الدب يرقص رقص الادميين. ثم أعطى الهندى دبه نوعا من الدف يشبه « العود » فانطلق الحيوان يوقع عليه أجمل توقيع. ثم ناولناه قليلا من الروبيات وعدنا إلى الفندق.

وكم كنت شديد الخوف من أن تتحطم بنا السيارة فى الطريق لقدمها ولكنها والحمد لله أوصلتنا الفندق بسلام فى منتصف الساعة الثامنة مساء.

١٣ سبتمبر

وفى صبيحة يوم ١٣ سبتمبر بكرنا بالاستعداد لزيارة تاج محل . ففى الساعة السابعة وافتنا السيارة بالفندق ولما لم يحضر الدليل استصحبنا خادمنا وقصدنا إلى تاج محل وهو على بعد ١٥ دقيقة من الفندق .

تاج محل

إن الباعث على تشييد هذا البناء الذى يعتبر أعجوبة الأعاجيب هو الحب الممزوج بالحزن . وليس من يجادل فى أن شاه جهان قد وفق فى تحقيق أمنيته بتشييد ضريح لقرينته يعتبر تاج الاضرحة . فهذا التذكار المرمرى المقطوع النظير والذى بناه لتخليد اسم زوجته المحبوبة ممتاز محل هو بلا جدال أبدع ما شيد فى سبيل الحب .

وقد ولدت ممتاز محل أو أعجوبة الزمان — كما كانوا يسمونها — فى سنة ١٥٩١ . وهى من سلالة فارسية وابنة إسعاف خان رئيس وزارة شاه جهان وشقيق الامبراطورة نورجهان زوجة جهانجير .

وكان زواجها بالامبراطور جهان فى سنة ١٦١٢ وكانت وقتئذ فى الأحدى والعشرين من العمر . ومع أن ممتاز محل هى الزوجة الثانية للامبراطور فقد استحوذت على قلبه وملكت عليه مشاعره وحسه . وقد ولدت له ثمانية أولاد وست بنات ولكن لم يشب عن طوق الطفولة من هؤلاء الأطفال الأربعة عشر سوى ستة فقط . ولما كانت مستودع أسراره فقد كانت مستشاره الأمين ورفيقته فى كافة أسفاره . وقد كان تعصبها ضد المسيحيين سببا فى نفور جهان من الاوربيين أثناء تربع أبيه فى العرش وانقلابه إلى مطاردتهم علنا بعد اعتلاء الأريكة مكان أبيه . وليس

من شك فى أنه إذا كان ابنهما أو انجزب قد ظهر بمظهر المتعصب المتطرف فان الفضل فى ذلك يرجع الى ماغرسته ممتاز محل من التعاليم الدينية فى ذهن ابنها هذا وهو صغير . وقد سبق أن قلنا ان الامبراطورة جريا على عادتها من مرافقة بعلها فى رحلاته ذهبت معه فى حملة ضد خان جهان لودى فأدركها المخاض فى جهة برهان بور وولدت الطفلة الرابعة عشر وأسمتها جوهرة . ثم أنشبت المنية أظفارها فيها فى المعسكر يوم ١٧ يونيه سنة ١٦٣١ وعمرها وقتئذ ثلاثون ربيعا وأربعة أشهر .

والدائر على ألسنة الناس فى الهند أن الاستاذ عيسى هو المهندس الذى تولى بناء التاج وأن اسماعيل خان أحد الرعايا الأتراك هو الذى بنى القبة وأن الكتابة التي على الحيطان من صنع أمانات خان وهو فارسى من سكان شيراز . ولعل شغل الترصيع بالمرمر هو من صنع « أوستن دى بوردو » وهو أحد زنادقة الفرنسيين وكان جوهريا عبقريا واليه يرجع الفضل فى شغل الموزيك الذى زينت به سراى جهان فى دلهى . والمفهوم أنه كان فى أجرا بينما كان العمل جاريا فى تاج محل . ولا ريب فى أن الحجر الصلد الذى يتوج الضريح هو من أنفس ماعرفه العالم من هذا النوع . وقد جىء بالمرمر الأبيض الذى استعمل فى البناء من جايبور بينما الحجر الأحمر جىء به من فتح بور سكرى بينما العالم بأسره اشترك فى كنوز الذهب والفضة والجواهر ومايشبه الأحجار الكريمة التى ذهبت فى تزيين المكان

وقد بدىء بالعمل فى سنة ١٦٣١ وانتهى فى سنة ١٦٤٨ وكان يعمل فيه يوميا ٢٠٫٠٠٠ عامل .

فلما وصلنا إلى التاج اجتزنا الباب فوجدنا أنفسنا فى الحديقة . وبين ما فى التاج من بدائع الفن رسم النافورات فى الحديقة . وليس شك فى أن النافورات هى أول ما يستلفت نظر الداخل . حتى إذا اجتازها الانسان ألفى بابين من المرمر الأبيض . فالمنظر من باب الدخول الى التاج محل أو الخروج منه كلاهما جميل بحيث لا يمتاز أحدهما عن الآخر .

البوابة الشمالية

وهى البوابة الرئيسية وهى والحق يقال آية من آيات الفن صنعت من الحجر الأحمر المرصع بأحجار الموزيك الملونة والأرضية من المرمر . وفوق البوابة أكشاك وقباب ومنائر متلألئة . أما الصالة التى على شكل مثمن فتحيط بها عدة حجر تستعمل أحدها كمتحف .

ويمتد من البوابة الرئيسية دهليز حجرى تجتازه فى منتصفه قناة للمياه وعندها عدد من النافورات البرونزية ثم يمتد الدهليز بين صفين من شجر السرو إلى أن يؤدى إلى الضريح وهو قائم على منصتين السفلى وهى من الحجر الأحمر والعليا وهى من المرمر الأبيض وتبلغ ٣١٣ قدما مربعا ومفروشة بما يشبه لوحة الشطرنج أى تحتوي على مربعات من المرمر الأسود والأبيض وفى كل ركن مأذنة ذات ثلاث طبقات .

والمدخل على شكل قبوة يبلغ ارتفاعها ٦٦ قدما ونصف . وهى ككثير مما كان يشيد من المبانى فى الفرس أو التركستان تمثل المثل الأعلى فى دقة الصناعة وبدائع الفن . ومما يكسبها بهاء خاصا الآيات القرآنية المكتوبة على الجانبين بالخط الثلث البديع فى القسم الأعلى منها . فان الحروف هنا حروف

سوداء بارزة والأرضية فى بياض الثلج . وشغل النحت فى المرمر هنا هو آية الآيات من حيث الإبداع والدقة المصحوبة بالجودة . ثم سرنا قليلا حتى توسطنا الحجرة الرئيسية وهى على شكل مثمن وفوقها القبة الكبرى الشهيرة. وقد صفق أحدهم بيديه وتمتم بضع كلمات وكم كانت دهشتنا لشدة رجع الصدى . ويشغل قبر الامبراطورة وسط هذه الأرضية المرمر التى يتأرجح فوقها مصباح برونزى مطعم بالذهب والفضة من صنع مصر وهو هدية من لورد كيرزون .

أما ضريح الامبراطور فينحرف قليلا إلى الجانب . ويرتفع عن الضريح الأول بنحو قدم . وقد نثرت أوراق الورد فوق الضريحين فتركت عبيقا ذكيا يخيل إلى الانسان أنه خاص بالكائنات السماوية .

والضريحان من المرمر الأبيض المطعم بالموزيك البديع فيما يشبه الأحجار الثمينة . ويكتنف الضريحين حاجز من المرمر الأبيض به فتحتان مشغولتان شغلا دقيقا حتى ليخيل اليك أن الستار من « الدنتلا » حتى إذا أنعمت النظر فيه بهرت عينيك دقة الصناعة فتظن أن « العنكبوت » هو الذى تولى عملية الحفر الدقيق فى المرمر !! وهذا الحاجز الذى يحار القلم فى وصفه له حافة من الزهور مصنوعة من الموزيك الملون وقد رصت القطع بدقة إلى جانب بعضها حتى أن الوردة الواحدة كانت تحتوى على مالا يقل عن إحدى وستين قطعة من هذه الدرر المختلفة الألوان .

أما الحاجز الحالى فقد وضعه أورانجزب بدلا من الستار المصنوع من الذهب الذى وضعه شاه جهان على ضريح الامبراطورة . وكانت هناك عادة

بوضع سجف مرصع باللآلىء فوق ضريحها كل عام بمناسبة ذكرى يوم اقترانها بجهان وكذا فى مساء أيام الجمع . ولكن هـذا السجف استولى عليها الأخوان حسين على وعبد الله كما استوليا على قطع الماس الثمينة وما يلحق بها من الدرر الأخرى التى لا تقدر بثمن والتى كان الضريح مطعما بها .

وعملا بالتقاليد الأسلامية يوجد اللحدان فى قبو تحت الحجرة الوسطى التى تحتوي على التذكار . وهناك درج يؤدى إلى هذا القبو المظلم الذى تسكنه الوطاويط حيث يوجد الناووسان وهما يشبهان الضريحين اللذين فى الحجرة كل الشبه . ومع أن الحيطان والسقف تلوح عليها جميعا مظاهر البساطة الآن فقد كانت يوما ما مموهة بالذهب الخالص . كذلك كان لحد الامبراطورة مموها بهذا المعدن الثمين .

وبقدر ما كانت زوجته عزيزة عليه فان الامبراطور لم يفكر مطلقا فى أن يشاطرها لحدها بل كانت فكرته أسمى من ذلك بكثير . ولولا ثورة أولاده الأربعة عليه وما تلا خلعه عن العرش من الاعتقال الطويل الأمد فى برج الياسمين فى قلعة أجرا — لولا هذا لكان جهان نفذ فكرته ببناء ضريح لنفسه أعظم جمالا وأكثر روعـة من تاج محل على الضفة الأخرى من نهر جومنا على أن يتصل ضريحه وضريح زوجته المحبوبة بجسر من المرمر الأبيض منقوش بنفس ذلك الطراز البديع . ولكن هذه الفكرة لم تصادف هوى من نفس أورانجزاب . فان ذلك الحاكم المسلم الصارم اكتفى بوضع أبيه بجانب أمه فى تاج محل حيث توجد تحت ضريحيهما الجميلين من المرمر المطرزين بالزهور المرصعة بالجواهر وعلى عمق ستة أقدام فى باطن الأرض — توجد رفات ممتاز محل وزوجها وعشيقها الامبراطورى .

ولا ريب فى أن الذى يكسب تاج محل كل هذه الشهرة العالمية الامتزاج البديع بين الخضراء والبيضاء وهو امتزاج يدل على منتهى حسن الذوق. والضريح من المرمر الأبيض وله قبة هائلة وجملة مآذن ثم هو قائم فى وسط حديقة غناء وأمامها النافورات كل ذلك يضاعف من روعة البناء ويزيده جمالا .

المسجد الامبراطورى

وهو بناء بديع يمتد من الناحية الغربية للشرفة وتقوم حوله عدة مآذن من الحجر الأحمر ذات ثلاث طبقات وبه حواجز حجرية للنوافذ ذات ثقوب صغيرة ودرابزين وقباب مرمرية وأبراج مموهة بالذهب . أما الشرفة المطلة على النهر فتشرف على قصر خيالى بديع للمساكن العامرة بالحدائق الغناء التى كانت تمتد على طول ضفة النهر فى عهد المغول .

وينقسم صحن المسجد إلى ٥٦٦ مكان للصلاة والأماكنة مفصولة بعضها عن بعض بخطوط صفراء وبيضاء وسوداء . أما المنبر فمن المرمر الأبيض ويصعد اليه الخطيب بثلاث درجات والمحاريب الثلاثة فى الحائط الغربية هى أيضا من المرمر الأبيض وفيها نقوش متعرجة وتبرز من السقف والحيطان نقوش على شكل زهور بديعة .

وبعد أن فرغنا من رؤية تاج محل عدنا إلى الفندق فى منتصف الساعة التاسعة صباحا مغتبطين بإتمام مشاهدة أجمل ما فى الهند من النفائس وما أبدعته الطبيعة وزينته يد الانسان .

وبزيارتى للهند ومشاهدة ما فيها من الآثار قد أتممت رحلاتى حول العالم ومشاهدة ما فيه من البدائع الفنية .

وعلى أن كتب السياحات تخبرك أنه لا يزال يوجد فى أجرا الشىء

الكثير مما يستحق الزيارة ولكننا اكتفينا بمشاهدة الأهم وضربنا صفحا عما عداه . فمثلا ترى الكتب المذكورة تشير بتمضية زمن طويل فى مشاهدة هذه الآثار فى تؤدة ورفق وهو لغو لا يعتد به اذ بحسب السائح النشيط الذى يفهم لباب الأمور بسرعة واعتاد رؤية الآثار النفيسة ان يلقى نظرة اجمالية فيحيط باسرار ما تحت نظره من الآثار . فهو ليس فى حاجة إلى دراسة عميقة دقيقة وإلا لو نزل على مشورة هذه الكتب من رؤية تاج محل عند مطلع الشمس ووقت غروبها أو فى الفجر لما كان له عمل طول اليوم إلا الاختلاف على ذلك البناء البديع ذهابا وإيابا بلا جدوى .

وفى الساعة الخامسة بعد الظهر ذهبنا إلى سيكندرا لرؤية ضريح أكبر وتبعد عن أجرا بستة أميال فوصلناها فى عشرين دقيقة .

زيارة سيكندرا

وقد أخذت هذه المدينة اسمها عن السلطان « سيكندرلودى » وهو أول من اتخذ أجرا عاصمة الملك وتكاد تنحصر أهمية سيكندرا الآن فى انها مقر رفات أكبر .

ضريح أكبر

ليس لهذا الضريح نظير لا بين الآثار الفارسية ولا العربية وقد أجمع المهندسون المعماريون على أن تصميمه مأخوذ عن الآثار البوذية . وقد اختار الأمبراطور المغولى بنفسه هذه البقعة اذ وقع اختياره على حديقة بهيشتباد بالقرب من قصر لودى القديم مقر ضريح زوجته الآن . ولم يكن قد تم من الضريح شيء يستحق الذكر عند وفاة أكبر اللهم الا حيطان الحديقة

وبعض أعمال أولية قليلة الأهمية. ولسبب ما سار العمل فى الضريح ببطء مع أن مالا يقل عن الثلاثة الآلاف صانع كانوا يعملون فيه .

ولقد حدثنا جهانجير فى مذكراته بصراحة غير مألوفة كيف أنه ذهب فى العام الثالث من إعتلائه العرش ماشيا على الاقدام لزيارة ضريح أبيه أكبر . ومن ثم تضاعفت الهمة حتى تم بناء الضريح فى سنة ١٦١٣ أى بعد وفات أكبر بثمانى سنوات .

وحديقة بهيشتباد تبلغ مساحتها ١٥٠ فدانا ويحيط بها سور يبلغ ارتفاعه ٢٤ قدما وقد بنى هذا السور فى مرحلتين . أما السور الأول كما أقره أكبر فقد بلغ إلى ارتفاع ١٣ قدما تقريبا . فلما خلفه جهانجير فى الحكم قرر رفع السور إلى الارتفاع الحاضر حتى لا يتمكن راكبو الأفيال والابل من التطلع إلى مافى داخل السور . وفى الأركان الأربعة أبراج مثمنة الشكل لها منظر غريب وارتفاع كل منها ٤٣ قدما . وكلها تنتهى فى اعلاها بأكشاك مثمنة الشكل تعلوها قباب ما عدا البرج الواقع فى الزاوية الشمالية الغربية .

وقد تم جزء من الضريح فى عهد أكبر وهو الجزء المبنى بالحجر الأحمر المطعم بالمرمر الأبيض . أما المآذن وهى من خالص المرمر فقد تم انشاؤها فى عهد ابنه جهانجير وهى مزينة بمختلف الآيات القرآنية المحفورة فى الحجر بخط التعليق الفارسى الجميل .

وللسور أربعة أبواب بديعة من الحجر الأحمر يقع كل منها فى منتصف الحيطان الأربع . أما البوابة الغربية فكانت تستعمل كمسجد . والأبواب

المذكورة هى عبارة عن قصور مصغرة مركبة من عدة حجر موزعة بين طابقين الطابق الأرضى والطابق الأول . ومما لفت نظرنا اثناء اجتياز الحديقة مافيها من الغزلان التى تمرح بملء الحرية مما ذكرنا بما يفعله الانجليز .

وفى داخل المسجد ترى النقش بالألوان مما يثبت أنها من الطراز الفارسى . وأغلب هذه الألوان هو الازرق الداكن الموشى بالذهب . وهناك عدة نقوش من المرمر الملون موجودة فى الارض وفى الجوانب كما فى مصر .

والمدخل الرئيسى هو من الجهة الجنوبية وهو أكبرها جميعا وشكله مربع ويشرف على أركانه أربع مآذن من المرمر الابيض مستديرة الشكل . والمدخل مغطى من الخارج بالمرمر الموزيك . أما الداخل فينقسم إلى عدة حجر احدهما كبيرة الحجم ومقوسة وكانت تسمى فى الماضى « نوبات خانة » أو شرفة الموسيقى . وهنا كانت الطبول تقرع اجلالا للموتى فى الفجر وكذلك بعد شروق الشمس .

وتمتد من كل من الابواب المذكورة ممشى عريضة تؤدى إلى الضريح وهو بناء جميل هرمى الشكل ويحيط بكل من الطبقات الخمس أروقة مسقوفة وقد بلغ من اتساع الاروقة المحيطة بالطابق الأرضى أن أورطة بريطانية من اورط دراجون مع انها قد اتخذتها مقرا لها تحت قيادة كبيرها « لورد لايك » فى مستهل القرن التاسع عشر فانها مع ذلك لم تشغل منها إلا جناحا بسيطا .

أما قاعدة الضريح فمربعة وطول كل ضلع ٣٠٩ قدما وهى قائمة على هضبة مرتفعة شبه مربعة طولها ٤٩٦ قدما وثلاث بوصات . ويشهد رسم هذا

البناء الغربى الجميل وما فيه من أعمال الحفر الهندية وشكله البوذى على عقيدة صاحبه المختلطة .

ويدخل الانسان إلى الضريح من الجنوب بواسطة سدة مقوسة مزينه بموزيك المرمر ويمتد من جانبيها درج يؤدى إلى ما يشبه سلاملك بثلاث طبقات . وتوجد فى الابواب الثلاثة الاخرى فى الشمال والغرب والشرق سلالم كالتى فى الباب الجنوبى وهناك دهليز بديع على شكل صليب يؤدى إلى ممر مظلم منحن طوله ١٠٠ قدم وعرضه ستة أقدام ثم من بعده إلى القبر وهو مركب من قبو له قبة تبلغ ٣٨ قدما مربعا يصلها ضوء ضعيف بواسطة أربع نوافذ صغيرة . وأرضية القبر حجرية ومنقوشة بالالوان الزرقاء الذهبية وتختلف عما يشاهد من البساطة فى الناووس نفسه المصنوع من المرمر الابيض . وكانت الارضية فى الماضى مغطاة بالسجاجيد الفاخرة بينما وضعت كتب الامبراطور وملابسه ودروعه إلى جانب لحده . ولا يعرف الآن ماذا كان نصيبها بعد أن استولى عليها أهل « جات » وذهبوا بها إلى « بهارات بور » .

ثم عدنا إلى الدور الارضى فاذا به مقسم بحواجز مرمرية بديعة إلى عدة قبور . وإلى شرقى الدهليز الجنوبى يوجد قبران مهمان أولهما وأكبرهما « لأرام بيجام » ابنة أكبر الجميلة وأحب شقيقات جهانجير اليه .

فمن الثلاث طبقات التى يتكون منها السلاملك نرى الطبقتين الاوليين من الحجر الاحمر بينما الطبقة العليا من المرمر الابيض ويقال أن جهانجير هو الذى أتمها .

النصب المقام على الضريح

تحيط بالطابق الأعلى من الضريح « تكعيبة » من المرمر نادرة الجمال ودقيقة الصنع . وهذه الطبقة مكشوفة الى السماء ويحيط بها قبو من المرمر الأبيض وتنقسم إلى أربعين قسم بواسطة أعمدة دقيقة على شكل صلبان ترتفع منها قبوات صغيرة آية فى الجمال. وهذه المنافذ هى على شكل « المشربيات » وهي آية فى دقة الصناعة ولا تقل فى روعتها عما شاهدناه فى فتح بور أو تاج محل

وتوجد عند رأس القبر وعند قدمه حلية من الزهور جميلة الشكل ودقيقة الصنع وهى على شكل إطار للوحة المكتوب عليها « الله أكبر » « جل جلاله » أما فى الجانبين وعلى قمة القبر فقد حفرت أسماء الله الحسنى التسع والتسعين ووضعت فى إطار من أبدع الزهور والنباتات وقد ظهرت فى وسطها زهرة الداهليا وزهرة اللوز وزهرة الزنبق . كذلك زينت قمة القبر « بعمامة » وهى أشبه بعادة مرعية فى بناء مقابر رجال المسلمين كما وضعت لوحة كتابة على قبرى المرأتين إشارة إلى أن القبر قبر أنثى .

كوهى نور

وتوجد إلى الجهة الشمالية للضريح ركيزة محفورة حفرا بديعا من المرمر وطولها قدمان وتسع بوصات . وقد كانت يوما ما مموهة بالذهب الخالص وتحمل الماسة المشهورة المعروفة باسم « كوهى نور ». ومهما كان من أمر الماسة فقد كانت الغاية من الركيزة حمل السراج الذى تعتبر إضاءته فى الليل عند المسلمين دليلا على حرمة المكان .

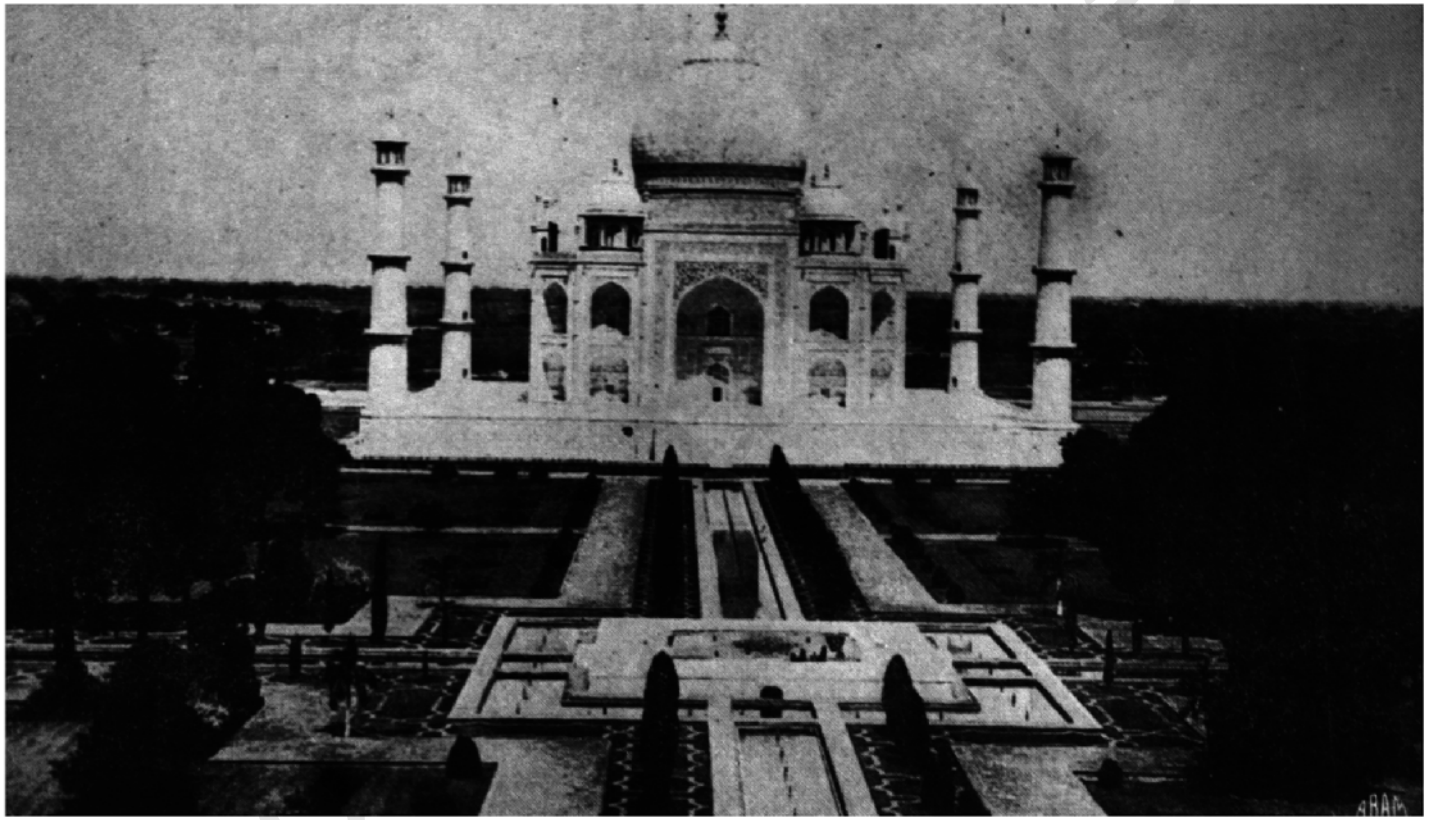

التاج محل — أجرا

أما الضريح فمكشوف للسماء . وكانت النية منعقدة — كما ذكر « فنسن » عند زيارته لسيكندرا فى ١٦١١ — على بناء قبة له « من المرمر الخالص العجيب وأن يكون سقفها من الذهب » .

وقد لاحظنا هنا كما لاحظنا فى الجهات الأخرى كثرة الحراس الفقراء تشرئب أعناقهم لرؤية أحد السائحين للحصول منه على بقشيش زهيد .

وعند الساعة السادسة عدنا بالسيارة إلى أجرا ولكن من طريق أخرى عدا التى جئنا منها . فمررنا بالسجن الكبير وبمستشفى المجاذيب ثم عدة مدارس مسيحية وكذا الكنيسة الكاثوليكية وبمدرسة أجرا الوطنية وجميع هذه المبانى فى ضواحى المدينة وعلى مقربة منها .

ورأينا فى طريق العودة قبة ضريح أحد أمراء الهند وإلى جانبها قبة صغيرة وإلى جانب هذه الأخيرة صورة جواد بالحجم الطبيعى من الحجر الأحمر . وقد حدثنا الدليل بأن هذا النبيل أقام لنفسه ضريحاً وأقام الضريح الأخير لرفات جواده العزيز عنده ورفات السايس بمناسبة قتلهما فى هذا المكان .

١٣ سبتمبر

فى اليوم التالى كانت حرارة الجو شديدة وقد جاء مندوبو كوك لنقل حقائبنا الكبيرة إلى المحطة .

لمحة عامة فى تاريخ أجرا

الآن وقد اعتزمنا مغادرة أجرا فيحسن أن أقول كلمة عامة عن تاريخها أسوة بما قلته عن دلهى . فالمؤرخ لا يجد ما ينقع غلته إن هو حاول أن يذهب

فى البحث وراء تاريخ أجرا إلى ماقبل القرن الثالث عشر . ففى أوائل ذلك القرن أخذت القبائل الأفغانية وغيرها من قبائل المناطق الشمالية تستعمر المناطق المحيطة بأجرا وتنشئ عدة ممالك صغيرة إلى أن تمت لها السيطرة على تلك الجهات الممتدة من أجرا إلى دلهي .

وكانت آخر أسرة أفغانية تولت الحكم فى أجرا هى أسرة « لودى » وكان «سيكندار لودى» أحد ملوك هذه الأسرة وأقواهم بأساً هو الذى أمر فى سنة ١٥٠٠ ميلاديه برفع أجرا إلى مصاف العواصم بينما كانت «سيكندرا» مركزاً عاماً مؤقتاً له . ومهما يكن من أمر فانه بذل أقصى عناية فى تحصين قلعة أجرا . ثم ألقى باله إلى إنشاء مدينة كبيرة تتناسب مع عظمة ملكه وأصبحت أجرا منذ ذلك الحين مقر الحكومة .

وفى سنة ١٥٠٥ حدث زلزال خرب كثيراً من المنشئات الحديثة التى شيدها سيكندر ولكن التاريخ لا يذكر شيئاً عن مبلغ ما أصاب المدينة من الضرر ولا يشير إلى موقع هذا التخريب . وعلى كل فقد توفى سيكندر فى أجرا فى سنة ١٥١٧ وخلفه على العرش « ابراهيم لودى » .

وفى عام سنة ١٥٢٦ نشبت معركة «بانيبات» الشهيرة بالقرب من دلهى . فقد تمكن بابار وهو من سلالة تيمورلنك من سحق السلطان ابراهيم لودى — على نحو مامر بك — وتفريق شمل جيشه وقتل السلطان نفسه مع أن جيش الأول كان لا يزيد عن ١٢٠٠٠ فى مقابل جيش الثانى وكان ينيف على ١٠٠٫٠٠٠ يعززه نحو ١٠٠٠ من الأفيال . وقد بدأت المعركة فى صبيحة أحد الأيام فلم ينتصف النهار حتى كان بابار قد أجهز على جيش خصمه وقد

وجدوا جثة السلطان ابراهيم فى ميدان القتال وسط جثث نحو ٦٠٠٠ من القتلى الاخرين . وفى المساء أرسلت رأس ابراهيم لبابار فرفع يديه بالشكر على ذلك النصر المبين وأرسل من فوره ابنه همايون لاحتلال أجرا والاستيلاء على ما فيها من الكنوز والغنائم . فلما وصل إلى هناك قابلته أرمل « جواليور راجاه » وكان قد سقط فى معركة بانيبات وقدمت له مجموعة من أثمن التحف والجواهر وبينها — كما حدثنا بابار « الماسة الشهيرة المسماة « كوهى نور » أى (جبل النور) التى كانت من قبل فى حيازة علاء الدين . وهى مما لايقدر بثمن حتى أن أحد العارفين بالماس قدر ثمنها بنصف ما ينفقه العالم فى يوم واحد . وعند وصولى إلى أجرا قدمها إلىّ همايون فرددتها إليه على سبيل الهدية » .

عهد بابار

ولما دخل بابار القلعة أعلن على الملأ بأن غزو الهند ليس مجرد اغارة مؤقتة بل هو فتح دائم . ومن ثم نادى بنفسه امبراطوراً على هندستان .

وقد وصف بابار وصوله إلى أجرا فقال : « لما وصلت إلى ضواحى المدينة وقفت لقضاء الليلة فى قصر سليمان . ولما كان هذا المكان بعيداً عن القلعة انتقلت فى الصباح التالى إليها وتبوأت مكانى فى قصر جلال خان » وعلى عكس ما كان يتوقع وجد أن القلعة لم تسلم لابنه همايون — الذى اكتفى بسد كافة المسالك المتفرعة منها . ثم استطرد بابار فقال : « وفى يوم الخميس ٢٨ رجب دخلت أجرا قرب صلاة العصر وتبوأت مكانى فى قصر السلطان ابراهيم . . . . وفى يوم السبت التالى شرعت فى فحص الغنيمة

والكنوز وتوزيعها . فأعطيت هومايان ٧٠٠ر٠٠٠ ليرة هذا عدا قصراً فخماً لم نحص ما بداخله . ثم أعطيت بعض الأمراء ١٠٠ر٠٠٠ ليرة وللبعض الآخر ٨٠ر٠٠٠ ليرة أو ٧٠ر٠٠٠ أو ٦٠ر٠٠٠ ليرة . أما الأفغان والحضرات والعرب ورجال البلخ وغيرهم ممن انخرطوا فى سلك جيشى فقد غمرت كلا منها بالعطايا التى تناسب مرتبته . كذلك أجزلت العطاء للتجار ورجال الأدب . وبالجملة عاد كل من رافقنى محملا بالهبات والعطايا . وفوق هذا أرسلت روبية لكل رجل أو امرأة حراً أوعبداً فى مملكة كابول » .

فيتبين لك من هذا أن الغنيمة التى استولى عليها بابار فى أجرا كانت غنيمة جديرة بهذا الاسم . ولكن الجيش برغم هذه الغنيمة الباهرة قد دبت فيه روح التذمر وأصبح يتشوق للعودة إلى بلاده حتى أن القواد أنفسهم ألحوا فى ضرورة التعجيل بالعودة إلى كابول . بل أن « خوجة خان » الشهير كتب على جدار داره هذه الكلمات قال :

« فاذا ما نجحت فى العودة عبر صحراء السند — فعلىّ لعنة الله أن رغبت فى رؤية الهند » .

وفى الحق لم يكن هذا التذمر بلا سبب . وإليك ما قاله بابار نفسه : « عندما دخلت أجرا كان الموسم موسم الحرارة . وقد فر الأهالى من الذعر حتى أنه تعذر علينا الحصول على الحبوب أو العلف . لا بل ان أهالى القرى قد دفعهم عداؤهم لنا إلى الثورة واللصوصية . وقد أصبحت الطرق غير صالحة للسير » .

وإليك ما جاء بعد ذلك من ملاحظات بابار عند دخوله أجرا قال :

« كان يخيل إلى دائما أن من أكبر عيوب هندستان عدم وجود مجارى مياه اصطناعية . وكان فى نيتى — متى اتخذت لنفسى مقراً معيناً — أن أبنى «سواقى» للحصول على مجرى اصطناعى للماء وأن أخطط حدائق منظمة . فبعد وصولى إلى أجرا بقليل عبرت نهر جومنا وأمعنت النظر فى البقع الواقعة بقرب النهر لاختيار المكان الملائم . ولكن المنطقة كانت جميعها كريهة وبشعة إلى حد أننى عدت أدراجى ساخطا متقزز النفس » . فلما لم يجد مكاناً أكثر ملاءمة من هذا شرع فى وضع التصميمات التى كانت تجول بخاطره . وسرعان ما أنشأ « الساقية الفارسية المشهورة » التى يرجع إليها الفضل فى تحويل الصحراء إلى شبه فردوس . وفضلا عن ذلك فقد أنشأ طريقاً من أجرا إلى كابول وأمر ببناء أعمدة من الحجر ارتفاع كل منها ٢٤ قدماً على طول هذه الطريق وعلى مسافة ١٤ ميلا بين كل عامودين . وأنشئت عدة نقط للبريد فى مناطق معينة من هذه الطريق المسماة « طريق الملك » بحيث لاتزيد المسافة بين كل نقطتين عن ١٦ ميلا . وكانت كل نقطة مجهزة بستة جياد « واستراحة » لساعى البريد وللسياس .

وقد ظل حكم بابار فى أجرا أربعة أعوام . ثم توفى فيها فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٥٣٠ وهو فى سن الثامنة والأربعين . وقد نقلت رفاته الى كابول لدفنها فيها بناء على رغبته .

هومايان

بعد مرور أيام ثلاثة على وفاة أبيه بابار توج هومايان امبراطوراً فى قصر أجرا . وقد قضى السنوات العشر الأولى من حكمه فى هذه المدينة لا فى

دلهى ولكنه قضى معظم وقته مع جيوشه المظفرة . وفى سنة ١٥٣٠ دحره شيرشاه وأرغمه على الفرار من البلاد . وفيما كان يعبر صحراء السند قاصداً فارس رزق فى سنة ١٥٤٢ بابنه أكبر فى القلعة الصغيرة المسماة « عمرقوت » .

وبعد أن دحر شيرشاه خصمه همايان اتخذ أجرا عاصمة له وبنى قصراً فى المكان الذى توجد فيه الآن قلعة أكبر . ثم ظل يحكم البلاد الى أن أصيب فى حادث انفجار مخزن البارود فكان فيه القضاء على حياته . وقد توفى فى سنة ١٥٤٥ .

وقد أدى الشجار بين خلفائه الى عودة همايان فاتخذ دلهى مقراً له وظل يحكم فيها الى أن زلت قدمه فسقط من أعلى درج القلعة القديمة . فكانت القاضية على حياته . وكانت وفاته فى دلهى فى سنة ١٥٥٦ .

الأمبراطور أكبر

وما كاد يوارى همايان التراب حتى خلفه على العرش ابنه أكبر الشهير . وكان وقتئذ يافعا فى سن الرابع عشرة . وقد ابتدأ حكم ذلك الأمبراطور العتيد زهاء خمسين عاما وكان معاصراً للملكة اليصابات ملكة انجلترا (فمدة حكم أكبر من ١٥٥٦ — ١٦٠٥ والملكة اليصابات من ١٥٥٨ — ١٦٠٣) .

وفى سنة ١٥٥٨ شخص أكبر إلى أجرا واتخذها عاصمة له بدلا من دلهى وشرع فى سنة ١٥٦٥ فى بناء القصر وكان أكبر البنائين كاظم خان مدير السفن .

وليس شك فى أن موقع أجرا الحربى وماءها من المركز الممتاز على ضفاف جومنا وقربها من ممالك الديكان التى كانت مطمح الأنظار ، كل هذه

العوامل كانت ذات أثر فعال فى حمل أكبر على اختيار أجرا لتكون عاصمة له بدلا من دلهى عاصمة هندستان القديمة .

وإذ وجد المدينة مجموعة خرائب وان قصر ملوك أسرة لودى غير واف بحاجته فقد عقد النية على تجديد أجرا . وتحقيقا لهذه الغاية وضع تصميم مدينة تتفق مع عظمة الامبراطورية التى كان يدير شؤونها .

وكانت نتيجة جهوده هو ومن تلاه من الأبناء والأحفاد أن تحولت أجرا من مجرد مدينة خاملة قليلة الأهمية إلى أن صارت أجمل وأغنى وأشهر عاصمة للهند .

ولما صحت عزيمته على نقل العاصمة إلى أجرا دعا إليه أمهر الصناع القريب منهم والبعيد ليساعدوه على تحقيق مشروعه وهو إنشاء مدينة جديدة عظيمة . فمن الشمال والجنوب ومن الشرق والغرب جاءه العمال الماهرون والمهندسون والحفارون والفنيون وغيرهم وكل من له دراية بفن الزخرفة والنقش فى الداخل أو فى الخارج .

ثم بدأ العمل فيها فى سنة ١٥٦٥ واستغرق بناؤها ثمانية أعوام سويا . وكان يعمل فيها بلا انقطاع زهاء ألف بناء وبلغت نفقاتها ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ روبية.

أما القلعة الحمراء العظيمة التى شيدها أكبر على شكل هلال فهى على ضفة نهر جومنا وهى أكبر قلعة فى الهند . وقد جىء بالحجر الذى استعمل فى بنائها من محاجر فتح بور سكرى . ونظرا لمتانة هذه القلعة لا تزال فى حالة جيدة إلى حد أنه قد يخيل إليك أنها بنيت منذ جيلين فقط لا منذ أكثر من ثلثمائة عام !!

ورغبة فى مرضاة مولاهم شرع المهاراجات وغيرهم من كبار النبلاء يتسابقون بعضهم مع بعض فى بذل منتهى الجهود لتجميل العاصمة . فقامت الدور الفخمة على طول ضفاف جومنا وغرست الحدائق الغناء حيث تشقها الغدران وزودت بالنافورات والبحيرات وظللت ساحاتها بالأشجار والزهور والفواكه .

وكان أكبر مولعا بأكل الفواكه وبخاصة البطيخ والرمان والعنب .

وقد أسهب المؤرخون المعاصرون فى وصف ما شيده أكبر من المدن وأطنبوا فى جمالها نظرا لفخامة قصورها وشرفاتها وبواباتها وأبراجها وأفيالها وما كان يحيط بالبلاط من مظاهر عظمة الأمراء والنبلاء .

ولكن كانت الشوارع ضيقة ومزدحمة وبعيدة عن النظافة هذا بينما كانت مساكن الفقراء تنقصها النوافذ . أما مساكن الأغنياء فكانت فى منتهى الابداع تحيط بها الحدائق الغناء وكانت على نقيض منازل السواد الأعظم وهى عشش قذرة من الآجر والخوص .

على أن أجرا قد ازدادت بهاءا على بهائها بعد انتقال أكبر الى الدار الآخرة بالضريح الذى شيده جهانجير لأبيه أكبر وبالضريح الآخر الذى شيده لحميه اعتماد الدولة . ولكن قدر أن تنتظر أجرا ظهور شاهجهان ليجعلها فريدة بين مدن العالم بفضل تاج محل — أو تاج القصور — وهو الذى أصبح ضريحا له ولزوجته ممتاز محل .

ولقد كان فى نية أكبر أن تبنى قصوره فى أجرا من النحاس ولكن قيل له أن ذلك مستحيل أولا لعدم وجود ما يكفى من هذا المعدن لتشييد

تلك القصور السامقة كما يشتهى الملك وثانيا لأنها لا يمكن أن يقطنها أحد لا فى الصيف ولا فى الشتاء بسبب شدة الحرارة أو شدة البرودة . هنالك عدل أكبر عن فكرته وأمر بأن تبنى القصور والقلعة من الحجر الأحمر النحت الكبير الحجم

ويقال ان أكبر كان يسلى نفسه عند ما قارب بناء المدينة من الانتهاء بركوب فيل مجنون لا لشىء آخر سوى تحريضه على مصارعة فيل آخر .

وقد بدأت عظمة أجرا تتوارى بعد وفاة شاه جهان فى برج الياسمين وأخذت دلهى تحل محلها كعاصمة هندستان ومقر الامبراطرة المقبلين .

ولولا ماامتازت به أجرا من القصور النادرة لهبطت إلى مستوى مدن الأقاليم وخاصة بعد أن نقل الأمبراطرة عاصمة ملكهم إلى دلهى . وتعتبر مبانى أجرا أفخم وأبرع ما يفاخر به عهد المغول فى الهند .

وتبعد أجرا نحو ٨٤١ ميلا من كلكتا وهى ملتقى عدة خطوط حديدية ويتفرع منها خطان رئيسيان يذهبان جنوبا فى اتجاه بومباى . وللمدينة أهمية تجارية بسبب ما فيها من المصانع ودور التعليم .

وإذا كان قد وجد على قطع النقود المتداولة وقتئذ إسم « أكبر آباد » فالمقصود به القلعة التى أصبحت تسمى الآن قامة أجرا .

الفنون والصنايع

مما لفت نظر بابار بصفة خاصة عند دخوله الهند كثرة الصناع الماهرين فيها . وقد أشار الى هذه الحقيقة فى مذكراته إذ قال : « ومن بواعث الارتياح أيضا فى هندستان وجود صناع لا عدد لهم يزاولون كل حرفة وكل مهنة .

فلكل عمل من الأعمال توجد جماعة خاصة تلقت أصول هذا العمل وأسراره عن الآباء والأجداد منذ عدة أجيال » .

ومن الطبيعى أن المدينة التى سارت بذكرها الركبان نظرا لما تحتويه من بدائع الفن فى شغل الموزيك مثل تاج محل وضريح اعتماد الدولة، أن تشيع فيها صناعة التطعيم بالحجر . وعلى أن هذه الصناعة ليست صناعة محلية بل نقلت الى الهند من ايطاليا فى القرن السادس عشر .

وظهر أول أنموذج للبناء من « الحجر الصلد » فى ضريح اعتماد الدولة حى جهانجير وكان هذا من عمل الطليان. ومرعان مابرع البناؤون الهنود فى تقليدهم وكانت النتيجة أن هذا الفن قد وجد مرعى خصيبا فى أجرا ثم عاد وترعرع وتناقله الأبناء عن الآباء بالولاء المشهور عن الشرق .

أما صناعة الموزيك فليست من ثمرة عقول جواهرجية روما بل هى نوع قديم أحياه صناع فلورنسا فى عهد النهضة . وتشتمل العملية على « كشط » قطع رقيقة جدا من مختلف الأحجار الكريمة الملونة مثلا بحجم ورقة الزهرة وشكلها بحيث لاتزيد ولاتنقص وهذه القطع « تلحم » بالمرمر الأبيض أو الأسود بدقة متناهية حتى أن الميكرسكوب نفسه ليعجز عن إظهار مكان الالتحام فى وردة مكونة من ستين قطعة .

ومما اشتهرت به أجرا أيضا صناعة أنواع الفواكه والخضر من الطين بشكل دقيق ولون طبيعى بحيث يظنها الانسان حقيقية إلى أن يمسكها فى يده .

ثم إنها مشهورة بمنسوجاتها الحريرية النقية وأعمال الزركشة والسجاد. وعلى ذكر السجاد فهناك فارق بين السجاد الهندى الأصلى وترجع نماذجه

إلى أقدم العصور وبين ما أدخله الشرقيون وهم مدينون بهذه الصناعة للفرس ويظهر أن صانعي السجاد الهنود قانعون بتقليد أسلافهم ومن ثم تجد معظم النماذج فارسى فى جملته بينما تجد فى جميع السجاد أثرا فارسيا من نوع ما .

* * *

وليس يسع الانسان أن يغادر أجرا دون أن تذكره عظمتها بعظمة منشئها أكبر عاهل المغول العتيد . ولذلك رأينا أن نقول كلمة عامة عنه وعن نشأته .

أكبر امبراطور المغول العتيد

ولادته فى الصحراء

كانت فى شهر اكتوبر من سنة ١٥٤٢ ميلادية . ففى ذات يوم اشتدت فيه الحرارة بما كانت ترسله من أشعتها المحرقة على صحراء السند الجرداء كان رهط من الفرسان لا يزيد عددهم عن الثمانية يقطعون البيد وقد أنهكهم التعب وأضناهم هم وابلهم طول السفر فى ذلك الهجير . وقد عراهم الصمت لفرط ما كابدوه من العطش والجوع والتعب حتى أنه لم يكن يسمع لهم صوت إلا عندما يهيب أحدهم بجواده يستحثه على المسير . وبينما هم فى كربهم هذا إذا بأحد الجياد التى فى مقدمة الركب قد خر على الأرض ميتا من فرط التعب . وفى الحال خلص راكبه نفسه من السرج وتقدم من فتاة كانت فى الركب وطلب اليها أن تترجل وتعطيه جوادها الذى كان قد أعارها اياه ولكنه أصبح الآن فى حاجة ماسة إليه . وبديهى أن الصحراء ليست المكان الكفيل بتخريج أهل الشهامة والمروءة .

فأطاعته الفتاة وترجلت على تلك الرمال المحرقة. وما كادت تفعل حتى تقدم اليها فارس آخر ولعله كبير الركب. فترجل عن جواده ورفع الفتاة المتعبة وأجلسها على ظهر جواده وانطلق يطوى الفيافى سيرا على الأقدام إلى جانبها. ثم مالبث أن أنهكه التعب فارتمى على ظهر أحد الجمال التى تحمل الأمتعة.

ولم يكن الممثلون الذين اشتركوا فى تمثيل هذه الدراما الصغيره أفرادا عاديين. ذلك لأن الفتاة المتعبة لم تكن سوى «حميدة بانو بيجام» أو كما تعرف بلقبها الأمبراطورى «مريم محل». وكانت وقتئذ فى سن الخامس عشرة. فلقد التقى بها الامبراطور همايان فى لاهور عند ماذهب اليها لزيارة أم أخيه «هندال». وما كاد الامبراطور يقع بصره على هذه الفتاة الفارسية حتى هام بها أشد هيام وأصبح لا يطيق صبرا على بعدها وصمم على الاقتران بها من فوره.

وبعد سنة من هذا الزواج دارت الدوائر على ملك هندستان وخرج هو وزوجته الشابة هائمين فى الصحراء أمام جيوش شيرشاه المظفرة قاصدا الوصول إلى بلاط « طاهماسب » شاه فارس.

أما هذا الفارس المجرد من الرقة والذى طلب جواده من الامبراطورة وأرغمها على الترجل فقد كان « دوشان بيج » أحد ضباط همايان بينما الفارس الذى تخلى عن جواده لها وسار إلى جانبها مشيا على الأقدام فلم يكن سوى همايان نفسه.

وهذه الرواية رواها «جوهر» نديم الملك همايان ورفيقه فى السراء والضراء. وقد استطردت المذكرات فبينت كيف ان الركب المذكور بلغ

قلعة «عمر قوت» فى ذلك المساء وهناك تحت ظل إحدى الأشجار الكبرى وضعت حميدة ابنها أكبر العتيد فى يوم ١٥ اكتوبر سنة ١٥٤٢.

ولما وصلت هذه الأنباه السارة إلى مسامع هوماياں أمر باحضار صفحة مملوءة بالمسك فلما كسرها وزع محتوياتها بين أصحابه قائلا: «هذا كل ما يمكننى أن أقدمه لكم الآن على سبيل الهدية بمناسبة ميلاد ولدى الذى أرجو أن تطبق شهرته الافاق يوما ما كما يملأ عبيق هذا المسك جو هذه الحجرة».

وظل هوماياں فى منفاه ثلاثة عشر عاما قضى الأربعة الأولى منها فى بلاط طاهماسب شاه فارس والباقى فى كابول حيث تولى إدارة شؤون مملكة أبيه السالفة وهى ميراثه الاول.

وليس شك فى أن اليوم الذهبى فى عظمة الهند كان لابد أن تبزغ شمسه عاجلا لولا وفاة شيرشاه فى ٢٢ مايو سنة ١٥٤٥. فبينما كان يشرف على حصار «كالنجار» إذا برصاصة طائشة تسبب انفجار مخزن بارود كان شيرشاه واقفا بقربه. وهو أقدر من رأته الهند من الحكام. فكانت القاضية على حياته.

وقد أدى ما بين خلفائه من الشحناء إلى عودة هوماياں إلى لاهور على نحو ما مر بك ثم إلى أجرا فى سنة ١٥٥٥ حيث أصبح صاحب الأمر فى دلهى. على أن القضاء لم يفسح له فى أجله ليتمتع بهذا الملك العظيم بعد استرجاعه. بل زلت قدمه فى يوم ٢٦ يناير سنة ١٥٥٦ من أعلى الدرج الرخام فى القلعة فمات فى سن الثامنة والأربعين.

أكبر يتبوأ العرش

أما أبو الفتح جلال الدين محمد أكبر باديشاه الغازى فقد كان فى سن الرابع عشرة عندما تبوأ العرش . وقد وصله نعى أبيه فى يوم ١٥ فبراير وكان وقتئذ فى « كالانور » بالقرب من « امرتسار » فى مخيم بايرام خان قائد التركمان الشهير الذى أرسله همايون لقمع الفتنة فى البنجاب .

وفى الحال نادى أكبر بنفسه امبراطورا على الهند واسند الى بايرام خان رئاسة الوزارة مضافا إلى منصب القائد العام للجيش . ونظرا لما كان عليه من سمو الأخلاق كقائد عسكرى مضافا إليه أن قرينته كانت شقيقة همايون أو بعبارة أخرى عمة الملك الشاب — فقد كان من الطبيعى أن يكون بايرام خان أصلح شخص ليشغل منصب الوصى على الملك الشاب .

وكأنما قدر أن لا يتم الأمر لأكبر فى هندستان دون أن يضرب خصمه ضربة حاسمة . وكان خصمه هذا هو « هيمو » القائد الهندى المشهور الذى ارتفع فى سبيل المجد من مجرد تاجر حبوب إلى أن أصبح القائد العام « لعادل شاه صور » وهو المغتصب الأفغانى الذى أدى تغلبه على ابن شير شاه وخليفته وما ترتب على ذلك من التشاحن إلى اعطاء همايون الفرصة لاسترداد عرشه .

فما كاد همايون يلفظ النفس الأخير حتى حشد هيمو جيشا جرارا فى البنغال وعجل بالزحف على أجرا ودلهى فاستولى عليهما بلا كبير عناء . بل إنه لم ير فى الواقع أثرا للمقاومة الجدية إلا عند وصوله « بانيبات » وهى

الميدان الذى دارت فيه رحا الحرب مرات عديدة وتقرر فيه مصير هندستان أكثر من مرة. ففى هذا الميدان ألفى هيمو نفسه وجها لوجه ازاء جيش المغول تحت قيادة بايرام خان. وكان أكبر حاضرا هذه المعركة وعمره لايزيد عن الأربعة عشر عاما.

ودارت المعركة بشدة وسرعان ما تقرر مصيرها برمح اخترق جبهة هيمو فجرحه جرحاً مميتا. ومن ثم سحب هذا القائد العاثر الجد من هودجه وجىء به أمام بايرام خان. وبينما كان العدو المغلوب على أمره ملقى على الأرض فاقد الرشد سلم بايرام خان السيف لأكبر لضرب خصمه الضربة الفاصلة. وحتى وهو فى هذا السن الصغير أبدى أكبر دلائل السخاء الذى لازمه طوال حياته وكانت من أظهر خلاله فيما بعد. فلم يزد الشاب على أن مس كتف عدوه المنبطح على الأرض وغليته المبرات. فثار ثائر بايرام للتظاهر بهذا الاحساس الرقيق ولفت نظر أكبر إلى أن وضع الاين موضع الشده كثيرا ما عاد بأوخم العواقب على الملوك. وما كاد يفرغ من هذه الكلمات حتى هوى بالسيف على رأس هيمو ففصلها عن جسده ثم أرسلها إلى كابول. أما الجثة فقد علقها على إحدى بوابات دلهى لتكون عبرة للثوار.

وبعد ما أحرزه أكبر من الفوز فى بانيبات أصبح الحاكم المطلق فى هندستان لأن منافسه «عادل شاه صور» توفى بعد ذلك بقليل. وهكذا خلا الميدان لذلك الامبراطور اليافع ليسير فى سبيل المجد المقدر له.

وظل أكبر خلال السنوات الأولى من حكمه تحت وصاية بايرام خان إلى أن بذرت مربيته «ماهام انكا» بذور الدسائس بينهما فانقلب التشاحن السرى إلى ثورة علنية فرفع بايرام خان راية العصيان ضد مولاه ولكن سرعان

مادارت عليه الدائرة وجيء به أسيرا أمام الامبراطور وكان وقتئذ قد بلغ التاسع عشرة . فلما وقعت عليه عينه عفا عنه ولكن أمره بالحج إلى مكة . وبينما كان فى طريقه إلى الثغر الذى أزمع أن يبحر منه ذلك الرجل الذى يدين له الامبراطور الشاب بامبراطوريته، فاجأه أحد الافغانيين المقيمين فى الهند بطعنة أردته قتيلا .

ومن ثم انفرد أكبر بالحكم . على أنه قضى الخمسة عشر عاما التالية على رأس جيشه فى ميدان القتال لقمع الفتن المتتالية الى أن استتب له الأمر.

وفى سنة ١٥٦٥ شرع أكبر فى إنشاء القلعة الفخمة التى فى أجرا مفضلا أن تكون هذه المدينة عاصمة ملكه بدلا من دلهى . وفيما هو عائد بعد الاستيلاء على قلعة « رانتامبهور » المشهورة عرج على قرية سكرى لزيارة القديس الشيخ سالم شيستى تلمسا لبركته عساه أن يرزق بولد يخلفه على العرش. وفى سنة ١٥٦٩ شرع يبنى مدينة فتح بورسكرى (أى مدينة الفتح) وهى على بعد ٢٤ ميلا من أجرا . وقد ظلت هذه مقرا له مدة طويلة.

وقد ظل أكبر منذ اعتلائه العرش الى أن أشرف على نهاية الحلقة الرابعة من حياته منهمكا فى الفتوحات الى أن دانت له البلاد من أقصاها إلى أقصاها وكانت آخر فتوحاته ممالك الديكان حيث أخضع ملوكها الاغنياء لسلطانه . وتخليدا لذكرى أهم انتصاراته وأبعد فتوحاته أثر أمر ببناء بوابة هائلة تسمى « بولاند دارواز ا » فى فتح بورسكرى . ومما يدل على أنه كان يقصد أن تكون هذه البوابة بوابة النصر هذه العبارة التى كتبت عليها وهى : « ان جلالة ملك الملوك الذى يعتبر بلاطه بمثابة فردوس وظل الله فى أرضه جلال الدين محمد أكبر بادشاه قد دوخ ملوك الديكان الخ الخ .

ضريح الأمبراطور هوماياں — دلهى

وقد جاء فى « عين أكبرى » أن امبراطور المغول العتيد متى خرج فى حملة عسكرية لم يكن من عادته حشد جميع جيوشه مطلقا لأنه كان يعتقد أن مرور مثل هذه الجحافل فى منطقة من المناطق لابد أن يحول الناحية إلى ما يشبه الخراب ويستنزف ما فيها من المؤونة . هذا إلى استحالة إيجاد مأوى لمثل هذه الجحافل الكبيرة عدا ما يلحق بها من الاتباع .

وبينما كان أكبر منهمكا فى بناء امبراطوريته بالفتوحات المتتابعة كان شديد الحرص على توطيد دعائم مايستولى عليه . وكان أكبر همه أن يكفل رخاء كافة رعاياه . ولما كان يعرف أن القوة فى الاتحاد فقد وجه عنايته إلى حل هذه العقدة الكبرى وهى كيف يمكن ابتكار قاعدة رئيسية بحيث تكون كفيلة بحاجات وأمانى ومزاج وأحوال شعوب عديدة متنافرة أشد تنافر ومعادية أحدها للآخر بسبب الوطنية والعقيدة الدينية .

ولم تكن هذه المهمة من الهنات الهينات . ولكن أكبر كان لحسن الحظ قد وهبته الطبيعة عقلا راجحا وبصيرة نافذة وعطفا يشمل الجميع . وفوق هذا فقد كان مولعا بالتاريخ عالما أن فى صفحاته أهم ما يحتاج اليه الحاكم من الدروس والعظات . وقد كان يحضر اليه يوميا شخص ماهر ليتلو أمام جلالته فيصغى إلى الكتاب من بدئه إلى خاتمته . ولم يكن جلالته ليتضايق من التكرار بل كان بالعكس يصغى للتلاوة بلهفة وولع . وكان لأكبر من العقل والتواضع ما يجعله يدرك أن سلفه شيرشاه كان يعرف مبلغ صعوبة الأمر الذى دعى هو بنفسه إلى مواجهة نظيره . ومن ثم

شرع يقتفى أثر سلفه الأفغانى العتيد . فنظامه المشهور الخاص بخراج الأراضى وضع بدايته شيرشاه ككثير من اصلاحاته الأدارية. كذلك نقل عن شيرشاه سياسة التسامح الدينى وقدحاول أن يبز شيرشاه فى المهارة التى عمل بها للتوفيق بين الأحزاب المتنافرة فى الدولة وتقريبها اليه جميعا بلا تمييز بينها فى الدين .

ولعله لا يوجد فى أكبر ما يدعو إلى الدهشة أو الجاذبية أكثر من تقلبه وتعدد نواحيه . فهو لتعدد جوانبه كان كثير الشبه بالماسة المقطوعة قطعا دقيقا . فمن أى النواحى نظرت اليه يظهر أمامك فى ضوء آخر . فاذا ما نظرت إليه باعتباره جنديا وجدته شجاعا مقداما لا نظير له فى النشاط وإذا نظرته من ناحية الألعاب الرياضية وجدته جسورا سعيد الحظ أكثر من المعتاد . وإذا نظرت إليه من الناحية السياسية وهى أسمى مما مر بك بكثير لرأيته أحد أولئك الملوك المظام القليلين الذين ظهروا فى هذا العالم .

فمع أنه كان باديشاه على أشد شعوب الأرض محافظة على التقاليد فانه وطد قوائم عرشه بما أدخله من ضروب التجديد المتواصل . فقد ألغى طرق الحساب القديمة وأدخل بدلها الحساب الشمسى والتقويم الفارسى . ثم عدل عن استعمال كلمة التوحيد الاسلامية فى ضرب العملة مراعاة لخواطر الهنود واستعمل بدلها عبارة «الله أكبر جل جلاله» وألغى الجزية التى كانت مفروضة على تابعى الدين الاسلامى وأقبل على استخدام الهنود والشيعة والسنيين بلا تمييز فى العقيدة الدينية .

وقد نشأت فى عهد أكبر أرستقراطية اقطاعية كان أعضاؤها يلقبون

« بالمنسبدار » . ففى مقابل ما كان يحصل عليه هؤلاء من النقود أو الأراضى أخذوا على عواتقهم تزويد الجيش الامبراطورى بعدد معين من الرجال والأفيال .

وكان طبيعياً أن يكون أكبر ذلك الملك القادر رجل أعمال . ولذلك كان من عادته قبل أن يشرع فى إنشاء أى قصر من القصور أن يطالب بتحضير قائمة تفصيلية بنفقات البناء يدرج فيها كل باب فاذا ماسلمت اليه القائمة أنعم النظر فيها جيدا بحيث لايترك أى مجال لأضاعة الأموال سدى .

وكان أكبر من العظمة بحيث لا يعرف التنطع الدينى . فالمسلمون مثلا يقولون أن تصوير الأشياء الحية مكروه. ولكن أكبر لم يكن يعبأ بهذا بل كان مولعاً بالتصوير والرسم وكان يحدب كثيرا على الفنانين ويهتم أشد اهتمام بأعمالهم . وهذا ماجعله يأمر بزخرفة هوامش المحفوظات الفارسية وأن يعنى بالتجليد . وحسبك دليلا على ولعه بأعمال الزخرفة ما تراه من النقوش على حجرة نومه فى فتح بور سكرى وفى سيكندرا .

ونزولا على أمر جلالته عمات رسوم لكبار ضباط البلاط وقدوضعت كلها فى مجلد ضخم وبذا تخلد ذكرى السابقين ويضمن الحاضرون تخليد صورهم .

وكان متسامحا إلا مع المتعصبين . وقد مر بك ما ذكرناه عن البناء المعروف باسم عبادة خانة فى فتح بورسكرى حيث كان يختلف اليه الفلاسفة ورجال الدين من كافة أنحاء الدولة للمناقشة والجدل فى الشؤون الدينية بين سمع أكبر وبصره وكيف أنه استخلص أحسن ما هناك فى كل دين وأراد أن

يجعل له دينا خاصا يسمى بالتوحيد الالهى وأن يبشر به فى أنحاء البلاد .

وكان الناس يعزون إلى أكبر قدرته على اتيان المعجزات وقد ورد فى « عينى أكبر » أن كثيرا من المصابين بأمراض مستعصية كانوا يجيئون إلى أكبر لينفخ فيها فتبرأ . على أن أتباع مذهبه الدينى الجديد كانوا قليلين حتى انهم انقرضوا بعد وفاته .

ومما يدل على شدة تسامح أكبر الدينى اختياره زوجات من مختلف الأديان لاعتبارات سياسية بحتة . وبين زوجاته السبع كانت الأولى ابنة سلطان تركيا والثالثة مريم الزمنى أم جهانجيرو الثالثه أم الأمير دانيال كانت ابنة « بيهانى مال » مهاراجا عنبر أى أنها من راجبوتانا ومن عبدة « راما ». وكانت الرابعة هندية وهى إحدى أميرات « ماروار » أما الخامسة فكانت أرمنية .

وهناك حكايات تتعلق بحياة أكبر الداخلية وكلها تظهره بمظهر الرجل الوديع الخلق الذكى الفؤاد المخلص لأصدقائه . ويقال انه كان لا يفتر عن شرب ماء نهر الجانج وانه كان لاسباب خرافية يلبس سبع بدل فى الاسبوع مختلفة الألوان يظهر كل يوم باللون المشابه للنجم المعين الذى ترتبط به شؤون ذلك اليوم .

وهناك أمثلة عديده يروونها عما كان يبديه ذلك الامبراطور العتيد من مظاهر الشجاعة العظيمة فى مختلف المناسبات . فالمحتاج لم يكن يرد خائبا « من أجل هذا كان يوجد إلى جانب جلالته دائما أمين الخزانة فكل متسول يحضر أمام جلالته تجاب مطالبه فى الحال . . . . وفى كل يوم يصدر أمر جلالته بتوزيع عدد من الأفيال والخيول والسلع الغالية بمقدار عظيم ».

أما الأهالى فكانت توزع عليهم الهبات الملكية مرتين فى العام . وكان هذا بمناسبة وزن شخص جلالة الامبراطور . فالمرة الأولى وهى أهم المرتين بمناسبة يوم الميلاد فى ١٥ أكتوبر . ففى ذلك اليوم يجلس جلالته فى الميزان ويوزن ١٢ مرة بالأشياء الآتية . الذهب والزئبق والحرير الخام والعطور الاصطناعية والمسك والعقاقير وزبدة الجاموس والأرز وثمانية أنواع من الحبوب والملح . وفضلا عن هذا كانت توزع على الناس الماعز والدجاج وكان عدد ما يوزع من كل من هذه الحيوانات يزداد كلما تقدم الامبراطور فى السن . وفى الوقت نفسه كان جلالته يأمر باطلاق عدد كبير من الطيور الأليفة فى قصوره .

أما المناسبة الثانية ففى شهر رجب حيث كان جلالته يجلس فى الميزان ويوزن ثمانى مرات وكانت تقام حفلات كهذه من آن لآخر بمناسبة عيد ميلاد الأمراء .

وقد أجمع مختلف المؤرخين على وصف أكبر بالنشاط المقطوع النظير بين الملوك . فقد كان يستغنى عن النوم إلى أقصى حد قانعا بفترة صغيرة للاستراحة فى المساء وأخرى مثلها فى الصباح . أما معظم الليل فكان يقضيه فى التحدث إلى رؤساء المصالح وكبار الموظفين فى صدد شؤون الدولة . وكان يختلف إلى هذه الاجتماعات الفلاسفة والصوفيون والمؤرخون . وقبيل الفجر بساعة يؤثر جلالته الهدوء والصمت للتهجد والعبادة . وإذا ما أصبح الصباح بدا جلالته فى الشرفة « الدرشين » للظهور أمام الملأ فيجتمع تحتها النبلاء ووجهاء البلاد وكذلك مختلف طبقات الرعية . وكان أكبر

لا يأكل الطعام إلا مرة واحدة فى الأربع والعشرين ساعة وكان لا يتزود فى هـذه المرة الواحدة إلا بالقليل من الطعام . ولم يكن له وقت معين لتناول طعامه بل كان متى أحس بالشهية إلى الطعام كلف الطباخين بتجهيزه فى خلال ستين دقيقة . ولم يكن طيلة حياته ميالا لأكل اللحوم وقد ازداد نفوره منها مع تقدم سنه . وكان الطعام يقدم اليه فى أطباق الذهب أو الفضة أو النحاس أو الصينى . وكانت الأطباق توضع أمامه مختومة وملفوفة جيدا فى قماش أحمر وأبيض وكانت الأحتياطات شديدة لمنع وضع السم فى الطعام . فاذا ما نزع القماش وفضت الأختام تذوق الخدم الطعام أولا ومن ثم يوضع أمام جلالته فاذا ما جهزت المائدة جلس الأمبراطور أمامها ويبدأ بأكل اللبن « الرائب » فاذا ما فرغ من الطعام حمد الله وأثنى عليه . وكان أكبر محافظا على الصلوات الخمس وكان مولعا بالفواكه إلى حد أنه كان يؤتى إليه بصينية كبيرة منها قبيل شروعه فى إحتساء الخمر وتدخين الأفيون . وكان جسمه ورأسه يعطران بالعطور الذكية الرائحة . وكانت حجرته تبخر على الدوام بالبخور الطيب الرائحة فى مباخر من الذهب أو الفضة .

وكان مدخل القلعة مضاء بالمشاعل الملصقة بعيدان لكل منها ثمانى شوك حديدية . ففى الليالى الثلاث الأولى من الهلال الجديد تضاء الشوك الثمانى كلها . ومن ثم تطفأ واحدة بعد الأخرى ليلة بعد ليلة الى الليلة العاشرة حتى إذا اشتد ضوء القمر اكتفوا باضاءة شوكة واحدة . وفى اليوم الواحد والعشرين تضاء شوكة أخرى ثم الثالثة فى الليلة اللاحقة وهكذا فلا يحل آخر الشهر حتى تكون كافية شعب المشعل مضاءة .

وقدوصف جهانجيرأباه وصفا دقيقا إذ قال : كان الأمبراطور متوسط الطول ممتلىء الجسم متسع الصدر طويل الساعدين واليدين بشكل يلفت الأنظار . أما لونه فكان قمحيا وكانت عيناه وجبهته سوداوين . وقد ظهر على خيشومه الأيسر خال كبير الحجم أعتبره علماء ملامح الوجه أنه بشير الحظ الوافر . وكان صوته جليا رنانا وكلامه متزنا وألفاظه منتقاة تعلو ملامحه الهيبة والوقار بينما كانت أخلاقه منافية لاخلاق الغير . ذلك كان باختصار مظهر ذلك الرجل الذى ظل أربعين وسبع سنوات المحور الذى تدور حوله الامبراطورية الهندية .

وقرب نهاية حياته الطويلة أظلمت أيامه بالثورة التى رفع جهانجير علمها . فلقد حاول ذلك الأمير أن يقبض على صولجان الملك وشرع فى الزحف على أجرا ولكن عاد فاستغفر لذنبه قبل حدوث ضرر جسيم . فأرسل يطلب العفو من أبيه الذى سامحه نظراً لما هو مطبوع عليه من سخاء الطبع ولكنه لم ينزله منزل الثقة التى كان يتمتع بها من قبل .

ولقد قضت الظروف السياسية العديدة أن يترك فتح بورسكرى فى أواخر أيامه ويعود إلى أجرا حيث مات فيها فى سنة ١٦٠٥ ودفن فى سيكندرا. وقد خلف لأبنه جهانجير ميراثا طائلا وهو إمبراطورية ضخمة ثابتة الأركان وطيدة الدعائم تمتد شرقا من كابول الى داكا وفى الشمال من أحمد نجار إلى كاشمير .

ولم يشتهر عصر أكبر بعظم فتوحاته وأهميتها كما اشتهر بما أدخله من الاصلاحات النافعة . فلقد سوى بين جميع رعاياه سياسيا وشغل كبار المناصب

بالهندوس وبذل مافى وسعه لإلغاء إحراق الأرامل بعد وفاة أزواجهن وعلى أنه لم يوفق تمام التوفيق فى إبطال هذه العادة وإن كان قد سن قانونا للتثبت من أن تكون هذه التضحية لا قهرا بل باختيار الأرمل نفسها.

جهانجير

خلف أباه أكبر على العرش واحتفل بتتويجه فى قلعة أجرا على أن حكمه كان مضطربا بسبب ما أثاره أولاده من القلاقل. ففى سنة ١٦٢٢ استولى الأمير خورام — فيما بعد شاه جهان — على فتح بورسكرى وواصل زحفه على أجرا حيث نهب المدينة وزحف منها على « موطرا ». وقد كان فى عهد جهانجير ان أرسل الملك جيمس الأول الانجليزى خطابا الى امبراطور المغول حمله إليه الكابتن « وليام هوكنز » . وقد قوبل رسول الملك الانجليزى أحسن استقبال ولبث فى أجرا ثلاث سنوات. وبعد مرور خمس سنوات ذهب « توماس كريدج » الى أجرا حيث أنشأ مصنعا للأقمشة. ولكنه تخلى عنه فى سنة ١٦١٧ بسبب كساد الحالة. وفى سنة ١٦١٣ ذهب السير روبرت ولايدى شيرى لزيارة أجرا وهما فى طريقهما إلى فارس كما أن كثيرا من السائحين البريطانيين ذهبوا حوالى ذلك الوقت إلى العاصمة الهندية. وفى سنة ١٦٢٨ توفى جهانجير فى لاهور ودفن فيها.

شاه جهان

فى فبراير سنة ١٦٢٨ نودى بالسلطان خورام امبراطورا فى أجرا مع لقب شاه جهان. وقد نقل العاصمة إلى دلهى ولكنه قضى معظم الوقت فى أجرا حتى اعتقل فى قلعتها بواسطة أورانجزب ابنه الثائر. وهناك لحق بربه

فى سنة ١٦٦٦ ودفنت رفاته فى تاج محل إلى جانب رفات زوجته .

فالعالم بلا ريب مدين لأضرحة المغول بما يعرفه عن نماذج بنائهم البديعة . وكان ولعهم بهذا الطراز من البناء لا يقل عن ولع قدماء المصريين بطراز مبانيهم . فأمبراطرة المغول لم يشأوا أن يعهدوا إلى خلفائهم ببناء الأضرحة الملائمة لمواراة رفاتهم كلا بل أن الامبراطور أو النبيل كان يغرس فى أثناء حياته الحديقة الملائمة التى سوف يوضع الضريح فيها ، ثم يحيطها بأسوار عالية وبوابات فخمة ويشق فيها قنوات المياه ويضع النافورات وينصب منصة تتفرع منها أربعة مسالك ممهدة . وينشىء فى الوسط بناء مربعا أو مثمن الشكل تتوجها قبة أو اثنتان ويزخرفها بمأذنة أو اثنتين من المآذن الشاهقة وتسمى هذه الصالة طيلة حياته « بارادارى » أو صالة الأعياد لانه يستعملها لهذه الغاية هو وأصحابه . فاذا ما لحق بربه تغيرت الأحوال . فهنالك تنقل جثته الى قبو البناء الذى ينقلب بعد وفاته إلى ضريح يصبح لرجال الدين حق الاشراف عليه من وقت الوفاة فصاعدا .

أورانجزب

ولا يدل تاريخ أورانجزب على أنه مكث فى أجرا بعد وفاة أبيه بل كانت دلهى عاصمة ملكه إلى سنة ١٦٨٢ ومن ثم نقل العاصمة إلى أحمدآباد ثم إلى برهان بور . وكان عهده كعهد جهان وجهانجير وأكبر مملوءا بالاضطرابات التي أثارها أولاده الثائرون .

خلفاء أورانجزب

فى سنة ١٧٠٧ توفى أورانجزب وقد ترك وصية بتقسيم امبراطوريته بين أولاده الثلاثة . فدلهى والولايات الشمالية والشرقية قد أعطيت «لمعظم» بينما أخذ «خام بخش» بيجابور وجولكندا واستولى «عزّام» على أجرا مع بقية البلاد الهندية . على أن الحرب الداخلية ما لبثت أن نشبت بين الاخوان الثلاثة . وقد كابدت أجرا الأهوال وتحملت صنوف الخراب ونهبها جماعة « الاسياد » الذين انتهزوا فرصة هذا الاضطراب العام واستولوا على ما فى أجرا من الكنوز التى لا تقدر بثمن ونهبوا ضريحى شاه جهان وممتاز محل واستولوا على اللآلى الشهيرة التى كانت توضع على ضريح الامبراطورة فى ليالى الجمع وفى يوم ذكرى زواجها .

فيتبين لك مما سبق أن أجرا كانت يوما ما عاصمة الهند وأنها كانت وقتئذ مدينة غنية تتسابق مع دلهى فى الجمال والثراء . أما اليوم فقد أصبحت مهملة حتى ليتعذر على الانسان أن يعثر على سيارة فيها إلا فى النادر .

* * *

بين أجرا وبومباى

١٣ سبتمبر

تركنا الفندق وقصدنا إلى المحطة على نحو مامر بك فوجدناها غاصة بالفقراء والمتسولين . وعند وصول القطار كلفت مختار أفندى باعطاء المفتش قليلا من النقود ليعمل على راحتنا فى القطار . فما كاد يراه بقية موظفى المحطة حتى هرعوا إليه يطلبون اليه أن يزودهم مما فى جيبه . وفى منتصف الساعة الواحدة بعد الظهر تحرك القطار .

وكانت درجة الحرارة فى القطار نحو ٢٨ فاجتزنا « جواليور » وهى بلدة مشهورة بحصونها يقيم بها أحد كبار أغنياء المهراجات : وهنا اشتدت الحرارة حتى بلغت ٣١ درجة فى الظل فى المحطة بينما كانت كانت مركبة القطار أشبه بالاتون .

وقد لاحظنا أن القرى هنا يغلب عليها الفقر وليس بها إلا النزر القليل من السكان .

وبعد الغسق مررنا ببهوبال التى كانت تحكمها أميرة مسلمة مشهورة توفيت حديثا وهى أميرة بيجام .

ثم تلطف الجو قليلا أثناء الليل وهب النسيم المنعش ولكن ما كادت تطلع الشمس حتى رأينا التراب وقد غطى مقاعد المركبة مما ذكرنا بالسكة الحديدية فى مصر .

١٤ سبتمبر

وفى الساعة الثالثة من صباح يوم ١٤ سبتمبر دخلنا مقاطعة بومباى وهانحن نجتاز الآن عدة جبال وتلول وقد أدركنا من حالة الأشجار المبللة أن السماء أمطرت أثناء الليل .

والبلاد هنا آهلة بالسكان . ويرى الانسان بعض الحقول المزروعة أرزا . ولم تبزغ الشمس بعد لأن الجو ملبد بالغمام مما يخيل معه للمرء أنه فى جو بلد أوربى .

وكنا كلما اقتربنا من بومباى لاحظنا زيادة الأراضى المزروعة وكثرة عدد السكان وأيضا زيادة الأوساخ والقاذورات وانتشار الفقر . فان بيوت الأهالى فى كثير من البلدان هنا ليست سوى عشش من الخيش

المشدود إلى صفائح البترول وهى دليل على منتهى الفقر والفاقة .

ورأينا قبيل الوصول إلى محطة بومباى عنابر السكة الحديدية وهى تشغل مساحة واسعة وتمتد إلى مسافة بعيدة وهى مصانع هائلة لا يتصورها العقل لأن بومباى هى المحطة الرئيسية لكافة السكك الحديدية الهندية .

فى بومباى

فى منتصف الساعة الرابعة بعد الظهر وصلنا بومباى فجاءنا مندوب شركة كوك وهو انجليزى وكان بانتظارنا بالمحطة فرافقنا إلى أفخم فندق فى المدينة وهو فندق «تاج محل» . فرأيناه قد جهز لنا غرفا فى موقع جميل إذ يطل منه الانسان على منظر بديع للرصيف والبحر .

ورأينا قبيل غروب الشمس كثيرا من الهنود تصحبهم نساؤهم يتنزهون على هذا الرصيف وفى رتل السيارات الواقفة بقرب الرصيف كثيرات من عقائل السيدات يشاهدن أولئك المتنزهين على الرصيف الذى يشبه رصيف الاسكندرية الجديد الجارى العمل فيه الآن . وهو أحد أماكن النزهة لأهل الطبقات الراقية فى بومباى . وتلبس النساء الهنديات هنا الملابس الوطنية الهندية . ثم تناولنا الطعام وهى أول مرة تناولنا فيها طعاما جيدا منذ وصولنا إلى الهند .

وليس هناك ما يدعوا إلى الدهشة اذا قلت أن العناية فى هذا الفندق بالنظافة وراحة الزائرين فائقة . لان الفندق المذكور هو الذى يقصده المهراجات والسائحون والموظفون عند ايحارهم من الهند أو عودتهم اليها . ثم أوينا إلى الفراش فنمنا . ملء جفوننا وهى لعمرك أول مرة ذقنا فيها طعم

النوم براحة دون أن تروعنا رؤية الثعبان أو تقلقنا الحشرات أو الوطاويط . وكانت هذه أيضا أول ليلة قضيناها دون أن نضطر الى استعمال المراوح الكهربائية .

١٥ سبتمبر

عند الساعة الواحدة بعد الظهر ذهبت إلى شركة كوك ومنها قصدت المكتبة العمومية راجيا العثور على كتاب هندسة خاص بالبناء على الطراز المغولى وكم كان أسفى إذ لم أوفق للعثور على كتاب ما فى هذا الموضوع لأن معظم ما وضع عن الهند من الكتب يبحث فى الشؤون التاريخية أو التجارية أو عن الصيد والقنص .

وفى الساعة الواحدة والربع تاقت نفسى للسير على الأقدام . وكانت هذه أول مرة استطعت فيها القيام بهذه الرياضة دون تأفف من حرارة الجو .

وفى منتصف الساعة الخامسة بعد الظهر استأجرنا سيارة للطواف بها حول الأماكن التى تستحب زيارتها فقصدنا إلى حى « ملابارهل » وهو حى طبقة الأغنياء وأكثرهم من الجنس البارسى ولا يوجد بينهم إلا قليل من الهندوس .

والجنس البارسى هو الجنس الذى يملك البنوك فى الهند . ولذا فان أغلب أهل البارسى أغنياء . وشاهدنا كثيرا من القصور التى يقطنها المهارجات لأن أغنياء الهند تتقزز نفوسهم من المبيت فى مكان له سقف اذا علموا أن شخصا أقل منهم مرتبة سبق له المبيت فيه . وهم لهذا السبب يأنفون من نزول الفنادق . وهذا ماحدا بأغنيائهم أن يشيدوا قصورا خاصة بهم

يأوون اليها عند نزولهم فى بومباى . وقد بنى أحد المهراجات قصرا على الطراز « اليالى » التركى وكله من الخشب ويدل على سلامة ذوق صاحبه . وقد لاحظنا هنا كما لاحظنا فى رانجون أن الرطوبة تتلف واجهات المنازل إلى حد ان كثيرا منها أصبحت سوداء بفعل الامطار وتعشيش العثب على بعضها.

ثم قصدنا من هناك إلى حى حديث لا يزال العمل يجرى فيه لانشاء رصيف جديد وعلى مقربة منه مكان لسباق السيارات .

وفى الطريق رأينا عددا كبيرا من الهندوس مما اقتضى وجود شرذمة من رجال البوليس للمحافظة على النظام . وكان كثير من هؤلاء الهندوس يحملون تمثالا صغيرا ابوذا موشى بالذهب ومزخرف بمختلف النقوش بينما كان البعض الآخر يحمل الشموع وكانوا يقصدون جميعا البحر كما هى عادتهم حتى إذا ما بلغ الماء إلى ارتفاع الركب قذفوا بالتمثال إلى البحر !

ثم مررنا بمكان سباق الخيل وهنا أدركتنى الحسرة عندما تذكرت مكان سباق الخيل فى مصر الذى لم أر له نظيرا من حيث الاهمال وقلة العناية بأمره فى كافة ما زرته من البلدان فى رحلاتى المديدة .

واجتزنا الحى الموجود فيه الجيش الانجليزى وهنا لاحظنا أن الثكنات ذات طبقة واحدة وهى فى منتهى النظافة يتوسطها منزل القائد وبقربها مستشفى عسكرى ولكل ضابط كشك (بانجلو) صغير وتحيط بهذه الثكنات حدائق شاسعة منسقة ابدع تنسيق . وكأن هذا الحى ضاحية مستقلة بنفسها .

ولا تسل عن كثرة المصانع فى بومباى وبينها مصانع القطن وغيره :

وكان دولاب العمل فى هذه المصانع واقفا بسبب اضراب عمالها وقتئذ .

وليس شك فى أن مدينة بومباى تعد الآن من العواصم الكبرى وتعتبر اليوم أهم المدن الهندية وأكبرها شأنا . ويقال أن بها كثيرا من الأجانب .

وفى منتصف الساعة السابعة مساء عدنا إلى الفندق وخرجنا للتنزه على الرصيف سيرا على الأقدام .

ومما لفت نظرى بصفة خاصه أن أغلب نساء بومباى يلبسن النظارات وان لون الكثيرات منهن يضرب إلى البياض مع تمتعهن بقسط وافر من الجمال وامتلاء فى الجسم وهذا بعكس ما هو معروف عن النساء الهنديات . فلما استفسرت عن السر علمت أن هذا سببه وجود العنصر البارسى فى هذه الجهات وهذا العنصر من سلالة الفرس .

١٦ سبتمبر

وفى اليوم التالى أصبحنا والسماء متلبدة بالغيوم وقد هطل المطر مدرارا فى الليل . فقصدنا السوق فى الساعة الثامنة وقد اجتزنا أولا سوق الخضار لرؤية مافيه من الفواكه وكنت أقصد ابتياع بعض البلابل المشهورة فى الهند .

ورأيت مما يباع فى السوق العمم ونوع من الطواقى غير انى لم أجد ما يستحق الشراء فعدت أدراجى إلى الفندق .

وكانت هناك فرقة موسيقية (أوركستر) تعزف وقت تناول الطعام ولاحظت بين رجالها اثنين من الأجانب والباقون وعددهم خمسة من الهنود.

أما الخدم الهنود الذين يستخدمهم الاجانب فى الفنادق أوفى شركات البواخر فهم من بلدة تسمى « جووا » وهم من رعايا البرتغال وأغلبهم مسيحيون كاثوليك .

١٧ سبتمبر

كان المطر متواصلا . فقصدنا فى الصباح عددا من الدكاكين لشراء بعض الهدايا ولكن وجدنا هنا — كما وجدنا فى دلهى وأجرا وبنارس — أن ثمن الأقمشة أغلى من قيمتها الحقيقية بنحو مائة فى المائة. ولاحظنا أن أكثر الدكاكين الصغيرة الهندية التابعة للاهالى مشحونة ببضاعة يخيل اليك أنها من صناعة الهند ولكنها صناعة مقلدة مجلوبة من ألمانيا وسويسرا .

وقصدنا إلى شركة كوك بعد الظهر للحصول على تصريح بزيارة « برج السكوت » الذى يرمى فيه البارسى موتاهم ويتركونها طعاما للطيور ولكن قيل لنا أن الزيارة غير ممكنة قبل مرور يومين وذلك بسبب أعياد البارسى .

١٨ سبتمبر

كانت السماء لا تزال متلبدة بالغيوم والمطر يهطل باستمرار فقصدنا بالسيارة إلى حديقة نباتات مشهورة تسمى « فيكتوريا بارك » وبها فى الوقت نفسه حديقة حيوانات . فرأينا فيها نماذج بديعة من النمور الكبيرة التى تبعث الرهبة فى النفوس . وكانت الرطوبة شديدة حتى ليغرق الانسان فى لجة من العرق مع أن الجو لم يكن حارا .

ثم قصدنا بعد الظهر إلى المتحف فرأينا به مجموعة تفوق فى جمالها مجموعة كلكتا وبين ما تحتويه أنواع من الأقمشة والشيلان والأسلحة ومجموعة زخارف وكتب خاصة بتاريخ الهند .

ولقد شاهدنا عدة تماثيل لبوذا هنا وهى مما يحمله الناس فى الأعياد .

وتمثل بوذا بشكل رجل ممتلىء الجسم عارى الصدر والبطن ورأسه كرأس الفيل وله خرطوم . ومع أن هـذه التماثيل هى آية فى دقة الصناعة وجمالها فأنها زهيدة الثمن بحيث لا يتجاوز ثمن الواحد منها روبيتين أو ثلاث مما يدل على رخص اليد العاملة فى الهند .

وأغلب مافى هذا المتحف من أشياء جميلة هو هدية من أحد كبار الأغنياء البارسى واسمه « المسيو تاتا » . وفى الطبقة الثانية متحف للتاريخ الطبيعى .

١٩ سبتمبر

أصبحنا والمطر على حاله وقد قيل لنا إن الأمطار قد تستمر أحيانا فى بومباى أربعـة أشهر بلا انقطاع ! فذهبنا إلى حديقة فيكتوريا لابتياع بعض نباتات لحديقتى فى مصر وهنالك تعرفنا بمدير الحديقة ووكيله وهما من الهنود وعلى جانب عظيم من وداعة الأخلاق . وقد تبين لى أنهما من علماء النباتات وقد بالغا فى العناية بأمرنا .

ثم توجهنا من هنالك إلى شركة كوك لاتخاذ ما يلزم من الاجراءات لشحن هذه النباتات فى نفس الباخرة التى تقلنا إلى مصر .

وخرجت بعد الظهر قاصدا السوق حيث ابتعت خمسة بلابل . وعدنا فى المساء إلى الفندق وقد خيل إلىّ أن النهار طال عن كل يوم .

٢٠ سبتمبر

لا يزال المطر يهطل باستمرار وقد خيم الضباب وأهالى بومباى فى دهشة وحيرة من أمر هذا الطقس إذ المعتاد أن تنتهى أعصار المونسون فى

منتصف هذا الشهر وها نحن الآن فى ٢٠ منه .

وقصدنا بعد الظهر إلى مايسمى « ببرج السكوت » . فوجدناه قائما فى وسط حديقة عظيمة بديعة التنسيق فدخلنا بالسيارة حتى وقفنا أمام باب كشك صغير عنده اثنان من رجال الحرس البارسى . وقد أدركا من شكلنا أننا من السائحين الذين حضروا لمشاهدة البرج فطلبا الاطلاع على التصريح الذى بيدنا فاظهرناه لهما .

وكان فى بومباى فى ماضى الأيام وقبل أن ينمو عدد طائفة البارسى برج واحد ولكن ازدياد عددهم فى هذه المدينة حتى أصبح يقرب من ٥٠٠٫٠٠٠ اقتضى بناء أبراج اخرى حتى بلغت الآن خمسة منها أربعة خاصة بمن يموت ميتة طبيعية عادية والبرج الأخير لمن ينتحر أو يذهب ضحية الأوبئة أو الأمراض الفتاكة .

ثم قيل لنا أن أول الأبراج قديم العهد ويرجع إلى نحو ٣٠٠ عام . ومن الغريب أن كل برج معد لسبعين رجلا وسبعين امرأة وسبعين طفلا !

ثم مررنا بمسكن صغير قيل لنا انه المعبد فدخلناه فاذا به حجرة يوجد فى أحد أركانها مكان مرتفع من الحجر وفيه نار موقدة من خشب الصندل تقضى طقوس البارسى الدينية بأن تظل موقدة باستمرار لا تخمد أبدا . أما اختيار خشب الصندل فلوفرته فى الهند من ناحية ورخص ثمنه من ناحية أخرى .

ولما كان البارسى يشبهون الاسرائيليين إذ منهم كبار الأغنياء فانهم كذلك

يشبهونهم من حيث حب الاقتصاد وقد اقتصروا على نار صغيرة مراعاة للاقتصاد فى نفقاتها .

وبقرب هذا المعبد كشك آخر معد للبوليس ورجال الضبط والربط لأحصاء عدد الموتى. وبهذه المناسبة نقول أن لأدارة المحافظة ممثليها فى كافة المقابر لأحصاء عدد الموتى من جهة وللتحرى عن أسباب الوفاة من جهة أخرى ليتمكنوا من أداء مهمة الأشراف على شؤون الصحة العامة على وجهها الأكمل .

وهذه المبانى قائمة كلها على شرفة عالية يطل منها منظر جميل على مدينة بومباى. وهنا شاهدنا انموذجا صغيراً للبرج لازدخول البرج نفسه محظور .

والابراج عبارة عن حيطان مستديرة يبلغ ارتفاعها بين سبعة الى ثمانية أمتار. وهى من الداخل عبارة عن ثلاث اسطوانات داخل بعضها. وقد أعد الفراغ الذى بين جدار البرج والاسطوانة الاولى لدفن الرجال وما بين الاسطوانة الأولى والاسطوانة الثانية لدفن النساء والاسطوانة الثالثة وهى أصغرها لدفن الاطفال . وفى داخل الاسطوانة الاخيرة بئر عميقة ويبلغ غورها ٢٠ مترا .

وقد قيل لنا أن الميت يلف فى قماش أبيض ثم يؤتى به إلى المعبد وهناك يحضر أقرباؤه وأصدقاؤه حاملين مختلف الزهور لوضعها حول الجثة وبعد تلاوة الدعوات المألوفة يحمل الجثة خمسة من الرجال فيدخلون بها من أحد الابواب إلى البرج فيجردونها من اللفائف ويتركونها طعاما للطير .

ومن غريب أمر القوم أن طقوسهم تقضى بأن يختار لحمل الجثة أشخاص

ذوو عقول مختلة (أى بلهاء) بلا إرادة بحيث يكونون وأشبه بالآلات الميكانيكية . إذ ليس للقسيس ولا لغيره من الناس حق دخول البرج المقدس بل هو قاصر على أولئك البلهاء دون غيرهم .

فلا يكاد أولئك الرجال يديرون ظهورهم على الجثة ويقفلون عليها الباب حتى يهوى عليها جيش من قشاعم النسور والحدأة والغربان الغير مألوفة فتنهشها نهشا وتمزقها اربا وتزدردها بجشع حتى لقد قيل لنا أن الجثة لا تمضى عليها ساعة أو اثنتان حتى تكون قد تلاشت نهائيا وأصبحت نهشا للنسور والغربان بحيث لا يتبقى منها شيء عدا العظام .

وقد كان إلى جانبنا أحد قسس البارسى فلما رأى الاشمئزاز باديا علينا حاول أن يزيل ما أحدثه هذا المنظر البشع من التقزز فى نفوسنا فالتفت الينا قائلا : إن الأجانب يدهشون لالتهام الطيور لجثة الميت مع أن طريقة الدفن عندهم نتيجتها أن الدود هو الذى يؤدى هذه المهمة . ثم تساءل هل هناك من فارق كبير بين أكل الدود أو الطيور للجثة ؟ أليست النتيجة واحدة فى كلتا الحالتين ؟ .

ويقال إن الرجال البلهاء المشار اليهم يدخلون كل يومين أو ثلاثة إلى البرج لأخذ العظام المتخلفة عن الجثة والقائها فى البئر الوسطى ولكثرة الأمطار والرطوبة وارتفاع حرارة الجو تصاب تلك العظام بالتفكك والتحليل ب مع مياه البئر وتتلاشى .

ب السهر على خدمة هذه النار فى المعبد ليل نهار ثلاثة من

ويتنار

ختمنا الزيارة باعطاء القسيس والحارس شيئا من النقود .

وقد .

وهنا تاقت نفوسنا إلى زيارة المكان الذى تحرق فيه جثث الموتى ولكن لم نتمكن من ذلك لعدم وجود تصريح بيدنا .

وعلمنا هنا أن القوم يحرقون الموتى على الأخشاب ثم يلقون برمادها الى البحر أو الى النهر . وعندى أن هذه خير طريقة للتخلص من الموتى فى بلاد شاسعة مكتظة بالسكان كما هو شأن الهند والا لضاقت البلاد بالمقابر لو اتبعت عادة المسلمين والافرنج فى دفن الموتى . على أن الامر الذى تتقزز منه النفس حقا هو كسر يافوخ الميت كما قدمنا فى بنارس .

وبعد نزهة قصيرة عدنا الى الفندق .

٢١ سبتمبر

توجهنا فى الصباح الى الباخرة التابعة لشركة « البنينسيولا والشرق » فالفينا أن قد جاء على ظهرها من أوربا نحو ٣٥٠ سائحا قاصدين بومباى وقيل لنا أن موسم السياح الذين يحضرون لزيارة الهند قد بدأ .

ثم وجدنا على ظهر الباخرة أيضا شبان الهنود وقد عادوا من أوربا فائزين باحراز قصب السبق فى مباراة لعبة « الهوكى » وقد خف الجمهور لاستقبالهم استقبال الابطال الفاتحين ووضع فى جيد كل منهم قلادة من الزهور .

وقد تاقت نفسى لزيارة تجار الجياد العربية الأصائل عملا بنصيحة الكتب الخاصة بزيارة بومباى .

وكنت أعلم من قبل أنه توجد فى بومباى صافنات الاصائل التى يؤتى بها من الموصل إلى الهند . فلقد عاد المغفور له الأمير عزيز حسن إلى مصر من خدمة الجيش الانجليزى فى الهند ومعه ستة من أنجم وأعظم الجياد الأصائل . ولما كان المهاراجات وكبار الموظفين الانجليز فى الهند ولع كبير

بسباق الجياد فان فى بومباى سوقا رائجة لتجارة الأصائل أكثر مما يلاحظه الانسان فى مصر . وبالفعل وجدنا أكثر من ٢٥٠ من هـذه الجياد وأن أغلب التجار والسياس من عرب البادية . وقد رأينا بينهم شخصا كان يتجر بالجياد فى مصر ومنـه علمنا أنه يعرف الكثيرين من المولعين بالسباق فى مصر .

وقد يدهشك أن تعلم أننى لم أر بين هذه الجياد جميعا ما يستحق أن يلفت النظر . ومما يستحق الذكر أن هذه الخيول واطئة فهى ليست عالية كما كنت أسمع عن خيول الموصل ولما تساءلت عن سر ذلك التغيير أخبرونى أن الحرب العظمى قد استنزفت معين الخيول الجيدة فى البلاد . فنظرا لشدة فقر الأهالى وحاجتهم الملحة إلى المال لا يسعهم الانتظار ريثما تنمو الخيول وتبلغ السن الملائم بل يحاولون قبل بلوغها السنة الثالثة أن يلقحوها بعضها ببعض . وقد لاحظت أنهم يطلبون لكل من هـذه الجياد مبلغ ٨٠ جنيه وذلك بسبب ارتفاع نفقات النقل من الموصل إلى بومباى . وانى لعلى يقين بأنه لا يوجد فى مصر من تسمح له نفسه بدفع أكثر من ٣٥ جنيه إلى ٤٠ جنيه ثمنا لأحد من هذه الخيول .

٢٢ سبتمبر

حضر إلينا مندوب كوك فى الساعة التاسعة صباحا لنقل الحقائب الكبيرة إلى الباخرة . ولكننا لا نستطيع الصعود إلى ظهرها قبل إتمام عملية الكشف الطبي فدخلنا إلى الجمرك وفى إحدى الصالات الواسعة تولى الطبيب مهمة الكشف وسمح لنا بالصعود إلى الباخرة .

وكنت قد تنكرت فى رحلتى الهندية هذه باسم «رستم بك» فأضحكنى من القوم هنا على ظهر الباخرة أنهم ظنوا أن « رستم بك » هو الاسم كله بلا لقب متجاهلين أن لفظة « بك » هى الرتبة ! ! .

ثم لاحظنا وجود كثيرين من رجال الضبط والربط يحيطون بالباخرة. فلما تساءلنا عن السر فى ذلك قيل لنا أن «نواب بهوبال» وحرمه سيسافران على ظهر هذه الباخرة. ولما كان أخوه الأكبر الذي زهد فى العرش نزولا على إرادة والدته قد اختفى فجأة من الفندق فى مدينة «بونا» فقد خشي البوليس أن يكون إختفاؤه بقصد الوصول إلى أخيه على الباخرة للفتك به . فمنعا لهذا الشر جاءت شرذمة من البوليس لحماية نواب بهوبال وعقيلته . وفى إبان هذه الضجة جاءت الأنباء من بونا بأن الأخ الأكبر كان فى نزهة وأنه عاد إلى الفندق .

وبين من صعد إلى الباخرة هنا هندى طاعن فى السن يلبس لباسا أبيض وعلى رأسه عمامة بيضاء فاذا به أحد كبار رجال السياسة فى الهند . وقد خف كثير من الهنود لوداعه . وقيل لى أن هذا الكبير يحمل لقب « سير » .

وفى الساعة الواحدة صفرت الباخرة استعدادا للسفر . وبعد ربع ساعة اقلعت مراسيها وسارت بنا باسم الله مجراها ومرساها قاصدة إلى بلادنا العزيزة مصر .

وبذا تمت رحلتنا الهندية .

ملاحظات عمومية مختلفة

كان يكفى أن يزور الانسان الهند ويقضى بضعة أيام فيها ليحكم أنها بلاد عريقة بل قد تكون — كما علمنا فى بدء حياتنا فى مدارس النمسا — منشأ الجنس البشرى ومنها هاجر الناس إلى مختلف أنحاء الأرض .

ففى الهند يرى الانسان كافة النماذج البشرية التى تتكلم عنها الكتب العلمية وفيها شتى الألوان من أحمر وأصفر وأبيض كما توجد فيها نماذج مختلفة لأبناء الشعوب الأخرى ففيها مثلا من هو قريب الشبه بالصومالى أو الحبشى أو اليمنى أو العربى أو الأفغانى أو الفارسى أو التتارى أو الصينى أو الملايو أو الجاوى وكل ما توغل الانسان فى الداخل كلما رأى تعدد هذه الأجناس وتشعبها .

ويقال أن فى الهند ما يربى على ٩٠ دينا و ١٢ لغة أساسية وذلك كما سلفت الإشارة اليه نظرا لعدم وجود لغة رئيسية لأنها بلاد شاسعة . فلكل من أهالى الشمال أو الجنوب أو الغرب أو الشرق لغة خاصة لا يستطيع التفاهم بها مع سكان الجهات الأخرى وبالجملة فان الهند عالم بنفسه له شعوبه ولغاته المختلفة .

ثم لا تسل عن التعصب للدين فأثره محسوس إلى حد كبير .

ويمثل الحكومة الانجليزية فى الهند حاكم عام يسمى « نائب الملك » ويوجد تحت إشرافه حكام عديدون أحدهما للبنغال وآخر لبومباى وثالث لمدراس ورابع للبنجاب وخامس للولايات المتوسطة وعدا هؤلاء الحكام

يوجد أمراء كثيرون يشرفون بأنفسهم على شؤون بلادهم .

ويأتى فى طليعة أولئك الأمراء « نظام حيدر آباد » وهو أمير مسلم وأغلب رعيته من الهندوس ويبلغ عددهم نحو ٢٠ مليون نسمة وتعتبر بلاده أوسع بلاد يحكمها « الراجات » . وتقع بلاده فى وسط الهند فى الجهة التى كانت فيها ممالك « ديكان » . وكان بالقرب منه فى الزمن الغابر أغنى مهاراجاه فى الهند فى الجهة التى تسمى « جولكندا » .

ولما كان غنى راجا جولكندا مما سارت بذكره الركبان فلم يكن عجيبا أن يكون هدفا لمطامع الفاتحين فى مختلف العصور حتى إذا ما استولوا على ثروته انطلقوا يبسطون سلطانهم على بقية البلاد الهندية .

والأمراء الهنود يلقبون « بالمهاراجات » بينما أمراء المسلمين يلقون « نواب » . على أن الأمر المستغرب هو أن تكون أغلبية البلاد التى يحكمها أمير مسلم من الهندوس كما هو شأن حيدر آباد بينما الأغلبية اسلامية فى البلاد التى يحكمها المهاراجا الهندوسى !

ومهما بلغ من استقلال أولئك الأمراء أو المهاراجات فى إدارة شؤون بلادهم إلا أنهم تابعون للحاكم الانجليزى القريب من ديارهم . ولكل أمير من أولئك الأمراء « المستقلين » بعض من الموظفين الانجليز يقدمون له « النصيحة » عند الحاجة « ويرشدونه » إلى طريق الخير ! !

وبعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها وهى الحرب التى تقدم فيها المهاراجات بأجل الخدم وأنفعها للامبراطورية البريطانية على ما هو معلوم ومشهور طلب أولئك المهاراجات من حكومة لندن أن تضاعف من شأنهم

الأدبى بحيث لا يتلقون الأوامر إلا من نائب الملك رأسا لا من حكام الأقاليم .

وإذا كان لا يزال كثير من المهاراجات يتمتعون اليوم بالجلوس على عرش بلادهم فذلك بفضل ما أدوه للامبراطورية من صادق الخدمات وبخاصة فى ابان الفتنة الهندية وفيما تلاها من الفتوحات فى أنحاء بلاد الهند. والمهم هنا هو أن تعرف أن الحكومة البريطانية لم تستول على بلادهم بحق الفتح كلا بل عقدت مع الأمراء اتفاقات قنع هؤلاء بموجبها — ومن تلقاء أنفسهم — بالتظلل بالسيطرة الانجليزية فى مقابل تعهد الأنجليز بعدم التدخل فى شؤونهم وتركهم أحرارا فى إدارة بلادهم .

وإلى هذه الاتفاقات فزع المهاراجات وبها احتجوا على انجلترا عند ما أرادت بمناسبة الحركة الحاضرة فى بلاد الهند ، أن تدخل بعض قوانين جديدة . فقد احتجوا بأن الاتفاقات المشار إليها المعقودة بينهم وبين الأمراء تحظر عليها التدخل فى شؤون بلادهم . ولم يقف المهاراجات عند هذا الحد بل أرادوا إقامة الحجة ناصعة على صدق نظريتهم وعدالة قضيتهم فاكتتبوا بما ينيف عن ١٥٠٠٠٠٠ جنيه وأرسلوا فى دعوة رجلين من أعلام المحاماة المشاهير فى انجلترا ليذهبا إلى الهند للاطلاع على الاتفاقات المبرمة بين الفريقين تمهيدا لوقف الحكومة الانجليزية عن التدخل فى شؤون بلادهم والاعتراف بما لهم من الحقوق .

ولست أدرى علام اسفرت هذه الحركة . على أن ما أعلمه هو أن الحكومة البريطانية بينت للمهاراجات أن الأمر لا يقتضى كل هذه

الضجة اذ بحسبهم أن يجمعوا أمرهم ويوحدوا كلمتهم ويطالبوها بما يريدون فتلبى طلبهم وذلك نظرا لما يوجد من ناحية الفريقين من حسن الاستعداد للتفاهم . ذلك لأن الحكومة البريطانية بسبب الأحوال الحاضرة أحوج ما تكون اليوم لاكتساب صداقة المهاراجات واستبقاء مودتهم كما أن المهاراجات يهمهم بقاء السلطة فى أيدى بريطانيا لتظل لهم ثروتهم كاملة . فلقد نزلت الحكومة البريطانية لهؤلاء المهاراجات عن امتياز لا يمكن فى عصرنا الحاضر أن ترضى به أمة من الأمم لأن المهاراجات يحصلون من الشعب على الضرائب ثم لا ينفقونها فى شؤونه كما هو الحال فى البلاد الأخرى بل يحتفظون بها لأنفسهم باعتبارها ثروتهم الخاصة . فمثل نظامهم هذا كمثل النظام الاقطاعى الذى كان معمولا به فى الماضى . فالمهاراجات اذن يعتبرون أن كل ما يصنعونه لخير شعوبهم من فتح مدارس أو تعبيد طرق أو مد سكك حديدية — يعتبرون ذلك كله مجرد احسان وهبة يمنحونها لشعوبهم ليس غير .

وهذا هو السر فيما يتمتع به أمراء الهند من الثروة الضخمة التى تحير الألباب . مثال ذلك أن ثروة نظام حيدرآباد تقدر على ما يقال بملايين عديدة من الجنيهات .

ولست أريد طبعا بأقوالى هذه أن أعيب النظام الحالى أو أنتقده إذ الواقع المسلم به أن كثيرين من المهاراجات يعملون بلا انقطاع فى سبيل خدمة بلادهم ولا يفترون عن تقديم الخير لها . ولكن كل ما أرمى اليه هو تقرير حالة واقعة فقط بقطع النظر عما اذا كانت تتفق أو لا تتفق مع مقتضيات

العصر الحاضر ولهذا يعتقد المهاراجات المذكورون أن أى تغيير يطرأ على نظام الهند الحاضر أوأى تساهل فى إدخال شىء من التطورات العصرية فيها معناه تلاشى هذا الامتياز الذى يتمتعون به وبزواله تزول أهم دعامة من دعائم مايتمتعون به من ثروة وسلطان . ومن هنا ثقة انجلترا بشدة ولاء المهاراجات لها وعطفهم عليها .

* * *

ويصعب على الانسان حقا أن يجد لبلاد الهند مثيلا بين سائر البلدان الأخرى . فهى عالم مستقل بذاته وهى بلاد شاسعة يحار فيها العقل وناهيك بقطر يناهز عدد سكانه عن الثلثمائة مليون نسمة . ولقد اقتنعت مما رأيته وفهمته أنه يستحيل على أية مملكة أوربية عدا انجلترا أن تحكم الهند وتدير شؤونها . فإن كان الانجليز وفقوا فى حكم الهند فالفضل راجع بلا مراء الى حسن تدبيرهم من ناحية والى فعل الزمن من ناحية أخرى ثم إلى حظهم الكبير من الناحية الثالثة . ذلك لأن إدارة بلاد كالهند مترامية الأطراف متعددة اللغات والأديان والأجناس مهمة أكبر من أن تضطلع بها أمة أوربية معينة . ويلوح لى أن انجلترا اذا تخلت يوما ما عن ادارة الهند فلن تستطيع دولة أوربية أن تحل محلها فى تسيير الدفة الادارية بمثل هذا النجاح الباهر .

ولما كان المهاراجات لم يخرجوا عن كونهم من البشر فليس عجيبا اذن أن تدب الغيرة إلى قلوبهم وأن يفعل الحسد فى أنفسهم مايفعله فى أنفس الغير . وأشد ما تدب إلى قلوبهم الغيرة بمناسبة الأعياد والحفلات الرسمية . فهناك وقت التنافس ومحاولة كل منهم أن تكون له الحظوة أكثر من زملائه .

ولما أدركت الحكومة البريطانية ما للغيرة وحب التنافس من السلطان فى نفوس المهاراجات لم يفتها استغلال هذه العواطف لمصلحتها فقررت أن تكون الاسبقية والاولوية لمن يتفوق على إخوانه المهاراجات فى خدمتها والتفانى فى العمل على توسيع نفوذها . ومن ثم جعلت منح الرتب لهؤلاء المهاراجات بنسبة اخلاصهم لها وتفانيهم فى خدمة مصالحها .

أما المكانة ومبلغ مايتمتع به المهاراجا من حظوة واعتبار فى نظر البروتوكول فدليله عدد ما يطلق له من المدافع عند زيارته للحاكم العام أو زيادة عدد «النيشانات» التى تزين صدره . ففى سبيل طلقة مدفع تطلق لأحد المهاراجات أكثر مما تطلق لزميله تراه لايطمئن له بال أو يقيم الدليل تلو الدليل على فرط اخلاصه للحكومة البريطانية وذلك بالتفوق على منافسه فى تقديم خالص الخدمات لها . ثم ان هذا المهاراجا لايفتأ يحاول أن يبز غيره فى استرضائها واستبقاء عطفها بما يفعله مما يعلم أنه يكسبه صداقتها وهكذا وهكذا مما يطول شرحه .

وفى يقينى أن الحكومة البريطانية لو تخلت عن الهند لنشبت حرب ضروس بين المهاراجات بعضهم وبعض كما كانت الحال فى الماضى ولعادت الهند القهقرى بسبب تلك الحروب الداخلية إلى أن تتم الغلبة لثلاثة أو أربعة من كبارهم وهنالك يبسطون سلطانهم على مختلف أنحاء الهند إذ يتعذر فى الوقت الحاضر أن يؤاتى الحظ أحد المهاراجات بحيث تتم له الغلبة على الجميع .

وفى الحق أن الانسان لا يتمالك نفسه من فرط الدهشة لقدرة الانجليز على حكم هذا العالم الهندى الذى هو اشبه بالمحيط الزاخر الذى يعج بمئات

الملايين من البشر . وأحسب أن هذه المعجزة ـ وحكم الهند هو معجزة بلا ريب ـ ما كانت انجلترا لتستطيع أن تقوم بها لولا اختلاف المهاراجات وتنافسهم اذ لو وحدوا كلمتهم يوما واحدا لما أمكن انجلترا أن تبقى فى بلادهم .

وبين المهاراجات من هو من سلالات قديمة وله دراية بشؤون الحكم ومنهم من هو حديث العهد بالعرش . ودعامة الحكم الانجليزى فى الهند إلى يومنا هذا المسلمون وهم أقلية كما لا يخفى . فأغلبية رجال القضاء والادارة منهم . وإذا كان مسلمو الهند لا تنقصهم الشجاعة والوطنية والشهامة ولا يعوزهم التمسك بأصول الدين الصحيح والعقيدة الراسخة فانهم من الناحية الأخرى قليلو الثقة بمواطنيهم الهندوس فهم لا يطمئنون إلى أنهم لن يغمطوهم حقهم فى المناصب الحكومية فيما لو أصبح أمر الهند بيدها . وهذا مايجعل المسلمين فى الهند على وئام دائم مع الانجليز .

ولقد كنت أعرف فيما مضي من الأيام شابا يدعى أغا خان وهو هو بعينه الذى أصبح شخصا بارزا فى سياسة الهند فى الوقت الحاضر

عرفت أغا خان هذا عندما كان شابا وكان ابوه من عظماء مسلمى الهند وصاحب الطريقة الاسماعيلية . وقد انحدر أبوه من سلالة فارسية وكان على جانب عظيم من التقوى والصلاح ولذا كان يعتبر من كبار رجال الوعظ والارشاد . وقد تمكن ذلك الرجل على مايقال من هداية كثيرين من الناس الى اعتناق الدين الاسلامى الحنيف واستمر يعمل لمحض الخير حتى رأينا له فى أفريقيا الشرقية فى جهة زنجبار والسواحل واوغندا مساجد ومدارس ومكاتب ومستشفيات الخ ما هنالك من الأفعال الخيرية . وهذا كله كان

بمثابة دليل ناطق على أن الرجل كان يعمل للخير بماله ونفوذه لا يبتغى جزاءا ولا شكورا حتى اشتهر ذكره فى بلاد الهند ونبه اسمه فى ذلك القطر من أقصاه إلى أقصاه فأصبح موضع التكريم والاحترام والتبجيل .

فلما قابلت ابنه فى حفلة يوبيل الملكة فيكتوريا لم يكن أميرا بل كان مجرد « أغا خان » بن ذلك الرجل المشهور بالصلاح . ولكن الحكومة البريطانية لم تتوان فى مكافأة أغا خان بلقب « أمير » لقاء ماقدمه لها من خدمات فذة جليلة أثناء الحرب العالمية الماضية . لا بل لقد ذهبت تلك الحكومة إلى أبعد من ذلك فمنحته لقب « دولة الأمير » فأصبح الآن يسمى « دولة الأمير أغا خان » بعد أن كان مجرد فرد عادى لا يمتاز عن الغير إلا بأنه ابن أحد رجال الطرق الدينية . وبعد أن كان لا وزن لشخصيته ولا احترام له إلا بفضل أعمال أبيه صار اليوم صاحب النفوذ الاكبر بين المهاراجات وأصبح يتيه دلالا واعجابا بما له من حظوة كبرى لدى الحكومة البريطانية . كل ذلك بفضل ما قدمه من الخدمات لتلك الحكومة وبفضل نباهته وفرط ذكائه وحسن كياسته فى إيهام الانجليز بأنه أكبر مسلم فى الهند وأن قوله هو القول الفصل بين المسلمين هناك مع أن نفوذه — كما يعلم ذلك كل من له أقل إلمام بشؤون الهند — لا يعدو طائفة الاسماعيلية وهى من طوائف الشيعة هذا فضلا عن أنها أقلية بين مسلمى الهند لأن أولئك المسلمين سنيون كما لا يخفى وتوجد بينهم طرق عدة مثل الطريقة الأسعدية وغيرها .

ومما يدعو إلى الأسف حقا أن أغا خان هذا بدلا من أن يحتذى حذو أبيه فيقيم داخل البلاد ويترسم خطواته فى أعمال الخير ويعمل لرفعة الدين كما

كان شأن أبيه إذا به يقضى أكثر أيامه متنقلا بين الحواضر الاوربية ويغشى أماكن مسابقة الخيل غير عابىء بشؤون طائفته بل لا يذهب إلى الهند إلا لقضاء شهر أو اثنين فى كل عام ريثما يستولى على الجزية من رعاياه وهى عماد ثروته الضخمة . ولاحقاق الحق ينبغى أن أقرر هنا أن هذه الرواية الخاصة بأغا خان إنما سمعتها بأذنى من كثيرين من رجال الهند المسلمين .

الشؤون الدينية

الهند كما قلنا بلاد الأديان العديدة وشتى العقائد والمذاهب المختلفة . والمعلوم أن الأغلبية هى للهندوس ثم يأتى بعدهم المسلمون . وهناك أيضا طائفة السيخ ولكنهم قليلوا العدد وتقع بلادهم فى الشمال بالقرب من لاهور وجبال الهملايا . وأغلب هؤلاء السيخ طويلو القامة وتقتضى طقوسهم الدينية بعدم قص شعر الرأس وارسال اللحية وهم والحق يقال من من خيرة الجنود المحاربين فى الجيش الهندى الانجليزى ولذا يستخدمهم الانجليز فى اطفاء نيران الفتن وقمع الثورات عند شبوبها فى أية جهة من جهات الامبراطورية وذلك لجرأتهم وشدة ولعهم بالحرب. فهم بالاختصار رجال الضبط والربط والبوليس فى المستعمرات الانجليزية وفى بورما والملايو والصين .

ومع أنهم أقرب الطوائف الهندية الى الاسلام فهم أشدها عداء له ولمعتنقيه . فنظرا لقرب موقع بلادهم من بلاد الأفغان اقتبسوا منهم شيئا من أحوال الاسلام وأصبح مذهبهم منطبقا على ما جاء فى سورة الاخلاص الا وهو التوحيد دون الايمان برساله النبى محمد عليه الصلاة

والسلام. فهم كالمسلمين من حيث الايمان بوحدانية الله وانما يختلفون عنهم من حيث عدم الايمان بصاحب الرسالة الاسلامية. ولما كانت قد حدثت بينهم وبين الفاتحين المسلمين حروب شتى فان فى قلوبهم جراحا ناغرة لا يستطيعون تناسيها إلى اليوم. هذا هو سر عدائهم الشديد للمسلمين ولهذا تراهم الآن يعملون على التقرب من الهندوس أكثر مما يسعون للتفاهم مع المسلمين.

ومما يلفت الأنظار أن معابد السيخ خالية من الاصنام ولهم كتابهم كالقرآن ولهم أورادهم المختلفة يتلون كلا منها حسب اليوم المعين من أيام السنة. وتقضى عاداتهم - كما فى الاسلام - أن لا يسير الانسان الا مساحا وأن يمشط لحيته وأن يكون بذراعه الأيسر حجاب معلق أو سوار من الحديد.

وفى الهند طوائف على جانب عظيم من الشجاعة والجرأة ويأتى فى مقدمة هؤلاء المسلمون المرابطون على الحدود الأفغانية. ثم يأتى بعدهم رجال الجوركا وهم قصيرو الاجسام يسكنون فى جبال الهملايا ونظرا لقرب موقع بلادهم من بلاد التيبيت ترى ملامحهم قريبة من ملامح الصينيين. ويأتى من بعد هؤلاء السيخ وأهالى اقليم راجبوتانا.

أما سكان وسط الهند وجنوبيها والبنغال فتنقصهم فى الغالب الشجاعة والاقدام. فالرجل من شمالى الهند الغربى يستطيع مقاومة خمسة أو ستة من هؤلاء. وهذا يذكرنا بما شاهدناه فى جاوا فقد كنا نرى الحقيبة التى يكفى لحملها فى مصر أو فى الاستانة حمال واحد لا يكفى لحملها واحد أو اثنان من الجاويين بل لابد لحملها من خمسة أو ستة اشخاص.

ومن ثم تتفاوت معاملة الانجليز لرعاياهم باختلاف المناطق وعلى نسبة شجاعة سكانها. ففى الجهات التى يعلمون أن أناسها أقوياء الشكيمة ذوو نخوة وحمية يعاملونهم معاملة لينة مقرونة بالاحترام. أما حيث الأهالى ضعفاء تعوزهم الشجاعة والهمة فمعاملة الانجليز لهم معاملة جافة مقرونة بالاستخفاف والازدراء.

وينقسم الهندوس البراهمة إلى أربعة أقسام والمقول أن القسم الأول منهم خلق من رأس الآله « براهما » ويشمل رجال الدين والعلماء. والقسم الثانى من أكتاف براهما وهم المهراجات والقواد ورجال السيف. والقسم الثالث من بطن الآله ويشمل الفلاحين والمزارعين. والقسم الرابع والأخير وقد خلق من قدمى الآله وهم طبقة « المنبوذين » ويسمونهم « ياريا ».

ويبلغ عدد سكان القسم الأول ١٥٫٠٠٠٫٠٠٠ تقريبا والثانى نحو ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ والثالث ٨٠٫٠٠٠٫٠٠٠ والباقى هم الفريق الرابع.

والقسم الأخير أو قسم « المنبوذين » هم الذين لا يحتك بهم كبار البراهمة. بل يحظر حظرا كليا فى البلاد التى يقطنها سكان الفريق الاول من البراهمة ألا يمر بأحيائها أهل الفريق الرابع إلا فى وقت الظهر تماما أى عند ما تتوسط الشمس قبة الفلك حتى لا يقع ظله على أحد مساكن البراهمة اذلو وقع الظل على أحد المساكن لتنجس البناء ومن ثم ينادى سكان الحى ويخرجون جميعا فينهالون على ذلك البائس بهراواتهم الطويلة لا بأيديهم تفاديا من النجاسة !!

ويوجد فى بلاد البنغال وحدها مالا يقل عن ١٢٠ طريقة من طرق الهندوس ويعرف أهل البلاد درجات بعضهم بعضا بما فى جباههم من الاشارات الكثيرة .

وتوجد عدا الشارات التى بين العينين شارات أخرى لمعرفة درجة الانسان وذلك بطريقة التدثر بالشيلان أو الأحرمة . فالتدثر إلى اليمين يعنى درجة معينة تختلف عن درجة المتلفح بها إلى اليسار أو بين الأرجل . ثم إن النساء يحملن بعض الزهور على رؤوسهن وهذه شارة دينية خاصة . وكذلك طريقة الاغتسال . فالاغتسال باليد اليمنى يعنى اشارة خاصة غير الاغتسال باليد اليسرى وهكذا وهكذا مما يحار العقل فى تكييفه ويحق القلم قبل أن يأتى على نهايته .

ويعتبر حامل القلادة من أسمى طبقات الهند وأرفعها درجة . وهذه القلادة توضع فى العنق وهى من ثلاث « فتل » من القطن الرفيع .

ويقال إن راجا ترا فانكور عند ما يتبوأ العرش يطمح إلى أن تكون طبقته أسمى الطبقات ولا يتم هذا إلا إذا أقيم مهرجان دينى عظيم بقصد ترقيته إلى هذه الدرجة الرفيعة . ويشتمل المهرجان على أن يصنع القوم من الورق المقوى السميك بقرة هائلة يموهونها بالذهب ثم يتجرد المهاراجا من ملابسه كلية ويدخل فم البقرة ويخرج من دبرها وهكذا يكون الآله قد ابتلعه ! فيعتبر هذا بمثابة رمز لميلاد الراجا من جديد!! ويتبع ذلك أن تصبح درجته أسمى الدرجات وأرفعها شأنا . حتى إذا ما « ولد » الراجا أحرقت البقرة واستولى القسس على مافى جوانبها من الذهب !

والهندوس شعب مسالم بفطرته ومن طبيعته الهدوء وعدم الجنوح للاعتداء على الغير . ولكن سرعان ماتثور ثائرته ويتحفز للانتقام متى رأى من يذبح البقر ويحاول أكل لحمه . ولهذا ترى أن أغلب المنازعات الطائفية بين المسلمين والهندوس مرجعها الرئيسي ذبح المسلمين للأبقار فى أعيادهم . وهنا لايرى الانسان مناصاً من توجيه شيء من اللوم الى المسلمين بسبب أصرارهم على ذبح الأبقار مع علمهم بما يترتب على ذلك من سيء الاثر فى نفوس مواطنيهم الهندوس .

وليس مسلمو الهند بأكثر علما بقواعد الدين الاسلامى الحنيف من مسلمى البلاد الأخرى . ولكنهم يمتازون عن الآخرين بشدة تمسكهم به وغيرتهم الحارة عليه . ثم إن تمسكهم بأحكام القرآن الشريف يكاد يبلغ درجة التعصب . وبما أن سورة البقرة تشير إلى ذبح بقرة صفراء كما أن فى سورة ابراهيم حديثا خاصا بالفداء فان مسلمى الهند يرون أن ليس فى استطاعتهم التهاون فيما أمر به القرآن لا لشيء سوى مرضاة مواطنيهم الهندوس . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يرى المسلمون أن نزول الآية الشريفة بذبح البقرة إنما أريد بها إقامة الدليل لعباد البقر على فساد عقيدتهم وان إلههم المزعوم ليس إلهاً . فمسلمو الهند يعتقدون أنهم بتمسكهم بذبح البقر عملا بنص القرآن الشريف إنما يقيمون الدليل على عدم ألوهية البقر ومن ثم ترى حرصهم على ذبحه .

والمسلمون جميعا اخوان فى نظر مسلمى الهند وهذا يعلل اهتمامهم بأحوال العالم الاسلامى وحوادثه . وعلى أن ما آلم نفسى أشد إيلام رؤية

نسائهم يسرن فيما يشبه الأكياس المربوطة فوق رؤوسهن لا منفذ فيها إلا ثقبان صغيران للأعين . فاذا زعموا أن هذا هو الحجاب فقد فاتهم أنهم بالغوا فيه أشد مبالغة حتى خرجوا بعملهم عما نص عليه الدين الحنيف .

ولما كانت العمامة تكسب الوجه روعة فإنك تجد كافة أهالى الهندوس يلبسونها . وفى الحق أن منظرهم فيها لما يبعث على الهيبة . ولكن المسلمين رغبة منهم فى مخالفة سواد الهنود يلبسون الطرابيش أو القلانس أو العزيزيات أو القلابك مع علمهم بأن العمامة تلبس فى كافة البلاد الاسلامية ولما كان لا يوجد فى الهند من يقوم بكى الطرابيش فترى لابسيها يهملون شأنها وتكون النتيجة أنها تبعث فى نفس الانسان شيئا من الاشمئزاز والسخرية من لابسيها . ومعنى هذا أن التناسق فى ملبس الرأس مفقود بين المسلمين بعكس الهنود الذين يراعون التناسق بلبسهم العمائم المختلفة من ذهبية وبيضاء .

ومما لفت نظرى وعجبت له كل العجب أن المتدينين من المهاراجات يترفعون عن لبس الأحذية لأنها مصنوعة من الجلد ! ويمكنك أن تتصور ما يبعثه فى نفسك من الازدراء منظر أحدهم وصدره مزدحم بما فيه من مختلف الأحجار الكريمة وما يخطر فيه من حلل فاخرة ثم هو فى الوقت نفسه يسير حافى القدمين مراعاة لتقاليد دينه . على أن هذه التقاليد آخذة فى التلاشى السريع لأن المهاراجات عند ما يحجون الى الأقطار الاوربية يتجاهلون تلك التقاليد ولا يسيرون إلا فى الأحذية .

كلمتان عن الانجليز فى الهند

ليس شك فى أن الادارة الانجليزية فى الهند تقوم على أساس قوى الدعائم لأنها استولت على هذه الامبراطورية الضخمة تدريجا وظلت السيدة المطاعة فيها كل هذه الأجيال العديدة . وهنا ليس يسعنى إلا أن أكرر ما سبق أن قلته وهو أنه يستحيل استحالة باتة على أية دولة أوربية أخرى أن تنهض بالأعباء الهائلة التى تضطلع بها انجلترا فى الهند .

وإذا كان المتداول عن الانجليز أنهم أكثر الدول تسامحا وأوسعها بصدرا نحو مستعمراتهم فمن أكبر عيوبهم التى لفتت نظرى عدم اختلاطهم أهل البلاد الواقعة تحت حكمهم وترفعهم عن الاحتكاك بهم . . وبديهى أن هذا السلف يمس نقطة حساسة عند الأهالى ويجرحهم فى كرامتهم الوطنية ويبعثهم على الاعتقاد بأن الانجليز يترجون بترفعهم هذا عما يكنونه فى نفوسهم من الازدراء والاحتقار لأهالى البلاد .

وبالعكس ربما كان احتكاكهم بالأهالى أجدى وأنفع لانهم يقفون منهم مباشرة على مواطن الشكوى ويتعرفون عقليتهم . وبالجملة فانهم كانوا يغرسون فى نفوس الأهالى بذور حبهم للانجليز ويشربونهم مبدأ الميل اليهم . ولكنهم لا يفعلون شيئا من ذلك بل يكتفون للوقوف على أحوال الأهالى بما يسمعونه من موظفيهم ومن الوسطاء أو أعوان الجواسيس وفاتهم أن الجواسيس فى أى مكان قلما كانوا أداة توفيق ووئام بل هم فى جميع الأقطار أداة نزاع وخصام لأن همهم الوحيد هو الحصول على الرزق

بطريق التمويه والافتراء ونصب شباك الدسائس . وما كان أحرى الانجليز وأنفع لهم لو أنهم اختلطوا بالاهالى مباشرة بدون وسيط اذن لأفادوا واستفادوا.

ونسوق اليك بعض الأدلة على مبلغ ازدراء الانجليز فى الهند بعواطف الأهالى. فمثلا المهاراجات يقابلون فى انجلترا بأعظم مظاهر الحفاوة ويستقبلهم جلالة الملك جورج ويحفل بهم رجال الدولة الانجليز وأعيانها وكبار ساستها مما يجعلهم يعتقدون أنهم والانجليز من طينة بشرية واحدة . ولكن برغم هذه المظاهر الخلابة كلها فان حالتهم فى الهند تبعث على الاسى والحسرة . ذلك لان المهاراجا مهما علا شأنه وسما قدره ومهما كانت الحفاوة التى يقابل بها فى انجلترا فان ذلك لا يشفع له فى الالتحاق بأحد الأندية الانجليزية فى الهند ! ومما يزيد فى غرابة هذا التصرف أن نائب الملك نفسه وكبار الانجليز لا يرون غضاضة فى النزول عند أولئك المهاراجات فى بلادهم متى قصدوها للنزهة أو لقضاء أمور مصلحية أو فى طلب الصيد والقنص ! فهل لا يعلم الانجليز مبلغ ما يسببونه لبلادهم من المتاعب بسبب هذه الخطة وهل أدركوا أنهم كانوا يوفرون عليها الشىء الكثير مما تقاسيه الآن من العناء لو خطبوا ود الشعوب الواقعة تحت نيرهم ومدوا اليها يد الصداقة ؟

كلمة الختام

الآن وقد انتهت رحلتى إلى الهند فانى أتقدم بالشكر اليه تعالى على ماوهبنى من صحة وعافية ومال لأداء بعض ما علىّ من الحقوق نحو مواطنىّ.

ولقد سبق أن تقدمت لابناء وطنى برحلتى إلى البوسنه والهرسك ثم إلى اليابان ثم إلى شمالى أمريكا ثم إلى جنوبى أفريقيا ثم إلى شمالى أفريقيا ثم إلى جنوبى أمريكا ثم إلى أوستراليا وجاوا ثم إلى الشام وها هى الرحلة التاسعة إلى الهند وهى ختام رحلاتى حول العالم.

وإذا لاحظ القارىء فى الرحلة الهندية بعض الاطناب فما ذلك إلا وفاء لحق الأمبراطرة المغول المسلمين الذين كانوا كالمنار الرفيع فى وسط مايسمونه بالعصور المظلمة.

وإنى أعود فأكرر شكرى لله على ما وهبنى من النعم وأسأله أن يرشدنا جميعاً إلى طريق الصواب انه نعم المولى ونعم النصير

محمد على